فوزي معروف

هكذا يصنعون أنفسهم





فوزي معروف

هكذا
يصنعون أنفسهم

شخصيات ومواقف

من منشورات اتحاد الكتاب العرب
١٩٩٧

تصميم الغلاف للفنانة : وجدان ديركي

إهـــداء :

إلــى.....

سُــلاف

و

عمــر..

و أبنــاء جيلهمـــا ..



" مدخل "

صناعة النفس ..!!

ماذا تعني؟

المعروف في لغتنا العربية، أن صانع نفسه هو " العصامي " وهذه الكلمة منسوبة إلى " عِصام " حاجب النعمان وصارت تعني الشخص الذي يَشرف بنفسه لا بآبائه ولعل ذلك كان أصل القول الشائع " كن عصامياً لا عظامياً " أي - اصنع بنفسك مثل عصام ولا تتكل على مجد الآباء الذين صاروا عظاماً ..

كما أن بيت الشعر العربي الشهير يشير إلى عصام هذا حين يقول :

ونفسُ عصامٍ سوّدت عصاما — *وعلّمته الكرّ والإقداما*

وكلمة "عصامي " هذه تُقابل في اللغة الانجليزية "صانع نفسه " Selfmade وفي اللغة الفرنسية "ابن عمله".

...

كل عامل جاد في اختصاصه هو صانع لنفسه وكلُّ مَنْ يستطيع التفوق في ناحية ما من النشاط الإبداعي الإنساني الاجتماعي يمكن أن يصير من العظماء إذا اتجه للإبداع في هذا النشاط ورغب فيه .

قد يكون العامل رائداً اجتماعياً إذا أدرك في نفسه ناحية يتميز بها، ويعمل على استغلالها .. كما قد يكون المزارع والطبيب المعلم والفنان وغيرهم .. إذا عرف كلٌّ منهم تلك الميزة وركّز جهوده لخدمتها، خاصة أنه في العصر الحديث تغيرت الظروف التي تحيط بالفكر الإنساني نتيجة الثورة الشاملة في كل ما يتعلق بحياة الإنسان وفكره .. إذ مال الناس في القرن العشرين إلى الإيمان بالصفات المكتسبة، والتي صارت في العالم هي التي تحدد لنا منزلتنا أو حظّنا في الحياة بما صنعناه بأيدينا، بعد أن كانوا في القرون الماضية يميلون إلى الإيمان بالوراثة على أنها القدر، الذي يُعيّن لنا حظّنا في الحياة بما ورثناه من كفايات عن الآباء والأجداد ..

....

ليس العظماء في هذا الكتاب من نوع واحد في المعرفة فبعضهم مبدع في الأدب، وبعضهم عالمٌ أنقذ البشرية من بعض آلامها، وبعضهم فيلسوف أنار بأفكاره بعض الزوايا في الفكر .. التقوا جميعاً على هدف نبيل: هو خدمة الإنسان والإنسانية .. والتقوا جميعاً على الطريق للوصول إلى هذا الهدف، وهو "العمل .. ثم العمل" فصاروا عظماء خالدين .

قد يختلف الناس على مستوى الإبداع عند هذا أو ذاك كما قد يختلفون حول بروز الفروق الفردية بين هذا المبدع أو ذاك .. والكتاب حاول أن يتجاوز ذلك بقدر ما حاول التركيز على الخيط الجامع بينهم وهو القدرة على صنع النفس في ظروف قاسية كانت في معظمها غير مؤاتية ..

* * * *

قد يتبادر إلى ذهن القارئ الكريم أن هذا الكتاب يركز على دور الفرد - الذاتي - ويغفل دور الواقع الموضوعي إيماناً منه بأن الأعمال الإبداعية هي نتاج مبدعين أفراد، وإن كان الإبداع نفسه جزءاً من الحياة الاجتماعية .. ومن ثم ليس في مقدور أية عبقرية فردية أن تخلق مثلاً تياراً فنياً أو مرحلة فنية، بل قصارى ما تفعله العبقرية الفردية أن تدمغ بطابعها الفردي مرحلة من المراحل ذات المصدر الاجتماعي، فالمبدع لا يمكن أن يعبر عن مجتمعه وعصره إلاّ إذا كان ثمة تفاعل وتأثير إيجابي، بين "أنا" المبدع، و "نحن" المجتمع .. لأن الإبداع الحقيقي دائماً يكون من أجل الآخرين (المجتمع) يُلاحظ المرءُ أن الكتابات الحديثة، قد بالغ بعضها في إكبار دور الجماعة والبيئة وأضاف كلَّ شيء إليها وأنكر دور الفرد .. وإذا ذكر فعلى أنه أداة من الأدوات ليس له قوة ولا عمل ولا إرادة.

كما يُلاحظ أن بعضها الآخر قد بالغ - بالعكس - في دور الفرد فأعطاه كلَّ شيء،وألغى دور المجتمع والبيئة كما ألغى السابقون دور الفرد .

وهؤلاء مخطئون كما أخطأ أولئك لأنَّ الفرد قوّة قد تكون عظيمة الأثر أو ضئيلة، لكنها تبقى قوة لها أثرها في تكوين قوة الجماعة .. فليس من الموضوعية أن نجعل الفرد كلَّ شيء ونهمل دور المجتمع ،ولا أن نهمل دور الفرد لنعطي كلَّ شيء للمجتمع .

* * *

إن الصلة العامة التي تجمع هؤلاء، هي الإيمان بقدرة الإنسان على تجاوز نفسه دائماً والإيمان بتقدم المجتمع .. وأن عمل الإنسان الخلاق،هو صانع العبقريات الخالدة .. وليس فيهم واحد اعتمد على "الإلهام" فقط في إبداعه و خلوده ..وإنْ اعترف بعضهم بوجود "الإلهام" فهو اعتراف على طريقة "فلوبير" الذي قال: "الإلهام يعني أن تجلس إلى منضدة العمل "الكتابة" كل يوم وفي نفس الساعة"

كمـا أن القاسـم المشـترك الـذي يجمـع هـؤلاء، هو تغلّب الإرادة والعـزم ،علـى أي عـامل آخر في حيـاتهم بحيـث يُحـسُّ القـارئ لأعمـالهم والـدارس لحيـاتهم ،بـأنهم صنعـوا عبقريـاتهم بأنفسـهم، كمـا يشعر أنّهم لا يكـادون يملكـون موهبـةً مـن نـوع تميزهم عـن غيرهم مـن البشـر العـاديين، وأن موهبتهـم كـانت ثمرة إرادتهـم واستمرارهم في العمـل، وهنـا تتحلى عظمتهـم الإنسـانية .. ففـي حيـاة كـل واحـد منهـم، نجـد نـافذة ندخـل منهـا إلى نواحي العظمـة عـنده .. كمانجد في جـواب كل واحـد فيهـم عـن سـؤال حـول حياتـه، أو قـد نجـد الجـواب في حياتـه نفسـها،أو في بعـض أعمالـه .. نجـد أن العظمـة كامنـة في إرادة الإنسـان عندمـا يعقـد العزم على أن يكون عظيـم الأثر، ولعـل الشـاعر العربي قصـد إلى هـذا المعنى حين قـال:

والنفـس راغبـةٌ إذا رغبتهـا وإذا تُـردُّ إلى قليـل تقنـعُ

و كان المتنبي غيرَ بعيـد عـن هـذا حين قـال:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

إن الغايـة مـن وضـع هـذا الكتـاب،هي إنعـاش شـعور أن نعيـش الحيـاة في عمـلٍ وتعلـم، واستقطار كـامل للوقـت الـذي نتقن إهـداره ..

هـذا في الوقـت الـذي لا تزعـم فيـه صفحـات الكتـاب أنهـا تقـدم "وصفـة لـ ((كيـف يُصبح الإنسـان عظيمـاً ؟)) وإنمـا أحـد الأهـداف المنشـودة أن تشـير إلى درب العظمـة عنـد هـؤلاء الذيـن ورد ذكرهـم، لأن مـن علامـات النضـج في الإنسـان أن يفيـد مـن تجـارب غـيره ليختصـر الكثير من الوقـت الـذي يمكـن أن يهـدره وهـو يجـرب هـذا ويُقلـع عـن ذلك .. وأن الإنسـان لا يحتـاج أن يكـون موهوبـاً، خـارق الذكـاء كـي يكـون عظيمـاً ،وإنمايكفيـه أن يكون ذا قلبٍ يقـظٍ، وضمـير حـي، وإرادة مصمّمـة ،يشـعر أن الحيـاة لا تكـون حياتـه حقـاً، إلاّ إذا أُنفقـت في عمـلٍ مُتصـلٍ مـن أجـل الحريـة والحـق والعـدل، وهنـا يضـيء قـول " فيختـه ": ".... أمـا أن تكـون حـراً فهـذا لا شيء وأمـا أن تصبـح عظيمـاً فهـذا كـل شـيء " لأن الإنسـان الحقيقي هو مخلوق العمـل والإرادة .

كمـا يطمـح الكتـاب ،أن يكـون في حيـاة كـل واحـد مـن هـؤلاء ضـوء للشـباب الـذي لا يرضـى مـن حياتـه أن يكـون ضيفـاً أو مسـتأجراً في هـذه الدنيـا .

ولا يُريـد الكتـاب أن يقـول: إن الإرادة والعمـل، يحققـان المسـتحيل بـل يريـد القـول انهمـا يحققان الممكـن ولا حـدود مرئيـة لهذا الممكـن الـذي يمكـن أن يصـل إليـه الإنسـان .

إن أحـد طموحـات هـذا الكتـاب أن يحفـز القـارئ إلى آثـار الذيـن ورد ذكرهـم، وآثـار غيرهم ،لأن أي كتـاب مهمـا كـان لا يسـتطيع - وإن حـاول - قـول كـل شـيء عـن واحـدٍ مـن هـؤلاء .

اتفق الناس أن تاريخ الرجال العظام، هو خير مدرسة للناس .. وفي سيرهم دروس عظيمة الفائدة تدفعنا دائماً إلى الأمام .

والرجال العظام لا ينحصرون في مجال واحد من مجالات الحياة بل هم كمايقول " فولتير ": "مَنْ وفرّوا السعادة للبشر وهدوا الناس سُبل الحرية، ودعوا إلى ما يحقق المثل الإنسانية العليا ".

لم يتبع الكتاب الطريقة العادية – تعاقب الأزمان– وهو يتحدث عن بعض الذين صنعوا أنفسهم ،لا فيما بينهم كأفراد، ولا في تسلسل أحداث حيواتهم، ولكنه اتخذ من محمل حياة كل واحد فيهم المواقف المضيئة التي برز فيها دور الإرادة والقدرة على العمل المتواصل في جعل الحياة أكثر ثراءً وعطاءً .

تلك المواقف التي توضح ملامح الشخصية – موضوع الحديث – بقدر يكفي أن يجعل منها حافزاً نحو الصعود – إن لم ينجح في أن يجعل منها قدوة ومثلاً .

ليس القصد عرض الحياة في تتابعها الزمني، وإنّما القصد،التقاط تلك اللحظات العادية التي تبدو عند الكثيرين انها لحظات نادرة لا يملكها إلاّ الموهوبون من بني البشر .

الكتاب محاولة لأن يرسم لمن ذكرهم صورة فيها: شجاعة في المواقف، شجاعة في الرأي وصلت حدَّ الاستشهاد في سبيله، صلابة على المبدأ، إلى حد التضحية بالحياة من أجله ...

وشجاعة في الصبر على قسوة الظروف الذاتية والموضوعية المحيطة كما الشجاعة في الإرادة والعمل المتواصل من أجل الوصول إلى الهدف المرسوم .

وإذا كانت الصورة تبدو غير كافية هنا أوهناك فانها تبقى على أية حال صورة بوسع المرء إذا أراد أن يكملها وأن يسعى لذلك بنفسه .

وأحد الأمور التي يحاولها الكتاب، أن يضع القارئ أمام عدد من الأسئلة: كيف ننتصر علىعوامل التثبيط واليأس في حياتنا ؟ كيف نتجاوز الفشل ؟

كيف نتعلم الهدوء والصبر ونحن نحاول أن نقدّم شيئاً من أجل الآخرين، كيف نعود أنفسنا أن يكون لنا في حياتنا نعمل من أجله كي نبرر وجودنا الفاعل ؟

ولعل ما يريده الكتاب يوجزُ بكلمات .

يبقى النبوغ – أوصُنع النفس – ظاهرة اجتماعية فردية لم تستطع أكثر الظروف ظلاماً وقهراً أن تمحوها أوتحطّ من قدرها، وسوف يبقى النابغون – صانعو أنفسهم – مشعلاً يُضيء الدّرب نحو التقدم في العصور كلّها .

المؤلف

الباب الأول: من أعلام العرب

الفصل الأول:

أعلام قدماء



عمر بن الخطّاب (٥٨٦ – ٦٤٤ م)

" متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً " ؟

إنصافاً للحقائق وضع الدكتور "مايكل هارت " في كتابه عن " المائة الأوائل " في تاريخ البشرية ،وضع النبي محمد صلى ا لله عليه وسلم – على رأس هؤلاء الأوائل – أي أنه أعظم رجل أنجبته البشرية، بينما جاء ترتيب " عمربن الخطاب " الواحد والخمسين أي أنه كان على رأس الخمسين الثانية بين الأوائل، وهما الوحيدان من العرب في هذا الكتاب الذي صدر في نهاية سبعينيات القرن العشرين ..

وإذا كنا نقدر للمؤلف الأمريكي موضوعيته ،ونزاهته التي وضعت النبي صلى ا لله عليه وسلم في مكانه اللائق .. فإننا نأخذ عليه ترتيبه للخليفة عمر بن الخطاب ،حيث وضعه خلف كثيرين ممّن يجب أن يأتوا بعده في الترتيب

عمر بن الخطاب .... لماذا ؟

لأنه كان رائداً في أكثر من مجال من مجالات الحياة المتجددة ولأنه كان عظيماً أينما كان موقعه ولأنه القوي الذي يحسب حسابه أينما كان .. فحين كان عمر على الوثنية حمل المسلمون وهم قلة – دينهم إلى دار الأرقم، حيث يعبدون ا لله خفية وحين صار عمر إلى الاسلام ،كان إسلامه عاملاً حاسماً في الجهر بالدعوة، ونبذ التخفي والمداراة .. عندئذ يذهب إلى الرسول فيقول: " بأبي أنت وأمي يارسول ا لله ألا إننا لا نعبد ا لله سراً بعد اليوم..، استجاب الرسول (صلعم) لدعوته فخرجت الدعوى إلى الاسلام إلى أرض ا لله الواسعة ومن أجل ذلك أطلق الرسول عليه السلام لقب " الفاروق " بعد أن فرق بإسلامه بين الحق والباطل، بين العلانية والمواجهة، بين السر والعلن .

هذا وقد أرخ عمر يوم ميلاده، الروحي باليوم الذي صافح فيه الرسول (صلعم) وقال: " أشهد أن لا إله إلاّ ا لله وأن محمداً رسول ا لله " .. وهو اليوم الذي وجد فيه نفسه والتقى بمصيره العظيم، كما يقول خالد محمد خالد: "

عمر رجل المزايا المتعددة "

لو كان هناك رجل يجب أن يتسلط عليه الغرور لكان عمر بن الخطاب، لكثرة مزاياه ،وروعة أمجاده وانتصاراته ..

فهو يدخل الإسلام في حفاوة بالغة من الرسول وصحبه ..

ويتحول الإسلام إلى دين جهوري الصوت ،صادح الكلمة في اليوم الذي آمن فيه، وصار المسلمون يواجهون أذى المعارضين في شموخ بعد أن كانوا يستخفون من طغاة مكة ..

كثيرة هي المنافذ التي يمكن أن ينفذ منها الغرور .. ومع ذلك لا يكاد يعرف العرب والمسلمون – بعد عمر – نفساً امتنعت عن الغرور وتكسرت أمام حصونها المنيعة كلُّ محاولاته مثل نفس هذا الرجل – عمر بن الخطاب – الذي يعلل سبب ذلك بقوله: " لقد كنا ولسنا شيئاً مذكوراً حتى أعزّنا ا لله بالإسلام، فإذا ذهبنا نلتمس العزة في غيره ذللنا"(١)

وإذا كان الابتعاد عن الغرور أول مزايا عمر، فإن فهم الطبيعة البشرية ثاني مزاياه العظيمة، وللدلالة على ذلك نسوق بعضاً من أقواله . يقول ذات مرة " الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم " ويقول واضعاً ميزاناً دقيقاً للتعامل مع الناس: : " أحبكم إلينا قبل أن نراكم أحسنكم سيرة ،فإذا تكلمتم ،فأبينكُم منطقاً، فإذا اختبرناكم، فأحسنكم فعلاً " (٢)

كما أن عمر هو الذي أعلن: " إن الفضيلة ليست هي الإنسحاب من الحياة خوفاً من الفتنة، بل إن الفضيلة هي مجابهة الحياة ومغالبة الفتنة "

وحين سمع رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يتلو – لأول مرة – الآية الكريمة التي تقول: " أفحسبتم أنناخلقناكم عبثاً ثم إلينا لا ترجعون "، أدرك يومئذ أن سنوات عمره القليلة لن تغني عنه شيئاً وانه بحاجة إلى ألف حياة مثلها كي يستطيع أن يصنع ما يُرضيه، وكي يستطيع أن يعبد ربّه وأن يشكره ..

مدرسة عمر ..

يكاد يكون بحكم المؤكد، أن كلَّ عظيم، اقترب – تعلّم بطريقة مامن مدرسة عظيمة أثرت فيه، والمدرسة التي تربى بهاعمر فترة من حياته هي مدرسة الرسول العربي صلى ا لله عليه وسلم ،حيث عايش عمر هذه المدرسة ،وتعلّم منها الكثير .. مثلاً :

عرف الناس أن ا لله سبحانه وتعالى غفر لرسول ا لله • اتقدم من ذنبه وماتأخر فقال له كثيرون: لِمَ يارسول ا لله تقضي ليلك متعبداً ونهارك صائماً ومجاهداً " فيجيب عليه الصلاة والسلام:

" أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ "

كان ذلك قدوة لعمر الذي بشره رسول ا لله بالجنة ومع ذلك استمر دائم الخشية، والحذر والحياء، اقتدى وتعلم كان يخاف وكأنه على وشك أن يقع بالخطأ ..

ومماتعلمه عمر من هذه المدرسة العظيمة حين سمع رسول ا لله يقول لأحبِّ الناس لابنته فاطمة البتول: " يا فاطمة إن في المسلمين من هم أحوج منك بهذا المال " .. ثم يحرمها ويُعطي سواها ..

. وسمع بأذنيه و رأى بعينيه أعرابيا يقول لرسول ا لله وهو بين أصحابه: (أعطني فليس المال مالك، ولامال أبيك) ،ابتسم رسول ا لله صلىا لله عليه وسلم - وهو يقول لرجل: " صدقت إنّه مال ا لله " .

استفزّ المشهد عمر بن الخطاب، وهم ليبطش بالأعرابي، ردّه رسول ا لله برفق، وقال: " دعه يا عمر إن لصاحب الحق مقالاً " .

إنها مدرسة الديمقراطية والمساواة بأروع صورها التي وضع أسسها الرسول (صلعم) حين قال وهو يحكم على امرأة من بني مخزوم كانت قد سرقت: " إنّما أهْلَكَ الذين من قبلكم إنهم إذاسرق منهم الشريف تركوه، وإذا سرق منهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وا لله لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمدّ يدها " ..

مدرسة الجهر بقول الحق، تعلمها الناس من الرسول الكريم حين سمعوه يقول : " قُل الحق ولوكان مُراً "

مدرسة رفض المنكر وتغييره بمختلف الأساليب: " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان "..

مواقف في حياة عمر ..

عظمة الإنسان بمواقفه أو يمكن القول: العظمة مواقف وإلاّ من أين يمكن أن نتلمس جوانب العظمة ؟

كانت حياة عمر سلسلة من المواقف المجيدة في العدل، في الحكمة، في التواضع، في إبعاد النفس عن كل ما يشينها .. ليس أول المواقف أمنيةُ " ابن الخطاب " أن يظل " عمر " لا غير ،لا هو خليفة، ولا هو أمير..... فحين اقتربت الخلافة منه بعد وفاة رسول ا لله صلىعليه وسلم بسط إليه أبوبكر الصديق يمينه في اجتماع السقيفة قائلاً: "هات يدك ياعمر.

نبايع لك " لكن عمرخلص منها ناجياً إذ قال: " إياك نبايع فأنت أفضل مني " .. قال أبو بكر: " أنت أقوى مني ياعمر "

ردَّ عمر: " إن قوتي لك مع فضلك "

وسارع فمّد يمينه وبايع " أبابكر " وبايعه الناس على أثره وحين كان أبوبكر يودع الدنيا ويعهد بالخلافة لعمر تقبلها مكرها وكارهاً إمارة المؤمنين ،ولولا شعوره بالهرب من واجب المسؤولية في ظرف دقيق لرفض السطان وهرب من الإمارة .

كان عمر يُحمّل أهله من المسؤوليات أضعاف مايحمّله نظراؤهم من الناس ،حتى صارت القرابة من عمر عبئاً يرغب الأقرباء الفرار منه .. وكان إذا سنّ قانوناً ، أو حظر أمراً جمع أهله أولاً وقال لهم: " إني قد نهيت الناس عن كذا وكذا إن الناس ينظرون إليكم، كماينظر الطير إلى اللحم، إن وقعْتم وقعوا، وإن هبتم هابوا إني وا لله لأوتي برجل منكم وقع في مانهيت عنه إلاّ ضاعفت له العذاب لمكانه مني فمن شاء منكم فليتقدم، ومن شاء فليتأخر"..

يدخل عمر يوماً على دارابنه عبد ا لله فيجده يأكل شرائح اللحم فيغضب ويقول له: " ألأنك ابن أمير المؤمنين تأكل لحماً والناس في خصاصة ! ألا خبزاً وملحاً ألا خبزاً وزيتاً"..

وحين اشترى ابنه عبد ا لله إبلاً لتسمينها وبيعها للتجارة عتب عمر بتهكم لاذع: " .ويقول الناس حين يرونها .. ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين ، واسقوا إبل ابن أمير المؤمنين، وهكذا .. تسمن إبلك ويربو ربحكَ ياابن أمير المؤمنين ! ! "

ثم صاح به :

" يا عبد ا لله خُذ رأس مالك الذي دفعته في هذه الإبل واجعل الربح في بيت مال المسلمين .." .

– يقول الأحنف بن قيس: " كنتُ مع عمر بن الخطاب فلقيه رجل وقال: " ياأمير المؤمنين، انطلق معي ساعدني على فلان فقد ظلمني..رفع عمر " درّته "فضرب بهارأس الرجل وقال: " تتركونني عندما أكون بينكم، وتطلبونني حين أكون مشغولاً بأمور المسلمين؟! "

انصرف الرجل غضبان آسفاً ...

فقال عمر: " علي بالرجل .. " وحين عاد ناوله " درته " وقال له : " خُذ واقتص لنفسك "، وقال الرجل : " لا وا لله، لكنّي أدعها لله "

وانصرف عمر إلى بيته وجلس يحاسب نفسه، ويقول: " ابن الخطاب كنت وضيعاً فرفعك الله، ثم حملك على رقاب الناس فجاءك رجل يستعين بك فضربته، فماذا تقول لربك غداً ؟؟ " ..

–رآه الناس يعدو وراء بعير أفلت من مكانه .. يلقاه: " علي بن أبي طالب "، فيسأله: إلى أين يا أمير المؤمنين ؟ فيجيب: : بعير ندَّ من إبل الصدقة أطلبه " ! !

يقول له عليّ كرّم الله وجهه: لقد أتعبت الذين سيجيئون بعدك ؟ فيجيبه عمر بكلمات هي:

" والذي بعث محمداً بالحق لو أن عنزاً ذهب بشاطئ الفرات لأخذ عمر بها يوم القيامة " .

– كان عبد الرحمن بن عوف يرافق عمر في تفقّد أمر قافلة تجارية .كان ذلك آخر الليل ،جلسا قرب القافلة النائمة يحرسان ضيوفهما. سمعا صوت بكاء صبي ..انتظر عمر أن يكفَّ الصبي عن البكاء لكنه تمادى .. أسرع صوب الصوت ، قال لأمه: " اتّقي الله واحسني إلىصبيك ، ثم عاد إلى مكانه، عاود الصبي البكاء، هرول عمر نحوه ونادى أمه : " قلتُ لك أحسني إلى صبيك "، وعاد إلى مجلسه، ولكن زلزلة مرّة أخرى بكاء الصّبي، فذهب إلى أمه وقال لها: " ويحكك إني لأراكِ أمّ سوء ما لصبيِّك، لا يقرّ له قرار ؟، قالت وهي لا تعرف مَن تخاطب: " يا عبد الله أضجرتني إني أحمله علىالفطام فيأبى "!

سألها: ولِمَ تحملينه على الفطام ؟

قالت: لأن عمر لا يفرض إلاّ للفطيم .

قال وأنفاسه تتواثب: وكم له من العمر ؟

قالت: بضعة أشهر .

قال :ويحك لا تعجليه .

قال عبد الرحمن بن عوف: صلى بنا الفجر يومئذٍ وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء، فلما سلّم قال: " يابؤس عمر كم قتل من أولاد المسلمين ،ثم أمر مُنادياً يُنادي في المدينة :

((لا تعجلوا صبيانكم علىالفطام فإنا نفرض من بيت المال لكل مولود في الإسلام "(٣).

ثم كتب بهذا إلىجميع ولاته بالأمصار .

– زاره وفد من أهل (حمص) فسأله عن الوالي " عبد الله بن قرط " فيقولون " خير يا أمير المؤمنين، لولا أنه قد بنى لنفسه داراً فارهة " ..

تمتم عمر: " داراً فارهة، يتشامخ بها على الناس، ثم بعث إليه رسولاً يأتيه به .. وحين جاء الوالي إلى عمر امتنع عن لقائه ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع التقاه وعنّفه وقال له مُعاتباً: " هل أرسلتك لتشيد وتبني، ارجع إلى عملك ،ولا تعد لما فعلت أبداً ".

– حين تصل شكوى ضد " سعد بن أبي وقاص " أثناء واحدة من أمجد المعارك ضد الفرس في " نهاوند " يستدعيه عمر فوراً دون أن ينتظر إنتهاء المعركة التي توشك أن تبدأ، لأن النصر –كما يؤمن عمر – لا يُحالف قائداً أو جيشاً يجترح السيئات .

وفي مصر لم يشفع (لعمروْ بن العاص) حاكم مصر وفاتحها حين اشتكى أحد المواطنين على "محمد بن عمروبن العاص " الذي ضربه بالسوط ،لأنه سبقه أثناء السباق،ضربه وهو يقول: " خذها وأنا ابن الأكرمين "، أرسل عمر يدعو ابن العاص وولده محمد ..

وحين دخلا عليه، قال عمر. " أين المصري ؟ "

" أنا ذا يا أمير المؤمنين " أجاب المصري .

قال عمر: " خُذ الدرّة واضرب بهاابن الأكرمين، ضربه حتى أثخنه، قال عمر: أجلها على صلعة عمرو، فوا لله ما ضربك إلاّ بفضل سلطانه ..

قال الرجل: يا أمير المؤمنين، قد استوفيت، واشتفيت وضربتُ من ضربني " .

بعد ذلك التفت الخليفة إلىعمرو ،وقال كلمته الشهيرة: " يا عمرو، متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً " ؟

والتفت إلىالمصري وقال له: " انصرف راشداً فإن رابك ريبٌ فاكتب لي ."

* عمر .. والديمقراطية

" .... وأمرهم شورى بينهم "

صدق الله العظيم

كان عهد عمر بن الخطاب تطبيقاً رائعاً لماعنته هذه الآية الكريمة؛ فقد كان الخليفة يحني رأسه العالي بخشوع واحترام أمام كل معارضة شجاعة صادقة، حتى يمكن القول: بأن الشورى والمعارضة،ركنان تميز بهما عهد عمر،الذي شهد تألق الديمقراطية بصرورة ندر أن

شهد التاريخ مثلها، فما من مشكلة أو قضية ليس لها في كتاب الله تفصيل إلاّ عمد عمر فيها إلى الرأي والمشورة ..

ومن لوازم الديمقراطية حرية الكلام، مبدأ طبقه عمر أروع تطبيق قبل الثورة الفرنسية بقرون كثيرة إذا يدّعي كثيرون أن مبدأ حرية الكلام جاء مع الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ م والشواهد على تطبيق هذا المبدأ العظيم كثيرة أثناء خلافة " ابن الخطاب " .

من المعروف أن واحداً من الأعراب نهض في المسجد يواجه الخليفة قائلاً له: " لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوّمناك بهذا، (ويشير إلى سيفه) .

ومن أخبار عمر أن "حذيفة " دخل عليه فوجده مهموم النفس باكي العين فيسأله: " مابك ياأمير المؤمنين ؟!

فيجيب عمر: " إني أخاف أن أخطئ، فلا يردني أحد منكم تعظيماً لي "

يقول حذيفة، فقلت له: " والله لو رأيناك خرجت عن الحق لرددناك إليه " .

فرح عمر واستبشر وقال: ((الحمد لله، الذي جعل لي أصحاباً يقومونني إذا اعوججتُ..)) .

يصعد المنبر يوماً فيقول: " يا معشر المسلمين، ماذا تقولون لو ملت برأسي إلى الدنيا هكذا ؟! "

يشق الصفوف رجلٌ – وهو يلوح بذراعه كأنه حسام ممشوق: إذن نقول بالسيف هكذا..

فيسأله عمر: إيّاي تعني بقولك ..

فيجيب الرجل: نعم إياك أعني بقولي ..

يقول عمر: " رحمك الله، والحمد لله الذي جعل فيكم من يقوم عوجي " ..

وكان عمر يقول دائماً: " لاخيرَ فيكم إنْ لم تقولوا الحقيقة ولا خير فينا إذا لم نسمعها .."

- يخطب عمر في الناس يوماً فيقول:

" لا تزيدوا مهور النساء على أربعين أوقية، فمن زاد ألقيت الزيادة في بيت المال "

فتنبض من صفوف النساء سيدة تقول: ماذاك لك !!!

فيسالها: ولِمَ ؟!

فتُجيبه: لأن ا لله تعالى يقول: " .. وأتيتم إحداهن قنطاراً، فلا تأخذوا منه شيئاً، أتأخذونه بُهتاناً وإثماً مبيناً"؟!

يتهلل وجه عمر ويبتسم ويقول عبارته المأثورة: " اصابت امرأة وأخطأ عمر " .

كان عمريجتاز الطريق يوماً ومعه " الجارود العبدي " فإذا امرأة تناديه: " رويدك ياعمر، حتى أكلمك كلمات قليلة ...

يلتفت عمر وراءه، يقف حتى تبلغه السيدة التي تقول وهو مصغ مبتسم: " يا عمر عهدي بك وأنت تسمى " عُميراً " تصارع الفتيان في سوق (عكاظ) ثم لم تذهب الأيام حتى سُميت (عمر) .. ثم لم تذهب الأيام حتى سميت " أمير المؤمنين " فاتق ا لله في الرعية، واعلم أن من خاف الموت خشي الفوت " !!

فقال لها: " الجارود العبدي ": اجترأتِ على أمير المؤمنين . فجذبه عمر من يده، وهو يقول:

" دعها فانك لا تعرفها، هذه "خولة بنت حكيم " التي سمع ا لله قولهامن فوق سبع سماواته وهي تجادل الرسول في زوجها وتشتكي إلى ا لله فعمر وا لله أحرى أن يسمع كلامها! "

- رأى عمر عجوزاً تحمل حملاً ثقيلاً، تقدم منها وحمله عنها بعض الطريق، وصار يضحك من نفسه حين يسمعها تقول شاكرة: أثابكَ ا لله الخير يابني، إنك لأحقُّ بالخلافة من عمر ؟!!

- لاحظ عمر أن عذاب طغاة مكة يقع علىضعاف المسلمين فقط، وهنا أراد أن يرفع من شأن هذا العذاب بأن يشاركهم فيه حتى يغمرهم شعور أن عمر الجسور العملاق يُضرب كما يضربون، ويُضطهد كما يضطهدون حتى لا يَظل اضطهاد قريش وقفاً على بلال، وجناب، وعمار، وصهيب و إخوانهم من الفقراء المستضعفين ،وبهذ لا يصير ضربهم وتعذيبهم ذلة تكسر نفوسهم، وبهذا أيضاً يتم لعمر إسلامه، وتحقق له المساواة مع المسلمين الذين يدفعون ثمن إيمانهم با لله .

جوانب متألقة

ومثلما كان عمر متميزاً بكثير من المواقف المجيدة من مختلف جوانب الحياة فقد تميز خاصة بالتشريع والقضاء بأنه رائد، على سبيل المثال " يكتب لأبي موسى الأشعري موضحاً له منهج القضاء الذي ينبغي أن ينتهجه فيقول له: (أما بعد فان القضاء فريضة بحكمة وسُنّة متبعة فأفهم إذا أدلي إليك، وانفذ إذا تبيّن لك، فانه لا ينفع حق لا نفاذ له، آس بين

الناس في مجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف في عدلك، البينة على من أدعى واليمين على من أنكر، الصلح جائز بين المسلمين إلاّ صلحاً أحل حراماً أو حرّم حلالاً ..مراجعة الحق خيرٌ من التمادي في الباطل ..."

والرسالة طويلة وتعتبر بحق مرجعاً لكثير من قضايا لتشريع .

كما تميز بالتوجيهات العسكرية الفذّة حين يكتب لسعد قائلاً: " إذا وطئت أدنى أرض العدو فاذك العيون بينك وبينهم حتى لا يخفى عليك أمرهم، واختر لهذا من تطمئن إلى نصحه وصدقه فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدق في بعضه، وهو عين عليك وليس عيناً لك "

– لعل عمر هو أول من وضع مبدأ " من أين لك هذا " في الاقتصاد فلنسمعه كيف يعبر به خرية العظيم حين يحدث سارقاً استغل منصبه في الحادثة التالية:

– لفتت نظره دار جديدة فيسأل: دارُ من هذه ؟ فيقولون: دار فلان وهو أحد ولاة عمر ،فيقول: " أبت الدراهم إلاّ أن تخرج أعناقها " ومثلما حمل على السّرقة والسراقين، شنّ كذلك حملة على الكذب المكشوف فحين يسمع نائحة تستجيشُ أحزان الناس وتمسح دموعها الكاذبة يناديها ويطردها ،ويقول: " إنها لا تبكي بشجوتكم إنّما تبكي بدراهمكم "

والعظيم في جانب غالباً ما يكون عظيماً في أكثر من جانب فقليلون هم الذين عبّروا عن خلود الشعر الصادق كما عبر عمر بن الخطاب، الذي سأل يوماً أحد أولاد " هرم بن سنان " الرجل الذي خلّده " زهير " بشعره الذي قاله فيه ..

قال له أنشدني بعض ماقاله زهير في أبيك . أنشده، فقال عمر: " كان ليحسن فيكم القول " فأجابه الرجل ابن هرم: " ونحن والله إن كنا لنحسن له العطاء " فيقول عمر: " قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم "

□□

هوامش :

١- خالد محمد - خلفاء الرسول - دار الشروق، بيروت ،كانون الثاني، ١٩٧١، ص ١٣٨ .
٢- عباس العقاد - عبقرية عمر - دار الكتب الحديثة ،القاهرة، د/تا، ص ٥٠ .
٣- خلفاء رسول الله مصدر سابق . ص ١٧١

المراجع والمصادر :

١- عباس محمود العقاد - عبقرية عمر - دار الكتب الحديثة د / تا القاهرة .
٢-ابن الأثير - أسد الغابة في تمييز الصحابة - الناشر - المكتبة الإسلامية .
٣- السيوطي - تاريخ الخلفاء - المكتبة التجارية الكبرى - الطبعة (٢) ١٩٦٩ .
٤- خالد محمد خالد ،خلفاء الرسول - دار الشروق - بيروت، كانون الثاني ١٩٧١
٥- د. مصطفى السباعي .اشتراكية الإسلام، سلسلة اخترنا لك رقم ١١٣، الطبعة الثانية-١٩٦٠ .
٦- جمال الدين بن الجوزي - تاريخ عمر بن الخطاب - ط٢، ١٩٨٥ .

أبـو ذر الـغـفـاري

" ما ترك الحقّ لي صديقاً "

كان عمر " أبي ذر الغفاري " سبعين عاماً عندما استلم " عثمان بن عفان " الخلافـة ، ومع الشيخوخة في هذا العمر، لم يسكت عندما رأى العدوان علـى حريـة المواطـن وعلـى مـا ندعوه اليوم بالديمقراطية عموماً .

وكانت نفس " أبي ذر " مهيأة للثـورة عنـد أي انحـراف يـراه، والبـاحث في التـاريخ العربي قبل الإسلام يلمح أن بذور هذه الثـورة قـد نمـت في ظـل عـذاب الفقـراء، مـن قبيلـة (غفار) خاصة والمسحوقين في ذلـك المجتمـع عامـة، وكـان هـذا العـذاب أول الدوافـع الـتي أوقدت شرارة البحث عن طريق لإنقاذ هؤلاء الفقراء من الفراغ في البطون ' والوهم في العقـول والأفكار .

بين استغلال الأغنياء وعذاب الفقراء، بدأ " أبو ذر " يبحث عن طريق ،وكـان العـدل أحد أهم الأهداف عنده فحين وجده في الإسلام سارع ليكون أول المؤمنين به، ليتحقق العدلُ حلُمه الأكبر على الصعيد الواقعي الإنساني .

هناك أكثر من حادثة شاهد فيها " أبوذر " مهانة الأصنام وفي جوٍّ مشجع من قبيلتـه (غفار)(*) . التي اشتهرت بين قبائل " كنانة " بالنشاط الديـني الـذي عظُمَ قبيـل ظهـور الإسلام، وعُرف باسم البحث عن الحقيقة .

روي عن أبي ذر أنّه كان أحد الذيـن تمـردوا في الجاهليـة، علـى عبـادة الأصنـام كـي يتحولوا إلى الإيمان بخالق عظيم، لأنه كان يحمل طبيعة فوارة اكتسب معهـا الوعـي الـذي جعله يتمرد على الباطل وكان أول باطل ثار عليه هو الأصنام .

وحين صدع الرسول صلى ا لله عليه وسلم بالإسلام، كان " أبـوذر " مـن أوائـل الذيـن وجدوا فيه تحقيقاً لما في نفوسهم، وحين آمن بالإسـلام، وكـان مـازال ينتقـل همسـاً، رفـض الهمس وجهر بما آمن به، يتحدى كبرياء قريش دون أن يعتمد في مكة على حسب أونسب

(*) غفار: من قبائل العرب فرع من معدّ قطنوا في الحجاز أسلموا سنة (٦٢٩م) فتحـوا مكة تحت قيادة خالد بن الوليد وبـايعوا لأبي بكر بالخلافة ونـاصروه علىأهل الـردة . المنجد ص ٣٧١ .

.. تحمّل العذاب، حاولت قريش أن تنتقم منه ولكن كفّت عن ذلك حرصاً على مصالحها لأن قوافل قريش لا بد أن تمرّ بأرض قبيلة " غفار " في طريقها إلى الشام .

إن الصدق الجسور هو جوهر حياة أبي ذر، كان صادقاً مع نفسه حين ثار ضد الأصنام في الجاهلية، وكان صادقاً مع نفسه حين كان أول من رفع الصوت ضد الانحراف واستغلال السلطة بعد ظهور الإسلام .

لم يكن الصدق عنده فضيلة خرساء لأن الصدق إن كان صامتاً ليس بصدق عنده، إن الصدق الحقيقي جهر بالحق، وتحدٍّ للباطل، لذلك احتج وعبر عن احتجاجه بصورة لم يصل إليها واحد من معاصريه، وإن لم ينجح في الوصول إلى ما ناضل من أجله ومات وحيداً لكنه بعمله هذا ترك للآتين بعده أن يكملوا ما بدأ، وأن يتلمسوا جوانب العظمة عند ثائر وقف إلى جانب العدل، والإيمان بخالق عظيم في وقت مبكر من التاريخ العربي، وإن طالبناه بأكثر من ذلك فإننا نحمله ونحمّل عصره أكثر مما يُطيقان .

غالباً ما انتهت محاولات أخرى مشابهة إلى مثل ما انتهت إليه محاولة أبي ذر (الرومانسية) ولعل لهذه الرومانسية في حياة هذا الثائر علىعبادة الأصنام – جذوراً تكمن في الواقع حوله ليس هنا مجال بحثها .... ومع وجود هذه (الرومانسية) في حياته، فقد كانت السلطة والأمراء، والمال – مال الشعب – قضاياه الكبرى التي وهبها حياته لتكون مشكلته مع الواقع والمستقبل .. ولن يسكت عن الظلم لأن الساكت عنه شيطان أخرس، وذلك انطلاقاً من فهمه الواعي للآيات الكريمة التي ألزمت المواطن طاعة الحاكم عند العدل والسواء، ولم تمنعه من الإعترض عليه إنْ هو خرج وصار ضد مصلحة عامة الناس ..إن مبدأ الطاعة المشروطة، كان أول من طبقه الخليفة الراشدي الأول " ابو بكر الصديق " حين دعا إلى نقد الحاكم في خطبة الاستخلاف المشهورة بقوله : " وليّتُ عليكم ولستُ بخيركم "

إن من يقرأ الآيات الكريمة التي كانت مُنطلقاً لهذا المبدأ الديمقراطي المجيد، يجدها قد انطوت على بذرة العلاقة النقدية بين الحاكم والمحكوم، ورسمت الأسس المرجعية التي يعود إليها الناس عند الاختلاف ألا وهي الشريعة بوصفها القانون الأعلى للدولة علىحد تعبير " هادي العلوي " .

الحق صديقي :

لا نستطيع إلاّ أن نتذكر المعلم الأول (أرسطو) حين قارن بين الصديق وبين الحق وقال كلمته الشهيرة " أحب أفلاطون وأحب الحق ولكني أحب الحق أكثر " ... لا نستطيع إلاّ أن نتذكر ذلك حين نرى أبا ذر يقارن بين الأصدقاء وبين الحق مفضلاً – الحق الذي

قاده منفياً إلى الصحراء قائلاً كلمته الشهيرة أيضاً: " ... ما ترك الحق لي صديقاً " .. وفي زمن كالذي عاش فيه أبو ذر أو زمن خلافة " عثمان بن عفان " خاصة أصبح القابض علىعقيدته بصدق كالقابض على الجمر، حين حولت السياسة في زمن الخليفة الراشدي – عثمان بن عفان – الناس إلى (شوك لا ورق فيه) بعد أن كانوا في عهدي أبي بكر وعمر بن الخطاب " ورقاً لا شوك فيه " .. إن الذي دفعه إلى هذا التمرد ضد السياسة في زمن عثمان هو ابتعادها عن طريق سلفيه الكبيرين إضافة إلى صدقٍ مع النفس بغير حدود، وإيمان بهدف عظيم هو أن يسود العدل بين الناس .

لم يكن " عثمان بن عفان " محل الثقة التامة عند الخليفة الراشدي العظيم عمر بن الخطاب .. إذ لوكان كذلك لاستخلفه بعده ولكنه لم يفعل وإنما ترك أمر الذي يأتي بعده دائراً بين ستة من الصحابة، وكان عثمان بين الستة في مواجهة (علي) . (ر)

لم يتذمر (أبو ذر) في عهد أبي بكر الذي دام حوالي عامين من (١١–١٣ هـ) .. ولا في عهد (عمر بن الخطاب) الطويل نسبياً حيث دام حوالي عشر سنوات من عام (١٣–٢٣ هـ) ...

ولكنه في عهد عثمان بحث عن العدل والديمقراطية فلم يجدها وراح يتحسس السيف، ولكن حسه الرومانسي قاده إلى إدراك أنَّ دوره أن يعترض، لا أن يُقاتل فليس السيف وحده أداة التغيير والتقويم بل الكلمة الصادقة أيضاً .

وحين ابتعد عثمان بالسلطة عن نهج سلفيه الكبيرين وآثر ذوي القربى .. ارتفع صوت " أبي ذر " ضد هذا فاستدعاه عثمان ليقول له: " ما هذا الذي بلغني عنك يا أبا ذر أنك تحرض الناس عليَّ، ولا تقرأ في المسجد إلاَّ آياتٍ بعينها ؟ .."فقال " أبو ذر ": " وهل في هذا تحريض ؟ أم تريد منعي من قراءة كتاب ا لله . لقد عملت بماتعلمت ..." وصاح عثمان: " اخرج إلىالشام " وكان هذا أول نفي سياسي في الإسلام .. ذهب الشيخ الذي تجاوزالسبعين عاماً إلىدمشق ليجد (معاوية بن أبي سفيان) والي عثمان على الشام يتصرف باستبداد مطلق ....

بدأت المواجهة بين الشيخ المنفي، وبين الوالي معاوية وتجمع الناس حول المنفي الثائر، واتسعت المواجهة ضد معاوية مع ارتفاع أصوات المسحوقين ... حاول معاوية إغراء الثائر أولاً، ثم التخلص منه ثانياً ولم يفلح في ذلك .. فأعاده إلى الخليفة عثمان تخلصاً منه بعد أن حاول احتقاره ..

وحين التقى مع (عثمان بن عفان) سأله الخليفة: " لماذا ألّبت الشام علينا ؟! "، أجاب أبو ذر: " اتبع صاحبيك لا يكن لأحد عليك كلام "، كرّر الخليفة محاولات الإغراء

والتدجين، رفض الثائر كما كان في كلّ مرّة، وبلغت محاولات الإغراء حداً دفع الخليفة إلى أن يُرسل مع أحد عبيده مبلغاً من المال، وقال لعبده: " إذا قبلها أبوذر فأنت حُرٌّ "، فانطلق العبدُ مدفوعاً بكل الشوق إلى الحرية وحاول بكل الطرق إقناع (أبي ذر) فلم يفلح ودفعه يأسه وأمله معاً إلى أن يصيح: " اقبلها ففي قبولها عتقي ! ! " وهنا ردّ " أبو ذر " بهدوء: " يا بني إنْ يكُ فيها عتقك فإن فيها رقّي " .

توالت الإغراءات وتوالى رفض الثائر ليقول: " لاحاجة لي في دنياكم " . حدد الخليفة إقامة الثائر إلى جواره في المدينة .. ولم يسكت بل رفع الصوت عالياً، ضد الاستغلال والاستئثار بالمال عصب حياة الجماعات .. دفع اليأس الخليفة إلى نفي الثائر إلى (الربذة) القاحلة التي لا تحيط بها سوى كثبان الرمل ،أصدر أمره بأن لا يودعه أحدٌ، ولكن (علي بن أبي طالب) وولديه ودّعوه غير آبهين بأمر الخليفة.

وفي مساء يوم وفاة أبي ذر عام (٣٢ هـ، ٦٥٢ م) دفنه جماعة من الثائرين، الذين مكثوا قليلاً في المدينة .. ثم عادوا إلىالعراق ونشطوا ضد سياسةعثمان وتفجرت أول حركة عصيان ضد الخليفة .... فتحولت إلى ثورة طردت (سعيد بن العاص) والي الخليفة علىالكوفة، ثم مشوا إلى المدينة وحاصروا الخليفة في داره فقتلوه بعد أن قبل بشروطهم في عزل والي الكوفة وتعيينه " لأبي موسى الأشعري " الذي اختاره الثوار .

كان هذا أول تنازل في مجابهة عملية بين الخلافة والعناصر الثائرة ...

مات " ابوذر " وهولا يملك ثوباً تكفنه به زوجه .. فقميصه الوحيد مزقه وكفن به ولده .. ومن الذين حضروا وفاته جماعة منهم الصحابي الجليل (عبد ا لله بن مسعود) الذي رثاه قائلاً: " صدق رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم (تمشي وحدك وتموت وحدك، وتُبعث وحدك) .." وكان الرسول صلى ا لله عليه وسلم قد قال هذه الكلمات في " أبي ذر " أثناء اشتراكه في غزوة تبوك ضد الروم قبل عشرين من وفاته وحيداً في صحراء (الرّبذة) ..

صار (معاوية) والي الخليفة على الشام – يتصرف وكأنه يملك الأرض والمال والناس فانزل بالمسحوقين كلّ صنوف القهر خاصة أولئك الذين رفضوا الرشوة وثاروا ضده .. وجاء نعي أبي ذر إلى الشام واستمع الفقراء إلى صوت الثائر المنفي فتحلقوا حوله، وتحولت مجالس المنفي إلى مظاهرات تضم المحرومين وبدأت المواجهة مع معاوية، تلك التي أذكاها وجود الفقراء الجائعين إلى جانب الأغنياء المتخمين .. تجمع الفقراء حوله وهم يتذكرون ويُعيدون صرخته المجيدة ..: " عجبت لمن لا يجد القوت في بيته كيف لايخرج على الناس شاهراً سيفه ..." وقد كان يوضح للذين يتلقون دروسه، أن العدالة تقضي أن الحاكم يجوع أول القوم إذا جاعوا، وهو آخر من يشبع إذا شبعوا .. وانطلق يسأل معاوية ومن حوله من

الذين اغتنوا باستغلال الآخرين : " أين بيتك المتواضع في مكة يا معاوية، لمن هذه القصور اليوم بالشام ؟! " .. حاول معاوية شراءه ولكن الثائر الحقيقي لا يُشترى .. واستمر يؤثر في أتباعه ..

حين أطلق معاوية قوله المشهور: " إنّماالمال مالُنا والفيء فيئنا فمن شئنا أعطيناه ومن شئنا حرمناه " ...انطلق صوت أحد تلاميذ أبي ذر . " بل المال مالُنا والفيء فيئنا فمن حال بيننا وبينه حاكمناه إلى ا لله بأسيافنا " ..

هنا أدرك معاوية خطر وجود أبي ذر بالشام، كتب للخليفة: " أنقذني من أبي ذر لأنه أفسد الناس علينا بالشام " ..وجاء فيما قاله معاوية لعثمان .." ....إني أكره أن يكون مثله في الشام أو في مصر أو في العراق لأنهم قوم سراع إلى الفتن وليسوا بأهل طاعة . " وكان من نتيجة ذلك أن أرسل معاوية الثائر إلى المدينة مخفوراً على راحلة عارية مع مرتزقة المستأجرين لتعذيبه ويترك أبو ذر الشام مودعا من مناصريه الفقراء بشكل عزَّ نظيرُه ..

مواقف في حياة أبي ذر :

عرض عثمان بن عفان على أبي ذر إمارة العراق، فقال الأخير. " لا وا لله تميلواعلّي بدنياكم أبداً .." ..

سأله الخليفة يوماً بلين: " ألا تكف عما أنت فيه ؟، فقال. أبو ذر: حتى ينال الفقراء من الأغنياء .."

حين ذكر أبوذر أن الرسول صلى ا لله عليه وسلم لم ينم لأن في بيته أربعة دنانير من الفيء لم يقسّمها على المسلمين ...قال عثمان وقد احتدم غضبُه: " يا أبا ذر إنّك شيخ خرفت وذهبت عقلك ولولا صحبتُك لرسول ا لله لقتلتك ... " !

حين أرسل الخليفة عثمان بعض المال لأبى ذر كي يستعين به على دنياه .. قال أبو ذر: " وهل أعطى أحداً من المسلمين ما أعطاني ؟ قال حامل النقود: لا، ردّ أبو ذر: " إنّما أنا من المسلمين يسعني مايسعهم، يوجد تحت هذا الغطاء رغيفا شعير ،قد أتى عليهما أيام فماذا أصنع بهذه الدنانير ؟! ..وأعادها إلى عثمان .

كان معاوية قد سمّى مال المسلمين، مال ا لله، فقال " أبو ذر " ألا كلُّ شيء لله .. كان معاوية يُريد امتلاك هذا المال ويمحو اسم المسلمين .. وقال لمعاوية: ما يدعوك إلى أن تسمّى مال المسلمين مال ا لله ؟؟، فقال معاوية: يرحمك ا لله يا أبا ذر ألسنا عباد ا لله والمال مالُ ا لله ؟ .. فقال أبو ذر: " لا تقلها، ولكن قل مال المسلمين لقد خالفت سُنّة من قبلك فأغنيت الغني وأفقرت الفقير يا معاوية ...."

حين بنى معاوية قصر الخضراء أرسل له أبو ذر يقول: " ... يا معاوية إن كان هذا من مال ا لله فهو الخيانة وأن كان من مالك فهو الإسراف .." ..

لم يقف نقدُ أبي ذر عند الخليفة وواليه على دمشق معاوية، بل تناول بنقده اللاذع رفاق الأمس فحين بلغه أن (أبا موسى الأشعري) صديق الأمس، صار صاحب ثروة ... رفض أن يكون أخاه .

سلّم الأشعري على أبي ذر فقال: مرحباً ياأخي ..

ردّ أبو ذر غاضباً : " كنتُ أخاك قبل أن تكون والياً أو أميرًا .. " وكذلك فعل حين احتضنه " أبو هريرة " مُرحباً فنحّاه بيده وقال له: إليك عني ألست الذي استغللت الإمارة فتطاولت في البنيان واتخذت لك ماشيةً وزرعاً ... ؟! وكان أبو هريرة قد ولي البحرين فحاكمه العادل العظيم (عمر بن الخطاب)، وقال له: " ... استعملتك على البحرين وأنت بلا نعلين، ثم بلغني أنّك ابتعت أفراساً بألف وستمائة دينار .." .

لقد انطلق أبوذر في كل مواقفه تلك من إيمانه بأن الإنسان الحق يعتبر العمل هو مصدر الكسب المشروع لذلك اختار ا لله كلَّ أنبيائه من العاملين فالنبي محمد بن عبد ا لله صلى ا لله عليه وسلم، راعي غنم ، والنبي داوود يصنع الدروع وآدم كان حراثاً، ونوح نجاراً ، وموسى راعياً ..، ورأى أبو ذر الخلفاء الراشدين يعملون بالتجارة حتى ينفقوا على أنفسهم وبيوتهم إذ كان أبو بكر يعمل بالتجارة حتى خصص له المسلمون راتباً من بيت المال كي يتفرغ لأمورهم ..

وكان عمر بن الخطاب لا يتردد عن حمل الماء والتمر والملح لأهله، وقد وضع " أبو ذر " العمل الإنساني في مكانه اللائق حين وصفه بأنه الذي يحقق انسانية الإنسان وأنه مصدر الرزق الحلال، وذلك في صرخته ضد المستغلين حين قال: " مالهؤلاء يستأثرون بأموال لم يستحقوها بعملهم وقد جاء في كتابه العزيز: ".. وأن ليس للإنسان إلا ما سعى..".

هل يمكن القول بعد هذه الملامح عن أبي ذر: " انه كان من الرّواد الأوائل في التاريخ العربي في الاقتراب من معنى الحكم الديمقراطي كما نعرفه اليوم حين تحدث عن علاقة الحاكم بالشعب وجعله خادماً لا مخدوماً؟؟.

هل نقول: إنه بمواقفه التي أتينا على بعضها كان أحد الذين وضعوا بذور الفكرة الاشتراكية ، وكان على الذين جاؤوا بعده تنميةُ هذه البذور ؟؟ .. هل نقول: إنه بمواقفه الشجاعة كان أحدّ الأفذاذ الذين حاربوا الاستبداد وإيثار ذوي القربى على حساب مصالح الآخرين ؟! ..

أم نقول: هو كلّ هؤلاء ؟!

سلك معاوية مع أبي ذر سبيل التهديد وقال له: " ... يأبا ذر خيرٌ لك أن تنتهي عمّا أنت فيه ..." ..؟

ولكن الرجل لم يعبأ بهذا التهديد ،وقال لمعاوية: " ,,, وا لله لا أنتهي حتى توزع الأموال على الناس كافة...".

وعند ذلك لجأ معاوية إلى حيلة أخرى أراد بها أن يفسد مابين أبي ذر وبين أنصاره وحزبه من الفقراء وذلك في محاولة إيهامهم أن الرجل ممن يتلقّون الهدايا والصلات، وبعث في جنح الظلام أحد رسله يحمل ألف دينار لأبي ذر وفي الصباح بعث إليه ثانية الرسول نفسه يخبره أن العطاء لم يكن له وأنه قد أخطأ الطريق إليه ويقول له: " يا أبا ذر انقذ جسدي من عذاب معاوية فإنه أرسلني إلى غيرك وإني أخطأت بك " ... لكن أبا ذر كان قد أنفق الدنانير الألف على الفقراء قبل أن يطلع عليها عنده الصباح ..

أيقن معاوية أن الرجل عصيّ على أن تنال منه هذه الأساليب وذلك ،لأن " فعله يصدق قوله " في قضايا الأموال والثروات، وعندئذٍ قرر قراره بضرورة إخراجه من الشام فكتب إلى أمير المؤمنين يصور له حال أبي ذر مع الفقراء .

قال عثمان لأبي ذر: " ... يا أبا ذر عليَّ أن أقضي ما علّي وأن أدعو الرعية إلى الاجتهاد والاقتصاد، وما عليّ أن أجبرهم على الزهد ..."

ولم يرض أبو ذر " بهذا القول إذ الأمر لم يكن في نظره أمر (زهد) لا يستطيع أن يُجبر الناس عليه وإنما كان أمر أغنياء يزدادون غنىً وفقراء يتسبب هؤلاء الأغنياء في فقرهم ... وأمر حقوق لهؤلاء الفقراء في أموال الأغنياء حتى يبذلوا المعروف ويحسنوا إلى الجيران والإخوان ويصلوا القرابات .."

أبو ذر الغفاري لم يكن زاهداً زهد الإنسان الذي لا يرى لنفسه علاقة بالدنيا ومباهجها، وإنما كان زاهداً زهد المناضل ضد احتواء هذه المباهج لقدراته ومزاياه الثورية تلك التي اكتسبها قبل بعثة الرسول (عليه الصلاة والسلام) وبعدها ..

كان زهده يدعوه للعيش في (الربذه) بالصحراء وكانت ثوريته تقتضي أن يبقى على اتصال بالثورة الاجتماعية التي أوجدها الإسلام في عقول الناس وحياتهم، وذلك من خلال تردّده على المدينة حتى يظل على صلة بحضارتها ويعبر " ابن الأثير " في كتابه (الكامل في التاريخ) عن هذا الموقف بقوله " كان أبو ذر يتعاهد المدينة مخافة أن يعود أعرابيا " ولأبي ذر مواقف رائده في فهم النصوص ..

يقول مكسيم رودنسون في حديث له بعنوان " الماركسية ودراسة العالم الإسلامي"(١): "…. ولقد عثرت مؤخراً على حديث ربما لا يعرفه كثير من المسلمين فبهرني عندما قرأته لأني أرى فيه شيئاً مفيداً للغاية سأحاول قراءته عليكم، بلغتي التي تدعو للرثاء.

" العصبية أن يعين رجلُ قومه في ظلم "

هذه الكلمة جميلة جداً، ولكن أجمل كلمات الإسلام في نظري هي كلمة لأبي ذر الغفاري .. كانت المسألة تتعلق بنصٍ قرآني فيه نقدٌ للقساوسة المسيحيين والربانّيين اليهود على أساس أنهم يستغلون وضعهم الأكليركي، ولقد قال أبو ذر: إن هذا النقد ليس لهم وحدهم بل ولنا أيضاً …

ولقد نُفي لهذا السبب وعانى من مضايقات كثيرة في عصر معاوية، وجاء علي بن أبي طالب، يُحيّيه عندما نُفي من المدينة، وكانت هذه من مظاهر المعارضة التي ظهرت من قبل في وقت عثمان ..'

☐

مراجع

١- دكتور محمد عمارة، مسلمون ثوار - المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ط٢ إيلول (سبتمبر ١٩٧٩

٢- جمال الدين الإفغاني - الأعمال الكاملة - دراسة وتحقيق دكتور محمد عمارة، طبعة القاهرة، ١٩٨٦ .

٣-دكتور حسين مروة، (النزعات المادية في الفلسفةالعربيةالإسلامية) ط١ ، دار الفارابي ١٩٨١ / بيروت.

٤-دكتور حسين مروة - دراسات في الإسلام - ط١ دارالفارابي - كانون الأول - ١٩٨٥ .

٥- د. محمد عمارة - التراث في ضوء العقل - دار الوحدة ط١ ١٩٨٠ .

٦- أبوالحسن المسعودي - مروج الذهب، دار الأندلس للطباعة والنشر - بيروت ط١ - ١٩٦٥ ،ج (٣) (مارس) آذار ١٩٧٠

هوامش

(١) الطليعة (مجلة) القاهرة ،عدد ٣ (مارس) آذار ١٩٧٠ .

□



الجاحظ: فارس العقل والحرية

٧٧٥ – ٨٦٨ م

١٥٩ – ٢٥٥ هـ

. الجاحظ .. روسو .. غوركي .. جميعهم تشابهوا في طفولة شقية مُتعبه، ويفاعة لا تقل شقاءً وتعباً، كانوا مرشحين لأن يكونوا – حسب معطيات الواقع حولهم – شاذين أو فاشلين في الحياة، ولكنهم تمردوا على وحل الواقع فصاروا أبرز أعلام الإنسانية ،كلٌّ في زمانه أولاً ثم في ذاكرة الإنسانية ثانياً .

وفيمايخصُّ الجاحظ لا نعرف بين أدباء العربية من مزج بين التجربة الحياتية والتجربة الإبداعية، مثل ما فعل، إذ آمن أن لا قيمة للإبداع دون المعاناة الحياتية، وطبّق هذا الإيمان عملياً فكان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها ليلاً، وقد ثابر على ذلك طوال حياته حتى انتهى أحد الشهداء الأفذاذ لعطش المعرفة الذي لا يرتوي .

إن الكتب لم تحجب الجاحظ عن الناس بجميع فئاتهم، فكان يُخالط ويسأل، يأخذ ما لا يعرفه ويُصَحح ما قد يكون عند بعضهم من أخطاء لا يقبلها العقل، إنه لا يقبل المسموع من تجارب الآخرين كما هو، بل يعمد إلى التجربة بنفسه _ إذا أمكن ذلك .. حدث أن قال له أحدهم إن نوعاً من العشب يقتل الأفعى برائحته إذا ألقيته عليها فاستحضر الجاحظ ذلك العشب ، وألقاه على الأفعى وتبين له أن ماسمعه كان كذباً .

لم يكن هناك خطّة واضحة في تعليم الجاحظ وتربيته لكنه مشى إلى خلوده من خلال جهاد مرير في سبيل لقمة العيش وفي سبيل الكلمة الإبداعية يرتزق من بيع السمك والخبز في النهار ويكتري دكاكين الوراقين ليقرأ ليلاً .

تحرير العقل :

كما التقى الجاحظ بـ (روسو) و " غوركي " من حيث اليتم والتشرد ومزاولة كل أنواع العمل حتى يعيش مُذ كان طفلاً .. التقى كذلك الأفذاذ الذين مجدوا العقل في تاريخ البشرية ... وفي تراثنا العربي التقى الجاحظ مع ابن سينا (٩٨٠ – ١٠٣٧ م) في نقطة هي (احترام العقل) وجاء ذلك عندهما انطلاقاً من (احترام الحياة) .. إختلفا بعد ذلك في أن الجاحظ حاول أن يطبّب العقل و يحرّره فكان بذلك أول مَن دعا إلى اقتحام (باب الإيمان)

بالعقل والفكر الحر، انطلاقاً من إيمانه بقيمة العقل والتجربة في تصحيح ما يصل إلينا ... بينما حاول تلميذه ابن سينا الاهتمام بمعالجة أمراض الجسم .

ولا نبتعدُ عن الحق إذا قُلنا إن الجاحظ من رواد الشك وإعمال العقل في تراثنا العربي الإسلامي، وفتح بذلك الباب لمن جاء بعده من أمثال الفارابي وابن سينا والمتنبي والمعري وغيرهم . .

والعقل عند الجاحظ هو " وكيل الله عند الإنسان " وقد سُمّي بهذا الاسم (العقل) لأنه يلزم الإنسان ويعصمه عن أن يمضي في سبيل الجهل والخطأ والمضرة كمايفعل البعير ..

تحرير الأسلوب :

لم يقف الجاحظ عند الدعوة لتحرير العقل، بل دعا من خلال ما كتب لتحرير الأسلوب من الجمود والصنعة السائدين قبله .. فقرّب النثر من الحياة وحمّله همومها، فأصبحت اللغة مع الجاحظ تحمل نبض الحياة والناس وتعيش قضاياهم .. وكشف الجاحظ عورة هؤلاء الذين كانوا يخفون أنفسهم وراء أقنعة اللغة العربية العويصة..

وكما حرّر الجاحظُ اللغة من قيود الصنعة التي رأها تعطل حرية الإبداع وتلقائيته .. كذلك رفع الجاحظ القيود عن أمور الحياة العادية وجعلها تدخلُ عالم الكلمة العنية وهذا مالم يكن معروفاً قبله .

وصل الجاحظ إلى ذلك لأنه فكر بعقله هو لا بعقول سابقيه ونطق بلسان الناس حوله، ولم ينطق من خلال الموروث .. أبى أن يتكلم كالأقدمين علىالرغم أنه تتلمذ عليهم، فكان يقول للناس: " أنا أبو عثمان أناالجاحظ، ولستُ " قساً " ولا " سحبان وائل " ولا " أكثم بن سيفي "

لقد أسهم الجاحظ في نقل ثقافة العرب من الشعر إلىالنثر تعبيراً عن انتقالها من بداوة يلائمها الشعر، إلىحضارة يلائمها النثر ، رغم إيمانه بأن ثقافة العرب أميل إلى الشعر " لأن العرب وجهوا قواهم إلى قول الشعر " .. وعلى يد الجاحظ اندفع الأدب العربي صوب النثر الذي يمتلك إمكانات أكبر بما لا يُقاس في التعبير عن جوانب الحياة بشمولها، كما يملك التأثير الأوسع على جمهور عريض من القراء فيكون إسهامه أكبر في التطور الروحي للإنسان.

وحين نزل النثر إلى مسرح الحياة صار كلُّ شيء موضوعاً للأدب، وإذا كان (ماركس) قد أشار إلى أن الواقعية ارتسمت منذ القرن الثامن عشر مع اندفاع الأدب صوب النثر، فإن الجاحظ أسهم في إيجاد هذه الواقعية في الأدب العربي منذ القرن التاسع الميلادي وفعل تماماً في الأدب العربي مثل الذي فعله (بوشكين) في الأدب الروسي في القرن الثامن عشر حين

أبدع . انسميه الآن (الأدب للشعب) .. وكان الجاحظ في الأدب العربي القديم مثل (برنارد شو) في الأدب الانجليزي الحديث كان الجاحظ جاداً وهو يضحك مُتفلسفاً وهو يسخر، حيث عالج أخطر المشكلات بأسلوبه الساخر وخفة ظلّه المعروفة وتحتاج السخرية عند الجاحظ وقفة خاصة .

بقي الجاحظ فقيراً رغم شهرته الواسعة فحين سُئل " هل لك ضيعة بالبصرة ؟! " أجاب ضيعتي معي، لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد ولعله يُشير بذلك إلى أنّه لا يملك سوى علمه وكتبه وشوقه إلى المعرفة، ولا عجب – مع هذا الواقع – أن نجد أن الجاحظ خير مَن تحدث عن الكتاب وقيمته في الحياة خاصةً في بداية كتابه الشهير (الحيوان) .

وإذا كان بعض المبدعين قد جاء إلى الحياة من الأدب، فإن الجاحظ قد جاء إلى الأدب من الحياة، كانت الحياة عنده أولاً وجاء الأدب ليعبر عن حقائق هذه الحياة، وجعل للأدب غايةً لا يفترق فيها الجانب الجمالي عن الجانب الاجتماعي فأسهم بأن جعل الثقافة للجماهير حين قصدها وتوّجه إليها فيمايكتب، وكان كما يقول الشاعر: (بدر شاكر السياب): أول أديب عربي نزل إلى السوق فصور لنا أحوال الشعب تصويراً ينبض بالصدق والحياة بأسلوب حسبنا أن نقول فيه: أنه أسلوب الجاحظ، والذي كان بحق مدرسة في الأسلوب تخرج منها أدباء شباب وامتاز بأنه الأسلوب البسيط الذي يخفي تحته أفكاراً في تجدّدٍ دائم، أو تحفزٌ على التجديد وفي كثير من النقاط يمكن مقارنة الجاحظ مع (فولتير) .

إن إباء الجاحظ واعتزازه بإبداعه قاداه إلى أن يكون أميراً بين كتبه وأوراقه على أن يكون رئيساً في ديوان الخليفة (المأمون) فحين أسند المأمون رئاسة الديوان للجاحظ قبله على كره منه ليتركه بعد أيام ثلاثة حين رأى في الديوان موظفين (صقلت ثيابهم) فقال كلمته المشهورة: " ظواهر نظيفة ومواطن سخيفة " .

إن إيمان الجاحظ بالحرية، قاده إلى كثير من هذه المواقف التي كانت تعبيراً بالسلوك العملي عن الحرية، وأما عن إيمانه بالعلاقة بين الإبداع والحرية، فقد قال في كتابه الحيوان " أقول شيئاً ليس يُخرجه مني إلاّ الشكر والحرية .." .

ويتحدث الجاحظ عن حرية الإرادة حين رأى أنّ الذين حول الخلفاء يسلبون الإنسان إرادته ليجعلوه كالريشة في مهب الريح .

كان إخلاص الجاحظ للثقافة أعظم من إخلاصه لأي شيء آخر، وجعله هذا الإخلاص محوراً للثقافة في عصره ولعله من أوائل الذين آمنوا بأثر الثقافة في المجتمع حين رأى أنّها تقوّم يد الإنسان ولسانه وأن يد الإنسان لا تكون إلاّ خرقاء ولا تصير صناعاً ما لم تكن المعرفة

ثقافاً لها واللسان لايكون أبداً ذاهباً في طريق البيان متصرفاً في الألفاظ إلاّ بعد أن تكون المعرفة متخللة به واضعة له في مواضع حقوقه .." .

لم يتتلمذ الجاحظ على أستاذ بل كانت الحياة أستاذه الأكبر وكانت دكاكين الوراقين بما فيها من كتب مدرسته الواسعة .

ألف الجاحظ كتاب (الحيوان) وعمره اثنان وثمانون عاماً ولم ينقطع عن الكتابة والتأليف طوال حياته التي امتدت حوالي قرن . تروي الكتب أنه مات في عام ٢٥٠ هـ بينما كان قد ولد عام ١٥٥ هـ وصار يعيش في كنف أمه – إذ توفي والده وهو صغير – في أسرة من سواد فقراء البصرة واندفع إلى العلم بطموح كبير إلى مستقبل يعوضه اليتم الذي أهاض جناحه .. أخذ يتردد على حلقات العلم، يذهب إلى المربد يتلقى الفصاحة شفاهاً ويستمع ويناقش وأمدّه طموحه وفقره بالمثابرة و الصبر والقوة في التحصيل وكان بعد أن ينتهي من عمله اليومي في التعلم – على طريقته الخاصة – يذهب ليعيش من كسب يده فيبيعُ الخبز " والسمك جانب نهر البصرة، وكانت والدته التي تعتني به قد ضايقها انصرافه إلى العلم والمعرفة أكثر من انصرافه إلى العمل وقد قدمت له في إحدى المرات حين طلب الطعام طبقاً عليه كراريس من الأوراق ؟ فقال : ما هذا ؟! قالت هذا الذي تجيء به ؟!

الجاحظ والمرأة

من لوازم الإيمان بالعقل والحرية – كما عند الجاحظ – الإيمان بإنسانية المرأة بحيث لا يخلو تراث كاتب عظيم من رأي في المرأة سلباً كان أم إيجاباً ..

هذا الجاحظ البعيد عنّا زمانا القريب منا فكراً ووجداناً يحدثنا عن المرأة مناقشا بعض معاصريه . وبالطبع لا يمكننا أن نفصل الشكل الذي اتخذه الحوار في هذا الأمر ولا مضمونه عن الزمان والمكان اللذين يدور فيهما.

طرح الجاحظ قضية المرأة في فترة من تطور المجتمع العربي القرن الثالث الهجري، ولم يكن من الممكن أن تطرح قبل الوصول إلى هذه الدرجة من التطور ...

وأعاد قاسم أمين ١٨٦٥ – ١٩٠٨ طرح القضية ذاتها وإن بأسلوب آخر ومضمون آخر أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين .

إن طرح الجاحظ لقضية المرأة كان فيه جرأة كاملة نسبة إلى مقاييس عصره السائدة، وكان حسب مانعلم أول من طرح هذه القضية وحاول إنصاف المرأة في أدبه ولعله أول من دافع عن شرعية وجود الحب بين الناس .

ولعل الذي دفع الجاحظ كي يطرح هذه القضية – ماوصل إلى علمه – وهو المطلع على تراث العرب – من أخبار النساء العربيات اللواتي جابهن الرجال، بعد سلسلة طويلة من الاعتداء على الأنثى بدءاً من رفض وجودها ودفنها حية تجنياً كماكان يحدث في الجاهلية، إلى رفض الاعتراف بوجودها المستقل، لأنها كائن ناقص العقل والدين!!

كما قرأ الجاحظ – ولا شك – إن نساء عربيات مشهورات قد رثين الأخ أو الأب، ولم يسمع أن رجلاً رثى أختاً أو أمّاً أو زوجة – إذ كان رثاء جرير لزوجته استثناء في أدبنا العربي القديم .

لهذا كلّه على ما نرجح أخذ الجاحظ يتحدث عن المرأة حديثاً موضوعياً واعتبر حديثه إنصافاً للمرأة في زمن عزّ الحديث فيه عن المرأة ويلمس القارئ شذرات الجاحظ عمقا يحسب له بمقاييس عصر بحيث نظلمه إذا طبقنا عليه مقاييس عصرنا التي عمقها: علم النفس وعلم الاجتماع ،وتقدم العلوم الإنسانية والحضارة البشرية بشكل عام ..

فقد لمس أن المرأة تخلص للحب أكثر من الرجل ففي كثير من الأعمال الأدبيةالكبرى نجد الرجال يسقطون لأنهم تخلوا عن الحب بعكس النساء اللواتي يخلصْن للحياة والحب ورأى الجاحظ أن المرأة لا تقل عن الرجل في إمكاناتها فهي مثله تنشغل – إذا سمحت لها ظروفها الاجتماعية والاقتصادية – بقضايا المجتمع وقضايا الحياة والوجود، التي يعتبرها بعضهم حكراً على عقول الرجال، والمرأة عند الجاحظ مثل الرجل أوحسب ت سير " المثل الشعبي " الذي يصف الذكر والأنثى بأنهما " الفولة وانقسمت نصفين "

وحديث الجاحظ عن المرأة، موضوعي بحيث تحدث عن نماذج مختلفة من النساء كما أن هناك نماذج مختلفة من الرجال يدافع الجاحظ عن المرأة :مثل قوله: " .. ولسنانقول ولا يقول أحد ان النساء فوق الرجال أو دونهم بطبقة أو طبقتين أو أكثر، ولكننا رأينا ناساً يزرون عليهن أشد الزراية ويحتقرونهن أشد الاحتقار ويبخسونهن أكثر حقوقهن .."ويتابع الجاحظ قائلاً: ...." ونحن إذارأينا أن فض ل الرجل على المرأة في جملة القول في الرجال والنساء – أكثر وأظهر فليس ينبغي لنا أن نقصر في حقوق المرأة، وليس ينبغي لمن عظم حقوق الآباء أن يُصغر حقوق الأمهات وكذلك إن الرجل عامة قد يكون أقوى ولكن المرأة عامة قد تكون أرحم، ويرى الجاحظ ان من عجز الرجل " أن لا يستطيع توفير حقوق الآباء والأعمام إلاّ بأن ينكر حقوق الأمهات والأخوال " ..

المرأة أجمل ما في الوجود

تحدث الجاحظ عن مزايا المرأة التي تجعلها موضوعاً للحب و مركزاً للجمال، المرأة التي يراها أجمل ما في الوجود، ولا شيء يبلغ في الجمال مبلغها، لذلك يعيب على الشعراء التشبيهات التي يشبهون بها المرأة ويرى أن هذا النوع من التشبيه، إنّما هومن الضرورات الشعرية الكلامية التي لا تعبر عن الحقيقة يقول: " .. وقد علم الشاعر والواصف أن الجارية الفائقة الحسن أحسنْ من الظبية وأحسن من البقرة وأحسن من كل شيء تشبّه به، ولكنهم إذا أرادوا القول شبهوها بأحسن ما يجدون كأنها الشمس وكأنها القمر ... والشمس وإن كانت بهية فإنما هي شيء واحد وفي وجه الحسناء وخلقهاضروب من الحسن الغريب والتركيب العجيب، ومن يشّك أن عين المرأة الحسناء أحسن من عين البقرة ؟! وأن جيدها أحسن من جيد الظبية ؟! والأمر فيما بينهما متفاوت،ولكن الشعراء والكتاب فعلوا ذلك عن إيمان منهم بأنه الواقع ولكنهم عمدوا إلى ذلك، ولو لم يفعلوا هذا وشبهه لم تظهر فطنتهم وبلاغتهم ... (١) "

جمال المرأة عند الجاحظ

إن جمال المرأة – عنده – صنفان: جمال ظاهر، وجمال باطن، فالأول هو جمال الأعضاء، والثاني ذلك الجمال الذي يدركه الرجل فقط من المرأة لأن النساء " لا يبصرن من جمال النساء إلا قليلاً " ولأن الرجال بالنساء أبصر ولأن المرأة تعرف من المرأة ظاهرالصفة....

أما الجمال الداخلي الذي يوافق الرجال ، فان المرأة لا تدركه فقد تحسُن المرأة أن تقول: كأن أنفها السيف، وكأن عينها عين الغزال، وكأن عنقهاإبريق فضة، وكأن ساقها حجارة مرمر، وكأن شعرها العناقيد، وكأن أطرافها المداري وما اشبه ذلك .... " (٢)

ويتحدث الجاحظ عن الحب وأثره في حياة الناس وسلوكهم، وهو يعني حين يتحدث في هذا المجال، حب الرجل للمرأة إذ يعتبر أن الحب شيء من طبيعةالإنسان لا يمكن أن يتخلص منه، وإن كان هذا الحب يختلف عنده قوة وضعفاً، وحدةً وفتوراً، باختلاف مزاج الرجل وملابسات حياته، ولكنه في كل الأحوال يرىضرورة الحب الذي يتحدث من خلاله عن أثر المرأة في حياة الرجل، وكأنه أراد أن يصل إلى ما نُعبّر عنه في زماننا حين نقول : " وراء كل عظيم امرأة " وكأنه أيضاً يلّمح إلى أنه لولا الحب لماكانت أعظم الإبداعات البشرية التي جاءت في معظمها، كي يُقدمها المبدع هدية لتلك التي يُحبّها، والأمثلة كثيرة من تراثنا

العربي وغيره ولعل المثال البارز هو " دانتي " الذي أبدع " الكوميديا الإلهية " كي يقدمها لحبيبته " بياتريس " .

ويرى الجاحظ أن تعيير النساء من أكبر نقائص الرجال ويضعه مع أحط الصفات في كفة واحدة. يقول في كتابه "البيان والتبيين : " ... شاتم أعرابي أعرابياً، قال: إنكم لتقصرون عن العطاء وتعيرون النساء وتبيعون الماء " ..!! (٣)

□□

المراجع والمصادر :

١- ياقوت الحموي ،معجم الأدباء، ج١٦، ص ١٠٦
٢- دكتور طه الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره، طبعة دار المعارف بمصر-١٩٦٢
٣- الجاحظ، كتاب الحيوان، طبعة مصر ١٩٣٨ .
٤- الجاحظ ، البيان والتبيين، لجنة التأليف والترجمة القاهرة، ١٩٤٨
٦- هادي العلوي، المستطرف الحديد، دار الطليعة بيروت، طبعة أولى١٩٨٠ ص ١٨٢ .
٧- شفيق جبري - الجاحظ - معلم العقل والأدب - القاهرة ١٩٤٨

هوامش

١- الدكتور طه الحاجري - الجاحظ حياته وآثاره - مصدر سابق ص ٤٤١ .
٢- المصدر نفسه ص ٤٤٢ .
٣- البيان والتبيين، لجنة التأليف والترجمة - القاهرة ١٩٤٨ ص ٢٧٠ .

□

ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦ م)

قضايا معاصرة في مقدمته

ابن خلدون أحد العباقرة الأفذاذ الذين فتحوا الطريق الجديدة في عالم الفكر، في علم الاجتماع واتباع المنهج العقلاني في البحث .. وكانت موضوعيته في البحث أحد أسباب خلوده حيث لاحظ قلة الأحداث الصحيحة التي تحتويها غالبية المؤلفات التاريخية وخلص إلى القول: بعد هذا الذي لاحظه بأن أسباب الانحلال والتردي تنشأ عن: " التشيعات للآراء والمذاهب، فإن النفس إذا كانت على حال من الإعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى يتبين صدقه من كذبه وإذا خامرها تشيّعٌ لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة وكان ذلك الميل والتشيّع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص ...))

ومن الأسباب المقتضية للكذب في الأخبار أيضاً: الثقة بالناقلين ومنها توهم الصدق وهو كثير ... ومنهاالذهول عن المقاصد فكثير من الناقلين لايعرف القصد بماعاين أو سمع، وينقل الخبر على مافي ظنّه وتخمينه،فيقع في الكذب .. ومنها الجهل بتطبيق الأحوال على الواقع .. ومنها تقرّب الناس في الأكثر لأصحاب التجلّة والمراتب بالثناء والمديح وتحسين الأحوال وإشاعةالذكر (١) "

ابن خلدون والمنهج العقلاني

من عناصر الموضوعية في تفكير ابن خلدون ،اعتماده العقل وابتعاده عن الخرافات والأساطير ،يقول: " لأن الأخبار إذا اعتد فيها مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب ،فرّبما لم يؤمن فيها من العثور، وزلة القدم والحيد عن جادة الصدق (٢).

كما نراه يعبر عن حركة التاريخ لأن العناصر المكونّه للحياة الاجتماعية عنده ليست ساكنة بل هي في حركة دائمة يقول في المقدمة جـ١ ص ٤٤ :الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل العصور ومرور الأيام ومن الغلط الخفي في التاريخ " وهوداء دوي وشديد الخفاء إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة فلايكاد يتفطّن له إلاّ الآحاد من أهل الخليقة ...

وذلك لأن أحوال العالم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، وإنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال " (٣)

وقد كان ابن خلدون أحد هؤلاء القلائل الذي أشاروا إلى هذه الحركة للتاريخ في وقت مبكر .

النزعة العلمية عند ابن خلدون:

نلمح أسس الجدلية عند ابن خلدون حين يتحدث عن أعمارالدول فيرى أن عمر الدولة يشبه عمر الشخص فهو ينتقل من سنّ التزيد الى سن الرجوع وهذه الحوادث طبيعية ولا شيء يمكنه منعها.

وحين يُبين أثر وسائل الإنتاج في النواحي الإنسانية في الأفراد يقول: " إن خلق الإنسان يرجع إلى العُرف والعادات لا إلى المناخ والمزاج وأن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم في المعاش (٤) .

في هذا النصّ نرى أن تكوين الانسان الاجتماعي لا يخلق معه بل تكوّنه العادات الاجتماعية والعُرف القائم .. كما يقرر أن اختلاف أحوال الناس يعود إلى طريقتهم في الإنتاج.

وبذلك سبق ابن خلدون غيره حين ربط بين علم الاجتماع والاقتصاد في كتابه (المبتدأ والخبر) أثناء الحديث عن علم الاجتماع الذي سمّاه بـ (علم العمران) معتمداً أسس الشرح والتحليل وتعليل الحوادث مدركاً ارتباط علم الاجتماع بعلم الاقتصاد وذلك في القرن الرابع عشر في الوقت الذي أشار فيه بعض العلماء إلى هذه الحقيقة في القرن الثامن عشر، وقد أقام ابن خلدون في مقدمته وزناً للضرورة الاقتصادية حين عبر عنها بأن المكسب والمعاش والصنائع دعامة من دعائم المجتمع، وحين عبر أن الظواهر الاجتماعية في العالم لا تسير حسب الأهواء والمصادفات ولا وفق إرادة الأفراد، بل وفق قوانين مطردة ثابتة لا تقل في ثباتها عن قوانين الظواهر الأخرى ... وانطلق يدرس هذه الظواهر في حال ثباتها أي في الحالة التي تكون عليها في زمان ومكان معينين ويدرسها في الوقت نفسه من حيث تطورها، والنواميس التي تخضع لها في هذاالتطور واستخدم في أبحاثه القواعد التالية: الملاحظة والتجربة ،التفسير والتحليل ، المقارنة والقياس – ودراسة الظواهر وعلم العمران ولقد استخدم ابن خلدون علم العمران بمعنى علم الاجتماع قال: " إن الكلام في هذا العلم مستحدث الصنعة غزير الفائدة أعثر عليه البحث وأدى إليه الغوص (٥) .. ولعمري لم

أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة ولعل من يأتي بعدنا يغوص في مسائله أكثر والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئاً فشيئاً إلى أن يكمل ... (٦)

ابن خلدون .. والتقدم :

يتجدد اهتمامنا بابن خلدون بقدر حاجتنا إلى الحرية بمعناها الاجتماعي الواسع، وبقدر حاجتنا إلى التقدم .. لما في كتاباته من دفاع مجيد عن التقدم والحرية لأن الظلم عنده " مؤذن بانقطاع النوع وهذا يؤدي إلى تخريب العمران " (٧)

كذلك حارب ابن خلدون العرقية التي تفرّق فتجعل الشرق شرقاً بفكره وحضارته، وتجعل الغرب غرباً بفكره وحضارته أيضاً وذلك حين يكتب أن الإنسان يتغير بتغير الظروف حوله وليس هناك تخلف دائم أو تقدم دائم، وإذا تبدلت الأحوال جملة، فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحوّل العالم بأسره وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث

وحين تحدث عن الاضطهاد نفى أن يكون نتيجة لطبيعة ثابتة في البشر وإنما الظروف الاجتماعية هي التي تؤدي إليه تراه يقول: " إن الإنسان أقرب إلى خلال الخير من خلال الشرّ بأصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة " المقدمة جـ ص ٢٥٩ "

وفي رأيه أن الظلم نتيجة استبداد أهل القدرة والسلطان ج١ ص ٩٧ والجهل غير بعيد عن الظلم عند ابن خلدون، لأن مرمى الجهل بين الأنام وبيل، والحق لا يُقاوم سلطانه، والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه " (٨)

وقد أعجب ابن خلدون بالتاريخ لأنه علم من العلوم وليس من أهدافه أن يهز ا[illegible] أو يسحر الألباب أو يعظ أو يقنع الحكومات أو يخدمها .. ولم يكن التاريخ عنده لونا أ[illegible] كما يقول (أيف لاكوست) لذلك التزم الصراحة في أحكامه والإعراض عن قبول توسلا[illegible] الأعيان وكبار رجال البلاط الذين كانوا قريبين منه، ومن المؤكد أنه فعل ذلك شغفاً بالع[illegible] لا رغبةً في التظاهر بالطرافة كما يعبّر الدكتور طه حسين في ص (١٨) من كتابه (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) .

إن إعجابه بالتاريخ كعلم جعله واقعياً بعيداً عن الأسلوب الرومانسي أي أن عواطفه لم تتحكم بكتاباته، ولم يشغله أن يكون أديباً مُنشئاً بقدر ما كان يشغله أن يكتب ابنية[illegible] وقائع .

ابن خلدون والاقتصاد:

تحدث ابن خلدون عن الزراعة وقد سماها (الفلاحة) واعتبرها مهنة المعذبين حين قال: " الفلاحة من معاش المستضعفين .." ولعله لمس الظلم الاجتماعي الواقع على الفلاحين حيث لم يجد فلاحاً واحداً من المترفين أو من أهل الحضر ..

وتحدث كذلك عن التجارة وعرّفها بأنها (محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء....) كما اشار إلى الاحتكار والاستغلال حين قال: " إن البعض يختزن السلعة ويتحيّن بها حوالة السوق من الرخص إلى الغلاء فيعظم ربحه ..." .

كما تحدث ببصيرته النافذة عن تراكم رأس المال وإن كان الربح قليلاً لأن المال كما يقول ابن خلدون " إن كان كثيراً عظم الربح لأن القليل في الكثير كثيرٌ ..." وعن علاقة المال بالسلطة أشار إلى أنّه لابد للمال من جاهٍ يتدرّع به فيوقع له الهيبة عند الباعة ويحمل الحكام على إنصافه من غرمائه .

وعن قانون العرض والطلب يقول: " إن التاجر البصير لاينقل من السلّع إلا ما تعّم الحاجة إليه ... " .

ويتحدث عن الغلاء قائلاً: " إذا قلّت السلعة أو عزّت غلت أثمانها وإذا كثرت رخصت أثمانها .." .

وحين يتحدث عن الصناعة يرى " أنها ملكة في أمر علمي فكري ولأنها عملية فهي محسوسة، ونقلها بالعمل أوجب لها وأكمل، لأن المباشرة كما يقول ابن خلدون أو الخبرة العملية كما نقول اليوم في الصناعة أتم فائدة " ... وقد عرّف الصناعة بأنها ملكة، ويقول عن الملكة أنها صنعة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكراره مرّة بعد مرّة حتى ترسخ صورته.."، نلمح إيمانه بأهمية الصناعة كما نلمح أهمية فضل التعليم الفني في الصناعة كذلك، كما يوضح لنا أن تقدم الصناعة يكون بتكرار العمل فيها ويرى كذلك أن الصناعة ترسخ في البلد برسوخ الحضارة فيه، وطول أمدها، وتحول الصناعة إلى عادة ترسخ بكثرة التكرار كما يقرر أن الاستقرار ضمان لتقدم الصناعة، وأن البلدان إذا قاربت الخراب انتقصت فيها البضائع وتكبر أهمية الصناعة بقدر أهمية السلعة التي تنتجها ....

ضد العنصرية

فندّ ابن خلدون بأسلوبه العلمي الخرافات حول سواد اللون عند بعض الناس، محاربا من خلال ذلك العنصرية التي تقوم على أساس اللون حين يقول: " توهم بعض النسابين ان

السودان (جمع أسود) هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها في لونه وجعل الله الرق في عقبه .. وينقلون في ذلك حكاية من خرافات القصاص..." .

إن هذه الخرافات يقول ابن خلدون وردت في " التوراة " حيث جاء فيها .." إن دعاء نوح على ابنه حام بأن يكون ولده عبيداً لولد إخوته لا غير " ولم تذكر التوراة لون السواد .

دحض هذه الخرافات بأسلوبه العلمي الذي قام على: التجربة والملاحظة والاستقراء، يقول: " إن القول بنسبة السواد إلى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد، وأثرهما في الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوان ..." ... جاء كلامه هذا في معرض حديثه في مقدمته عن أثر البيئة والمناخ في السكان وتوزعهم ونمط حياتهم جاء في بعض ماقال : " اعلم أنه يتبين في كتب الحكماء الناظرين في أحوال العالم، أن شكل الأرض كروي، وأنها محفوفة بعنصر الماء كأنها طافيه عليه، فانحسر الماء عن بعض جوانبها لماأراد الله تكوين الحيوانات ،وعمرانها بالنوع البشري الذي له الخلافة على سائرها، ثم إن هذا المنكشف من الأرض فيه القفار والخلاء أكثر من عمرانه، والخالي من جهة الجنوب أكثر من جهة الشمال .

وكان " الجاحظ " قد اشار إلى أثر البيئة في الكائنات التي تعيش فيها منذ القرن الثالث الهجري – قبل ابن خلدون بحوالي خمسة قرون في كتابه الشهير " الحيوان " - فعلى سبيل المثال نراه يقول:

" وقد نرى (حرّة بني سليم) وما اشتملت عليه من إنسان وسبع وبهيمة وطائر وحشرة كلها سوداء، ونرى جراد البقول والرياحين خضراً وديدانها خضراً ..."

" قيمة العمل " تحدث عنها ابن خلدون في وقت مبكر وانتقد بشكل واضح تسخير الإنسان لأن " العمل مصدر معاشه الوحيد "، يقول: " ومن أشد الظلامات وأعظمها في إفساد العمران تسخير الرعايا بغير حق ..."

ويوضح هذه القضية – اغتصاب العمل والاستغلال – أكثر حين يقول: " فإذا كلفوا العمل في غير شأنهم واتخذوا سخرياً في معاشهم، بطل كسبهم واغتصبوا قيمة أعمالهم. فدخل عليهم الضرر " ،لأن العمل – كما يرى ابن خلدون بحق – هو مصدر رزق الإنسان وتغيّره، يقول " وأعمالهم كلّها متحولات ومكاسب لهم بل لامكاسب لهم سواها " .

اكتشف الغرب ابن خلدون بدهشة وإعجاب لأنه سبق كل المنظرين السياسيين الغربيين ،سبق ميكافيلي، وميكو، ومونتسكيو، وسميث،وأوغست كنت بعدة قرون .

ومن الدراسات الهامة في هذا المجال دراسة المستشرق الإيطالي " استيفانو كلوزيو " المقارنة التي كتبها أواخر القرن التاسع عشر، قارن فيها بين شخصين: ابن خلدون - وميكافيلي ،تحت عنوان: " مقدمة لدراسة ابن خلدون " تحدث فيها عن أوجه الشبه والاختلاف بين الفيلسوفين ،ووصل إلى اعتبار ابن خلدون رائد علم جديد هو " علم النقد التاريخي " الذي سبق فيه بقرون عديدة أشهر فلاسفة الأوربيين، الذين شغلهم التاريخ ونقده والسياسة وعلومها .

ويرى هذا المستشرق أن ابن خلدون تحدث في قضايا كثيرة سبق بها الغربيين مثل حديثه عن مذهب الجبر الاجتماعي وحديثه عن " وظيفة الدولة ومفاسدها " والسلطات السياسية وطبقات الاجتماع وكذلك وجد عند ابن خلدون نظرية في "الملاكة وتقسيم الأموال " كما سبق الغربيين في حديثه عن المبدأ الجديد، " لكل بقدر حاجته " ويخلص هذا المستشرق إلى أن آراء ابن خلدون في كيان الجماعات الإنسانية في كيانها المركب – تجعله في أسمى مراتب الفلاسفة المؤرخين وأن ما يعزوه من شأن كبير إلى العمل والملاكة والأجرة يجعله سلفاً وإماماً لاقتصاديي هذا العصر .

ظهرت دراسة المستشرق الايطالي (مقدمة لدراسة ابن خلدون) في اللغة العربية في / ٥ (مايو) أيار عام ١٩٢٥ / على صفحات اسبوعية (الميزان) الثقافية التي أسسها في دمشق الناقد المترجم الفلسطيني " أحمد شاكر الكرمي " الأخ الأكبر للشاعر عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) والأبن البكر للشيخ سعيد الكرمي رئيس المجمع العلمي في دمشق .

ترجم الدراسة الأديب والكاتب "عمر فاخوري " ....لتكون في متناول القارئ العربي والباحث المتتبع للفكر الخلدوني (٩) .

ابن خلدون : معالم حياة

ولد عام ١٣٣٢ في تونس وتوفي في القاهرة عام ١٤٠٦ – يكون قد عاش (٧٤) أربعة وسبعين عاماً تقلب خلالها بين المناصب الأدبية والسياسية والقضائية . بدأ كاتباً عند سلطان تونس ..وانتهى إلى منصب قاضي قضاة المالكية في مصر ..

امتدت حياته الفاعلة لأكثر من خمسين عاماً ،إذ دخل معترك الحياة قبل العشرين،وقام بمهمة سياسية خطيرة عند المرينيين ....

أربعة أعوام امتدت من ١٣٧٥– ١٣٧٨ ، اعتزل فيها الحياة العامة وانزوى في " قلعة ابن سلامة " ليبدع أثره الخالد — المقدمة التي ضمنت له الخلود بين أعظم رجال الفكر في

العالم، كتب مقدمته هذه عام ١٣٧٧ بعد أن وصل منتصف العقد الخامس من عمره .. وقد شاهد وعاش تجارب كانت من العوامل التي وجهته ليكتب هذه المقدمة .

بعد أن كتب كتابه الخالد – المقدمة في التاريخ، رحل إلى مصر وبقي فيها إلى آخر حياته ...

تولى سفارة مصر إلى سورية – دمشق – وحصل اللقاء الشهير بين الفيلسوف العربي، والفاتح المغولي تيمورلنك عام ١٤٠١م .

لم ينحصر نشاط هذا العلاّمة في (تونس) مسقط رأسه ومصر مثوى رفاته، بل شمل معظم أقطار الوطن العربي ذهب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وزار المقدسات في القدس العربية واشترك في الدّفاع عن دمشق عندما غزاها " تيمورلنك " عام ١٤٠١م .

ولعل هذاما دعا " فيليب حتّي " إلى القول في كتابه " مختصر تاريخ العرب ": لقد كان ابن خلدون أكبر فيلسوف ومؤرخ أخرجه الإسلام كما كان أحد أعاظم الفلاسفة والمؤرخين في كل العصور " ..

تميز ابن خلدون بأسلوبه العلمي، لم يكتب كأديب وإنما كتب ليثبت وقائع أو معلومات أو فشاهدات .. إضافة إلى أن كتاباته في موضوع لم يسبق إليه، فرضت عليه أن يوجد كلمات جديدة وأن يستعمل كلماتٍ في معانٍ ليست معروفة أو متداولة وعلمية الأسلوب والاتجاه لم تمنع ابن خلدون من الاشارة يقدمها على شكل نصيحة حول أهم الكتب في التراث العربي حين يقول: " .... سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول فنّ الأدب وأركانه أربعة دواوين هي: أدب الكاتب لابن قتيبة ،وكتاب " الكامل " للمبرد، وكتاب " البيان والتبيين " للجاحظ، وكتاب " النوادر " لأبي علي القالي وماسوى هذه الأربعة، فتبع لها وفروع عنها " المقدمة ص ٣٥٣، طبعة بيروت .

هذا قليلٌ مماقدمه ابن خلدون للحضارة الإنسانية وقد اعترف بفضله هذا كثيرون يقول (إيف لاكوست)، إن ابن خلدون لو وضع مع معاصره (فروسار) في كفتي ميزان لشالت كفة الأخير ولجاءت الموازنة في غير صالح الفكر الغربي على كل حال .

وقال (جان مارسيه): " إن مقدمة ابن خلدون هي أحد المؤلفات الأكثر ضرورة والأكثر إثارة من بين المؤلفات التي قيّض للعقل البشري إنتاجها ".

وقال (توينبي) في كتابه (دراسة التاريخ): إن فلسفة التاريخ التي تخيلّها (ابن خلدون) ثم بسطها في كتبه بدون شك أعظم إنتاج أبدعه أي ذهن في أي عصر وفي أي زمن .."

هذا بعض ما قدمه ابن خلدون الذي أثار بمقدمته الشهيرة اهتمام عدد كبير من العلماء والمفكرين العرب والأجانب، والذي عاش في القرن الرابع عشر الميلادي قرن التحول والانتقال إذا عاش من عام ١٣٣٢ إلى عام –١٤٠٦م

وإذا وصلنا إلى مرحلة تؤهلنا لاستيعاب هذا المؤرخ الفيلسوف العظيم فسوف نجد في مقدمته الكثير من القضايا التي تشغلنا في وقتنا هذا، وتعمل علىتحرير العقول وإيقاظ بذور الإبداع.

□□

هوامش:

١- مقدمة ابن خلدون - اختيار وتحقيق سهيل عثمان ومحمد درويش - وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٨ ج١ : ص٥٦-٥٧.

٢- المصدر نفسه ج١ : ص ٨٠-٩٠

٣- المصدر نفسه ج١ : ص ٤٤.

٤- المصدر نفسه ج١ : ص ٢٢٠

٥- المصدر نفسه ج١ : ص ٥٣٨.

٦- المصدر نفسه ج١ : ص ٥٨٨.

٧- المصدر نفسه ج١ : ص ٢١٧.

٨- المصدر نفسه ج١ : ص ٣٥٢.

٩- جريدة "الحياة" اللبنانية، عدد ٢٢ تشرين الثاني لعام ١٩٩٥ .

المراجع والمصادر :

١- من " مقدمة ابن خلدون " في السياسة والاقتصاد - اختيار وتحقيق: سهيل عثمان - محمد درويش - دمشق ١٩٧٨.

٢- دكتور طه حسين، كتاب (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ترجمة عبد الله عنان - القاهرة ١٩٥٢ .

٣- ساطع الحصري - دراسات في مقدمة ابن خلدون، الناشر - مكتبة الخانجي بمصر ١٩٦١ - طبعة موسّعة.

٤- إيف لاكوست، كتابه (ابن خلدون واضع علم ومقرر استقلال - ترجمة زهير فتح الله - منشورات مكتبة المعارف، بيروت ط١ ١٩٥٨.

٥- دكتور محمد أحمد الزعبي - مجلة دراسات عربية عدد(٩)تموز ١٩٨٣ص٧٧ وما بعدها.

٦- مجلة التراث العربي عدد (٢٣) نيسان ١٩٨٦.

٧- جريدة (الحياة) لبنان - الأربعاء، ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر ١٩٩٥ ، ابن خلدون وميكافيلي (دراسة مترجمة).

٨-(المجلة) القاهرة عدد(٦٠) ١٩٦٢ كانون الثاني ،بعض وقائع مهرجان ابن خلدون - أول كانون الثاني لعام ١٩٦٢.

٩- أحمد العناني - مجلة " الدوحة"، عدد (١١٠) شباط ١٩٨٥، مقال بعنوان تاريخ علم التاريخ ص ١١٨.

□



الفصل الثاني

أعلام محدثون



عمر فاخوري (١٨٩٥-١٩٤٦)

من أدب الكتب إلى أدب الواقع

عمر فاخوري

في حياته أكبر منه في أدبه

كان مع رفاق له تلتهب صدورهم لصوت فتى يؤنسهم بين الحين والآخر بشعر يستحث العزائم .... كان الصوت للشاعر " عمر حمد " أحد الشهداء العرب عام ١٩١٦ الذي كان مع رفيقه عمر فاخوري أصغر الثوار الذين شغلهم " نهوض العرب ".

وبينما كان " عمر حمد " يشعل الدّم بالشعر كان عمرفاخوري يجيب بكلمات نثرية عن سؤال جعله عنوان دفتر صغير له: " كيف ينهض العرب ؟ ".

طبع دفتره الصغير هذا ،وصل الأمر إلى الوالي الذي أمربنفي الكاتب ،ثم عفا عنه لصغر سنّه بعد وساطة قريب له بشرط أن يُتلف الكتاب !!

خبّأعمر نسخاً قليلة من الكتاب في دكان والده، يقول رئيف خوري " ... شدّ ماكان يأسف عمر كلما ذكر هذا الكتاب لأن أهله أتلفوه كي لا يظفر الأتراك بجملة منه فكان عمر يقول بأسلوبه الظريف: " أراد الأتراك إعدامي فافتداني المرحوم أبو عمر (يعني والده) بأن أعدم الكتاب ".

حين علق " السفاح" الشهداء العرب على أعواد المشانق ومنهم رفيقه، الشهيد (عمر حمد) سارع عمر فاخوري إلى دكان أبيه وحمل إلى الجماهير، ما كان قد خبأه من نسخ كتابه " كيف ينهض العرب ؟ ".

• • •

لم يعد عمر فاخوري بعد أن حمل شهادة الحقوق من فرنسا رومانسياً، كما عاد محمد حسين هيكل ليكتب روايته (زينب) ولا عاد – كما عاد توفيق الحكيم ليعيش في برجه

العاجي ويكتب مسرحياته الذهنية .. ولا كما عاد (طه حسين) ليعيد النظر في تاريخنا الأدبي على ضوء المناهج الغربية.

لا بل عاد عمرفاخوري واقعياً ،يرفض (أدب الكتب) ليدعو إلى (أدب الحياة)، ويرفض أدباء الأبراج، أدباء الورق، ويطالب بأديب الواقع أديب من لحم ودم .. وبذلك كان من أوائل الذين أطلقوا الصيحة ضد الرومانسية الهروبية في الأدب العربي ،كان ذلك في نهاية الاربعينيات وهو وقت مبكر لإطلاق هذه الصيحة ،ورأى أن علىالكاتب أن يعمّد الناس بالغبطة والحماسة والاندفاع في سبيل الآخرين وأن يجعلهم يلقون نظرة على الواقع ويفكرون .." لا كيف يعيشون بل كيف يصحّ أن يعيشوا " .. وكانت كتبه دعوة للناس كيف يصح أن يعيشوا .. فقد عمّده كتاباه (الباب الموصود) و(الفصول الأربعة) أديباً ناقداً .. كما عمدته كتبه الأخرى (أديب في السوق) و(الحقيقة اللبنانية) و(لا هوادة) كاتب نضال كما يقول (مارون عبود) (١) .. وقد انطلق عمر فاخوري من أن الأدب الشعبي هوالجذرُ لكل الإبداعات .

الكون والحياة ينبوعان لا يشحُّ سيلُهما عنده، كون لا تنفدُ روائعه، وحياة لا تزال متطورة متحولة فكأنهايبعث مستمر في خلق جديد والحياة والناس لهما وجود حقيقي ولهما قيمة فلا تعتبر العناية بهما عبثاً ولهواً وإنفاقاً للعمر من غير طائل .. وبأن الحياة جديرة بأن نحياها حتى لا نتحول إلى كائنات ممسوخة .. وهذا ماجعل " عمر فاخوري " ابن زمانه حسب مقولة الرسام الفرنسي (دومه) يقول: " يجب أن نكون من زماننا وفي زماننا ولزماننا " ثم صار كماشاء وظلّ أديباً مناضلاً كبيراً ،وصار عظيماً حين جعل حياته مثلاً حيا واقعياً لما يدعو إليه، من مبادئ وأفكار واختلف عن المتعاظمين الذين وصفهم السيد المسيح " بأنهم يشبهون الطيور التي يزين ظاهرها الرخام بينما باطنها يعجُّ بالديدان .." .

إن ارتباط عمر فاخوري بزمنه جعله يحارب الغموض وإرسال الجمل المجردة والتعابير المطلقة التي لا تعني شيئاً يخص الواقع لأنها غيرُ مرتبطة بظروف معّينة من زمان أو مكان كما حارب المفكرين الذين يتخبطون علىتخوم النظريات الغيبية ،ووقف مع هؤلاء الذين يمتحون من الواقع وحين تحدّث عن الواقعيين قال: " إنّ ذلك الذي يُدعى شكسبير أو بلزالك القادر بعد الله على خلق عالم جديد عن طريق القلم – عالم يقوم على تخوم الواقع والأبجدية ..".

ضد الأدب الجاهز:

حمل عمر فاخوري علىالأدب المداجي وأدب القوالب المستعارة والتشابيه الجاهزة لأنه أدب مقلد، أدب مقولات مكررة ،يتزاحم أصحابه بالمناكب في طريق قد سلكهاغيرهم كثيرون....

كمايهاجم الشعراء الذين هم حفظة نصوص بحيث لوقطعت شرايينهم لما أخرجت إلاّ حبراً، ولو مزقّت لحومهم لماأخذت إلاّ ورقاً !! إنه يسخر من الأدب الذي ينهمك في تلفيق المعاني وتزويق المباني ...

انطلق يكتب وينقد بأسلوبه الساخر بحيث صارت السخرية هي الطابع العام لأدبه وكم كانت مقالاته السياسية زاخرة بالنكته وقوة التعبير إلىجانب انطباقهاعلىالواقع الذي يصوره وقد تحدث بعضهم عن التصوير الكاريكاتوري في اسلوبه لكنه يمتازبأنه يحمل قيماً جمالية وشعريةوفكريةلايتسع لهامجال الكاريكاتور .

إنَّ عمر فاخوري الذي آمن بالشعب واكتشف أن في المجتمع حياةً زاخرة، لا تعدُ حياة أي فرد مهما يكن عظيماً أزاءها شيئاً مذكوراً وأن الجماهير التي تتعب وتكدح لتحقق مطامح وأمالاً وأن لها مُثلاً عليا تتوق إليها وتتطلع نحوها.

وكما آمن بالشعب،آمن كذلك بالأدب الذي يصدر عنه واعتبر أن كنوز الفقراء من الأدب الشعبي هي الجذر لكل الإبداعات وحذر ضعاف النفوس الذي يسوقون بعض الأمثال الشعبية داعين الناس إلى الاستسلام لأن " العين لا تقاوم المخرز" حذرهم قائلاً إن التاريخ قد عرف حواراً يدور بين تلك العين وذلك المخرز ودائماً كان ينبت للعين ظفر وناب.

إن للمبالغة وظيفة فنّية يجب أن تؤديها والأديب الحق هو الذي يتخلّى عن المبالغة إذا كانت تحمل الغرور والصلف والادعاء ولذلك كان من رأيه أن الواقعية هي الحل، والمقصود بالواقعية عنده الواقعية الاشتراكية التي تأخذ الأمور من الواقع في مجرى التطور الدائم والواقعية هذه لا تجافي الرمزية ولا الرومانسية وإن كانت لا تنساق وراء شطحاتها كما لا تذعن فقط للطبيعة ومافيها من جمال ....وقد حدد عناصر الواقعية الاشتراكية بأنها وضع عام واقع يُقدم للأديب المعطيات الخام، وثقافة إيجابية متفتحة على الواقع الحي النامي المتطور، حيث الواقعية الأصلية عنده هي تفاؤل وإيمان بالتقدم الحتمي للجنس البشري ..

ولعل صواب نثرات كاتبنا إلى الواقع ينبع من عمق استيعابه للنظرية العلمية في الطبيعة والفكر والمجتمع التي جعلته يرفض كلَّ نظرة سكونية ،حيث لا ثبات لشيء، وكلُّ شيء يتغير وهذاما طبّقه في تعامله مع القيم والتراث وكلّ شيء .

إن إيمانه هذاجعله يثبت في المواقف الحرجة التي ييئس فيهاالآخرون وارتفع صوته حين خُفضت أكثر الأصوات وتحت عنوان – كلُّ شيء يتغير قال: " حتى النازية التي كان لها لبدة الأسد تغيرت هاقد نبت لها في الصقيع الروسي صوفٌ حمل للدفء وفي القيظ الإفريقي، ساقا نعامة للهرب

إن إيمان (عمر فاخوري) بالواقعية، لم يجعله يهمل ذاتية المبدع بل كانت كتاباته كلُّها تنبض بالذات الإبداعية عنده، وأن هذه الكتابات ملكه الشخصي وعليهاماركته المسجلة كما يقول (مارون عبود)(٢).

والذاتية هذه عنده لا تعني إهمال الجهد والعمل الدائمين لأن الإبداع عنده حصيلة جهد ومعاناة وإذا فقدهما العمل الفني انقلب إلى حبر وورق لا قيمة له، لأن الأدب استعداد وجهد والاستعداد وحدَه لا يكفي، فلا بُدَّ من جهد دؤوب وصبر طويل ،ذهب عمر فاخوري إلىباريس يدرس الحقوق علىنفقةعمّه في الوقت الذي كان مولعاً بالأدب فاضطر إلىتقسيم وقته كي يرضى نفسه ،ويرضي عمّه يلتهم في النهار الآثار الأدبية وفي المساء يدرس الحقوق حتى نال الشهادة ..وفي هذه الأثناء درس معظم الآثار العالمية الأدبية المعروفة ونال (أناتول فرانس)[١] (١٨٤٤–١٩٢٤) محبّة كاتبنا .

كان من المولعين بشراء الكتب فإذا وجد سعر الكتاب أكثر مماكان يظن هزّ رأسه وقال: لا بأس استعيض عن عشاء الليلة بهذا الكتاب وللدلالة على أهمية الكتاب في حياته نسوق قوله الشهير: " إن الكتب التي طالعتهاهي أعظم حوادث حياتي ".

عمر فاخوري ... رائد تحديث

فتح الباب للتجديد في الفنون عامة والشعر خاصةً حين قال: " ... إن العرب لم تستعمل في نظمها جميع الأوزان وأن الباب مفتوح لموازين أخرى " وقد وجد في تراث العرب مايؤيد نظرته هذه فحين رجع إلىمقدمة ابن خلدون بشأن الموازين وجد قوله: " ليس كل وزن يتفق مع الطبع استعملته العرب ... وحين قارن عمر فاخوري هذا القول مع قوله عن – الموازين الطبيعية – وجد أن ابن خلدون قد فتح الباب على مصراعيه لأوزان غير مستخدمة في الشعرالعربي ويتابع قائلاً " لعل العرب سموها أبحراً لأنها مترامية الأطراف يتصل أحدها بالآخر ويتولد بعضها من بعض إلى مالا يكاد ينتهي .."

١ كاتب روائي فرنسي منح جائزة نوبل في الآداب عام ١٩٢١

وفي سبيل هذه الحداثة التي يراهالا تقف عن التجديد كان نقده الأدبي الذي لم يوارب ولم يدار، فحين يقارن بين جبران وشوقي يرى أنّ ما يفيض عن جبران يروي بطاح المستقبل، بينماسفح شوقي عبقريته علىهضاب الماضي .

وينقد (الزهاوي) بأسلوبه التهكمي الساخر مسلطاً الضوء على كتاب للشاعر الزهاوي عنوانه (أشراكُ الدّاما) اخترع فيه مئة لعبة استنبط لتصويرها طريقةً بالأرقام، وألف الزهاوي (رباعية في الشعر) واصاب من الشهرة في عصره ما أصاب ولكن هذا لم يمنع من النقد اللاذع، " وإذا كان كثير الاختراع في الداما فهو قليل التوليد في الرباعيات وإذا كان للداما أن تخلد إسماً فهي التي ستخلد اسمه: صاحب المئة اختراع بعد الخمسمئة وسيقال في ترجمته في ذلك الموضع: كان أيضاً ينظم الشعر " .

كان عمر فاخوري أول من ترجم إلى العربية الدراسة الهامة للمستشرق الإيطالي "إستيفانو كلوزيو" التي كتبها أواخر القرن التاسع عشر يقارن فيها بين شخصيتي: ابن خلدون وميكافيلي، تحت عنوان "مقدمة لدراسة ابن خلدون "، ساق فيها أوجه الشبه والاختلاف بين الفيلسوفين متوصلاً إلى اعتبار الأول رائداً لعلم جديد كان له قصب السبق في ارتياده ووضع أسسه والمقصود به " علم النقد التاريخي " ويأتي في ذلك قبل قرون من ظهور كل من ميكافيلي ومونتسكيو وفيكو وثلاثتهم فلاسفة أوربيون اشتغلوا في التاريخ وفي السياسة وعلومها وكانوا رؤساء مدارس في هذه الميادين .

نشرعمر فاخوري ترجمته لهذه الدراسة علىصفحات اسبوعية " الميزان" الثقافية الجامعة في دمشق في أيار عام ١٩٢٥ كما سبق .

والذي دفع كاتبنا إلى ترجمته هذه الدراسة (٣)، القضاياالحيّةالمعاصرة التي اكتشفها هذا المستشرق عند العالم العربي الفذ " ابن خلدون".

وظيفة الأدب

إذا كان العلم لتمكين الإنسان من السيطرة على قوى الطبيعة والاقتصاد لأموره المعاشية والسياسية لأموره الاجتماعية فإن الأدب يختص بهندسةالنفوس البشرية وينطلق لحماية القيم الروحية والضميرالإنساني..فإذا تضافر النضال الروحي مع النضال المادّي أصبحت لقمة العيش قادرة على الارتقاء بالنفس والروح بدل أن تشوههما، يستشهد عمر فاخوري بكلمة للكاتب الفرنسي (لاسين) جاء فيها: " لا نكتم أن مانجاهد من أجله ليس أسباب معيشتناالمادية فقط، بل اسباب حياتنا الروحية أيضاً ..))

وهُنا يطلب (عمر) من الأدباء أن يقللوا من التبجج برسالاتهم ويكثروامن الحديث عن وظائفهم لأن الأديب كائن اجتماعي له وظيفة تجعله لا يترفع عن الوقائع البسيطة التي تتألف منهاحياة الناس اليومية لأن الأدب الحقيقي يتناول أي موضوع ويبدع فيه فناً رفيعاً .. الجاحظ كان عظيماً في إبداعه من خلال تصوير الشحاذين والبخلاء في عصره ... وإذا كانت حياتنا ذميمة فليكن أدبنا من شهود الاتهام لأن السكوت عن الرذيلة كتمان لها وإغراء بها ..

الفنُّ .. موقف إنساني

هذا ماانطلق منه عمر فاخوري مُستلهماً مقولة " ماركس ": " إن الفن أسمى درجة من درجات الفرح يمكن أن يهبها الإنسان لنفسه " .

وموقفه من إنسانية الفن جعله يعترف بفضل السابقينَ له، لأن العبقري في رأيه مدين للذّين تقدموه، وأنه بذلك أكثر الناس ديناً كما أنه أكثرهم غنى ولعله يعبر عن إيمانه هذاحين يقول معترفاً بفضل السابقين: " إن الكتب التي قرأتها هي أعظم حوادث حياتي"، نعم صار أكثر الناس غنى بالأفكار التي تحوّلت عنده إلى عمل لإيمانه بأنه ليس بكافٍ أن نقول بل يجب أن نعمل مانقول، وفي سبيل تحقيق هذا الشعار، قضى حياته معلّماً ومتعلماً، ولم يقل يوماً – أنني ختمت أووصلتُ – ومن أجل ذلك هجر البرج ونزل إلى الساحة ورأينا من خلال نزوله هذا كيف يسمن الأدب على الواقع وكيف يصبح الأديب رجل فكر ورجل عمل دون أن يتخلى عن فنّية الأسلوب وانطلاق الخيال .. وحطم بذلك الحواجزالوهمية بين المفكر (المبدع) والجماهير .. إن إيمانه بعظمة من سبقوه جعله سليل الكبار المؤثرين في تاريخنا: (الجاحظ ،المعري، المتنبي) كما كان سليل الكبار في الأدب العالمي أمثال فولتير وأناتول فرانس تدور الدعابة الساخرة علىلسانه ،ويُعالج أعقد المسائل بأمتع اسلوب وأخطر الموضوعات بابتسامة محَبّبة .. كما أن روحه المنفتحة جعلته يولع بالجديد دون أن يتنكر للقديم .

الفن موقف، يعني ذلك أن ادّعاء الحياد أمر باطل وكي نحصل على فنان حيادي علينا أن نجرده من العاطفة والإنفعال والشعور ومن يزعم أنه يستطيع الوقوف على الحياد فإنما يقف بالحقيقة.إلى جانب القوى المضادة التي تُعيق التقدم ..وعندما ترفض الحياد فأنت في خضم قضاياالناس .. ومن له مثل إيمان عمر فاخوري فلا يمكن إلاّ أن يكُوْن مع التقدم مع الحياة في تطورها الدائم إلى الأمام وتحملّ في سبيل ذلك الكثير ،قال (مارون عبود) حول هذه النقطة :" لقد وطدت كتب عمر فاخوري إيماني بأن الأديب الأصيل لا يتخلى عن خاصياته حتى في قاع جهنّم .... "

وبسببٍ من حرارة إيمانه بالمبادئ التي وقف عليها حياته، فإن الكثير من آرائه مـازال ينبض حيوية وثراءً وكأنها تصوّر أحوالنا في يومناهذا . فحين يتحدث عن الطائفية في لبنـان يقول بأسلوبه اللاذع: " لقد أتى علينا زمن في لبنان وبين الطائفة والأخرى أو بين أبناء ديـن وأبناء دين آخر،كالحدود التي تفصل وطناً عن وطـن .. كدنـا نحتـاج إلىجـوازات سـفر بـين الطوائف والأديان ".

وحين يطالب باستقلال لبنان– بدا وكأنه يتحدث عن كثير مـن أقطـار الوطـن العربـي الكبير: " لا نريد استقلال لبنان فحسب بل نريد استقلال الشعب اللبناني أيضاً، واسـتقلال الشعب يعني تحرير جماهيره من كافة ألوان الضغوط .."

وهو الذي كتب منذ عام ١٩٤٢م بأن الوطـن لا يكـون سـليماً مُعـافى إلاّ إذا كـان وطـن الجماهير، يشعر الناس فيه أنّهم " مواطنون لارعايا "

في ختام هذه الأسطر القليلة عن كاتب مناضل كبـير نقـول: " ماأحوجنـا إلى أمثـال – هذا الرجل – الذي عاش بما آمن به، وآمن بما عاش من أجله، الذي عـاش مـاكتب وكتـب ماعاش فصدق مع نفسه وصدق مع الناس وبذلك تكمن روعة نتاجه وعظمـة مواقفـه واسـتحق الخلود عند الذين يؤمنون بالفن موقفاً من أجل حياة أجمل.

□□

مراجع

١–عمر فاخوري كتابه الباب المرصود طبع عام ١٩٣٨.

٢–عمر فاخوري كتابه لاهوادة، طبع عام ١٩٤٢.

٣–عمر فاخوري كتابه أديب في السوق ١٩٤٤

٤–عمر فاخوري كتابه الفصول الأربعة.

٥–عمر فاخوري كتابه الحقيقة اللبنانية ١٩٤٥.

٦– مجلة الثقافة الوطنية عدد خاص في ذكرى عمر فاخوري العاشرة، تموز – آب، ١٩٥٦.

٧–جوزيف حرب – عمر فاخوري سر الشعب إلى الأدب – بيت الحكمة – بيروت ط ١ تشرين الثاني ١٩٦٩

٨–حنا عبود – المدرسة الواقعية في النقد الأدبي الحديث، طبع وزارة الثقافة ١٩٧٨. بحث بعنوان عمر فاخوري زعيم الواقعية الجديدة من ص ١١٥ إلى ص ١٥٤

هوامش :

١– مارون عبود، جُدد و قدماء – دار الثقافة، بيروت ١٩٥٤، ص ٧١.

٢– في كتابه جُدد وقدماء ص ١٨٧.

٣– أعادت صحيفة (الحياة) في لبنان نشر هذه الدراسة في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٩٥ .

□

جبـران مـن روّاد الـحـداثــة

جاء في مقال الدكتور مُحيي الدين صُبحي في تحية للشّاعر القروي المنشورة في مجلة (الوحدة) العدد الثاني لشهر تشرين الثاني لعام ١٩٨٤ ص ٢٠٦– أن جبران نقل إلى الأدب العربي مَرض العصر فابتلي أدبنا بالسوداوية والركاكة وسقط جبران في وحل الطائفية الأقليمية وأساء إلى الأدب من حيث كونه لم يتقيد بقواعد الأجناس الأدبية: الشعر المنثور، قصيدة النثر، القصة الشعرية ..."

والسطور التالية لا تمثل رداً على دكتور محيي الدين صبحي بقدر ماتكشف دور جبران في كونه أحد روّاد الحداثة في حياتنا الأدبية الفكرية: لم يكن لجبران خليل جبران الذي امتدت حياته حوالي ثمانية وأربعين عاماً من ١٨٨٣ إلى ١٩٣١م لم يكن له فلسفة محددة الخطوط واضحة المعالم بقدر ماكانت الحياة عنده ثوره وتمردا كما هي عند الفيلسوف الالماني (نيتشه) لأن اضطراب الحياة العربية آنذاك من كافة النواحي لم يترك المجال أمام المبدعين ليرسموا معالم فلسفة واضحة أو كي يبدعوا فناً يحتاج إلى الاستقرارا ... ولعل وجود هذا السبب هو الذي لم يمكن جبران من أن يصب أشواق روحه في روايات أو قصص قصيرة أو شعر .. وكأنه شعر أن أيّاً من فنون الأدب لا يستطيع استيعاب ثورته وتمرده .. لذلك مارس كتابة القصة القصيرة كما استطاع أن يفهمها في كتابين هما (عرائس المروج) و (الأرواح المتمردة) ضمنّهما حملته على الإقطاع والتقاليد البالية، واستغلال بعض رجال الدين، وكشف استغلال اصحاب الأموال لفقراء الفلاحين الأمر الذي جعل جميع المستغلين يناصبون جبران العداء المرير... وكتب جبران الشعر في (المواكب) الذي كان حواراً شعرياً حول أهم مايؤرق الإنسان في حياته مثل: العدل والسعادة والحق والحرية والخير والشر ..كذلك كتب المقال كما عرفه من الغربيين في أيامه في الثلث الأول من القرن العشرين .. وكان نفس جبران الثائرة رفضت أن تُسجن ضمن خطوط – ولو كانت عريضه لفن أدبي، له ضوابط وتقاليد .. وربّما لهذا السبب كان أغلب الأدب الجبراني خواطر متناثرة، ومقالات كما في كتابه (البدائع والطرائف) الذي تحدث فيه عن مفكرين لامعين مثل: ابن سينا والغزالي وابن الفارض وجرجي زيدان ... وغيرهم.

إن نظرة محايدة إلى ما ترك جبران من آثار، تشير إلى أن مرور أكثر من ستين عاماً على وفاته وحوالي أكثر من مئة عام على ولادته لم تغيركثيراً من موقعه كرائد من روّاد الحداثة في حياتناالمعاصرة ..

مثلاً حين يقول: " الحق، الحق أقول لكم: إن حبة الحنطة التي تقع على الأرض إن لم تمت تبقى وحدها وإن ماتت أتت، بثمر كثير ..."ولا أعرف نقطة أكثر وضوحاً وثورية– في زمنها– من هذه النقطة تتمحور حولها كلُّ نضالات الثوار الذين يعملون من أجل هذا الوطن العربي في التحرير والتقدّم .. إنّها تشكل محوراً هاماً في حركات المقاومة فوق الأرض العربية المحتلة ..إنها لا تغيب عن وجدان هؤلاء الذين يرون الموت العالي – موت الشهداء – هو بداية الحياة الكريمة المجيدة للشعوب .

جبران ضد الاغتراب ..

نشعر في كثير من الأحيان كان جبران يعيش بيننا الآن يحذّرنا من الاغتراب الذي يعيشه الكثيرون منا فيتحولون مع هذاالاغتراب إلى صف الأعداء، يقول (جبران): " إن المغترب ليس عدواً واضحاً لمجتمعه ولكنه يقف في صف الأعداء "، ويقول كذلك :" أنت صالح يا صاحبي إذا كنت تشعر بإنسانيتك وكرامتك، وإذا كنت تشعر بأن في حياتك ما تعمله لأن الإنسان الذي يؤمن بهدف ما، يريد الوصول إليه، لا يتطرق اليأس إلى روحه رغم توافه الحياة اليومية التي تقربنا في كثير من الأحيان من حافة اليأس ..".

يحذر جبران من الاغتراب السلبي الذي هو إهدار لقدرات الإنسان الخلاّقة والقضاء علىهذا الاغتراب يكون بالعمل الذي يحقق وجود الإنسان وحريته . إن جبران هوالقائل: " ((لا تصّدق أن الدهر يرفعك أويخفضك فمصيرك بين يديك، لا تتكل على الأماني فهي بضاعة الموتى..".

الحياة أخذ وعطاء

إن جبران الذي رحل عن دنيانا منذ أكثر من ستين عاماً مازال يعلمنا أن روعة الحياة تكمن في الأخذ والعطاء، هكذا تعلمنا الحقول: " إن لذة النحلة قائمة على امتصاص العسل من الزهرة ولذة الزهرة تكون بتقديم عسلها للنحلة .. النحلة تعتقد أن الزهرة تؤمن أنّها رسول المحبة، كلتاهما تؤمنان أن العطاء والأخذ حاجتان لا غنى عنهما لمن يُريد أن يعيش سعيداً ولذة العطاء لا تقل إسعاداً عن لذة الأخذ، إن لم تتفوق عليها ...".

إن القراءة المحايدة تظهر أن جبران مرتبط بأرضه وأن افتتانه بالغرب وما فيه من أفكار وخاصة نيتشه في كتابه " هكذا تكلم زرادشت" لم ينسه حُبّه لوطنه فعلى سبيل المثال كان النبي الذي اختاره كي ينطق باسمه، ويحمل أفكاره عربياً سمّاه (المصطفى) وكذلك إخلاصه لوطنه يتجلى من خلال حديثه عن الريف الذي ولد فيه، يقول جبران: " سرنا مع تيار المدنية حتى نسينا أو تناسينا فلسفة الحياة الجميلة البسيطة المملوءة طهراً ونقاوة، تلك الحياة التي إذا ما تأملناها صيرناها مبتسمة في الربيع مُثقلة في الصّيف مستقلة في الخريف مرتاحة في الشتاء، نحن أكثر من القرويين مالاً وهم أشرف منا نفوساً، نحن نشرب كأس الحياة ممزوجة بمرارة الخوف واليأس والملل وهم يرشفونها صافية .."، قال جبران ذلك على الرغم من أنه كان مجبراً على الرحيل من وطنه كي يعيش .. ومع ذلك يرى أن البُعد عن الأرض يقود إلى الموت المعنوي إن لم يكن الموت المادي وهذا مفهوم مبكر نفذت إليه بصيرة جبران ليصبح بعد نصف قرن من رحيله عن هذا العالم، أحد الهموم التي تؤرق كبار المبدعين في وطننا العربي .. كان الارتباط بالأرض هو الحرية .. والابتعاد عنها هو الموت – محور رائعة غسان كنفاني الروائية (رجال في الشمس) كما كانت الفكرة نفسُها هي محور عمل جبرا ابرهيم جبرا الروائي (السفينة) وهي كذلك محور المسرحية الغنائية (غربة) التي شارك في كتابتها محمد الماغوط، وعبارة جبران التي تلخص موقفه من هذه القضية الهامة تقول: "ولهذا أنا غريب وسأبقى غريباً حتى تخطفني المنايا وتحملني إلى وطني".

في كثير من الأحيان نشعر كأن جبران يعيش بيننا وكأن هذا الفكر القادر على السفر نحو المستقبل ليضيء لنا الدرب نحن الذين نعيش الآن نقول: وكأن هذا الفكر ليس لإنسان نتذكره بعد حوالي ستين عاماً من وفاته .. وإذا صادف أن احتفلنا بمرور ستين عاماً على ولادة أحد المفكرين ممّن يعيشون بيننا فهل نجد عنده من الأفكار المضيئة مثل ما يمكن أن نجده عند جبران؟!.

جبران يدافع عن الفكر العربي:

إن أحد الهموم التي تشغل بال المفكرين العرب التقدميين اليوم – أواخر القرن العشرين– هو رفض النظرية الاستشراقية التي نشأت في ظل الاستعمار والتي تحرم العرب أو تستكثر عليهم الإسهام ولو قليلاً بالحضارة الإنسانية ..وكأن بصيرة جبران تأبى إلاّ أن تُسهم في الردّ على هذه الافتراءات حين يؤكد أن الحضارة العربية جزء مهم وإسهام فعّال في الحضارة الإنسانية، وحين يؤكد أن الفكر العربي مكمّل للفكر اليوناني وهو في الوقت نفسه حلقة ذهبية ربطت بين فلسفات الشرق المثالية وفلسفات الغرب المادية ويرى أن (ابن سينا) يجمع في قصيدة واحدة عن (النفس) ما قاله شكسبير، وتشلي، وغوته وغيرهم..

وإذاكانت بعض الكتب الهامة اليوم مثل كتاب " النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية " للدكتور حسين مروة"، تحاول إثبات أن الشرق ومنه الوطن العربي ليس متخلفاً بطبيعة تكوينه العقلي والنفسي وإنما يعود ذلك إلى ظروف اجتماعية اقتصادية لها اسبابهاالمختلفة ..فإن جبران قد قال ذلك منذ مطلع هذا القرن " ليس الشرقي أرقى من الغربي ولا الشرقي أحطّ من الغربي ".. وإنما رُقي الإنسان وانحطاطه رهنٌ بالظروف الاجتماعية والاقتصادية حوله، وإذا كان العبد الذي يحلم حالة استعباده ويناضل ضدها هو إنسان ثوري كما يقول (لينين) فإن جبران غير بعيد عن هذا الثوري حين شعر أن أبالسة الخمول تقود مواطنيه وقيود العبودية تتمسك بأقدامهم .. فحاول أن يُضيء درب التمرد والثورة.

جبران .. الواقعي :

حين يقول جبران عن (ابن سينا) – تلميذ أرسطو– إنه أدنى إلى مُعتقدي وأقرب إلىميولي، فإنه بذلك يحدد موقعه إلىجانب الفكر المرتبط بالواقع والذي يتعامل مع الواقع تعاملاً علمياً. وهذا – حسب ظنّي – هو ماقاد جبران إلى أن يرتضي الفقر قناعةً، ويتمرد عليه ظلماً لأن الفقر والظلم ليسا قدرين من السماء.

كما كان علمياً واقعياً عندما آمن بقدرة الإنسان علىالمواجهة مهما اشتدّ الظلام حوله، وعليه ألاّ يبقى في مواقفه السلبية مهما اشتدّ ضغط الظروف يقول: " كنا نشكو الدهر وصرنا نواجهه، كنا نخاف العواصف وصرنا نقصدها.. كنا نخضع للملوك والأصنام وصرنا لا نعبد إلاّ الحب، كنا فكراً صامتاً وصرنا صوتاً...".

وحين ينهي كتابه " يسوع بن الإنسان " بصوت (يوحنا) الذي امتزجت فيه المعرفة بالعزم.. ينهي هذا الكتاب بكلمة " إنه النضال لاغير" يكون جبران قد جدد لنا مُنذ بداية هذا القرن الطريق نحو التقدم الحقيقي .

هذا بعض مما قدّمه جبران الذي بقي حائراً بين التصوير (الرسم) والكتابة إلى أن التقى في باريس المثال العظيم (رودان) في مرسمه وقد تحدث إلى جبران عن الفنان الشاعر (وليم بليك) الذي أخذ الشعروسيلةً يُعبّر فيها عن رسومه ... وخرج جبران بعد هذا اللقاء والدنيا تتسع أمامه، يهتف :" لا تردّدَ بعد اليوم.."!.

وقد جعل من (وليم بليك) قدوة له، وبدءاً من هذا اللقاء سوف يكتب ويرسم حتى صار جبران الذي نعرفه، جاء الدرس إلى من يحب العمل حتى العبادة .." أحب العمل ..

ولا أدع دقيقة من وقتي تمر بلا عمل، إن الأيام التي تكون فيها نفسي راقدة وفكرتي خاملة، هي عندي أمرّ من العلقم واشد قسوة من أنياب الذئاب..".

إن العمل عند جبران مقياس لإنسانية الإنسان ومن أجل العمل قدّس العزيمة الجبارة التي تقهرمصاعب الحياة لتصل إلىالهدف الذي يعيش من أجله .."، يقول :" أنا فرح بوجود المصاعب في حياتي لأني أريد أن أتغلّب عليها؛إذ لولا المصاعب لماوجد الجهاد والعمل ولكانت الحياة باردة قفراء مملّة .. وقد كتب ذات يوم إلى (مي زيادة)، " أنابركان صغير، سُدّت فوهته، فلو تمكنت من كتابة شيء جميل أو كبير لشفيت تماماً . إن ما فعلته لاشيء..."

هذا ما يقوله جبران عن نفسه شأن الكبار الذين يصيرون كباراً وهم يصنعون أنفسهم بالإرادة والعزم .. ولا يرضون عما قدّموه لأنهم دائماً ينظرون إلى الأسمى والأرفع.

يمكن القول إن كتاب (النبي) هو عصارة حياة(جبران خليل جبران)، كما هو عصارة فكره إذ قد أعاد كتابته خمس مرات في خمس سنوات متواليات قبل أن يوضع في يد النشر كما تقول (بربارة نييبح) عن تاريخ الكتاب.

إن جبران كان من القلة النادرة التي تسبق زمانها ،لتأخذ علىعاتقهاكشف الحقيقة وتعريتها من كل زيف ،ولذلك يجوز لنا أن نقول: إن جبران كان أول العرب المعاصرين الذين اخترقوا بإبداعهم المحلية إلى نطاق عالمي رحب،حتى غدت شهرة جبران العالمية تفوق شهرته في وطنه العربي الكبير ..

و(نبيُّ) جبران مثال رائع في الحنين إلى الوطن، لأن محبة الذين حوله في بلاد الإغتراب -وتأثرهم به لم تخفف عنده عزم العودة إلى وطنه وكان لابد لهذه المحبة أن تبوح أمام عزم العودة إلى الوطن قائلة :" إن محبّتنا لا تقيدك وحاجتنا إليك لا تمسك بك، ولكنا نطلب إليك أن تعطينا من الحق الذي عندك لنعطيه لأولادنا، وأولادنا لأحفادهم... ".

وعندئذ بدأ المعلم يلقن حكمه الشرق كما استوعبتها ذاته إلى أبناء الغرب ،وكان الدرس الأول عن المحبة ذات المسالك الصّعبة، لأن المحبة تطهرنا بنيرانها، وتستأصل الفاسد من ذواتنا المحبة تغربلنا كي نتحرر من القشور وتطحننا كي تجعلنا أنقياء كالثلج، ويقود الحديث عن المحبة إلى الحديث عن الأبناء الذين من وحي محبّته لهم قال يخاطب الآباء:"...إنكم تستطيعون أن تمنحوا أولادكم المحبة ولكن لا تستطيعون أن تغرسوا فيهم بذور أفكاركم، لأن لهم أفكاراً خاصة بهم،إن في طاقتكم أن تصنعوا المساكن لأجسادهم ولكن نفوسهم لا تقطن في مساكنكم، لأنها تقطن في مساكن الغد ولكم أن تجاهدوا كي تصيروامثلهم ولكن عبثاً تحاولون أن تجعلوهم مثلكم، لأن الحياة لا ترجع إلى الوراء ،ولا تلذّ لها الإقامة

في منازل الأمس.." إن جبران بهذا المفهوم المبكر لعلاقة الأجيال – أوصراع الأجيال – كما يحلو لبعضهم أن يقول- يضعُ الأولوية للمستقبل ،ولم يكُن كبعض الذين عاصروه أو جاؤوا بعده يمشي إلى الأمام ووجهه – فكره- إلى الخلف .. إنه كان يعيش حاضره لينطلق منه إلىالمستقبل ذلك المستقبل الذي هوالشّغل الشاغل للمفكرين منذ القرن التاسع عشر.

كان كتاب (النبي) صرخة احتجاج ضد عالم يملؤه الشروكانت الكلمة فيه إحدى رسائل جبران لتخليص البشرية من الشر المتجذر في حاضرها .. كان (النبي) رسالةإلىالإنسانية جمعاء قبل أن يكون عاصفة تجتاح الغرب كما يقول (روزفلت) وليس غريباً أن يكون هذا الكتاب من أروع ماترك (جبران) لأنه تحدث فيه عن علاقة الإنسان بالإنسان وهو الأمر الذي كان ومازال يشغل بال عباقرة البشرية منذ أول الزمان، وإذا كان كمايقال قد تأثر بكتاب (هكذا تكلم زرادشت) للفيلسوف الألماني (نيتشه)، فإن تأثره لا يعدو أن يكون اقتباساً لطريقته في مُخاطبة الآخرين،فكما أن (نيتشه) جعل من (زرادشت) وهو نبي ينطق بافكاره ،فإن جبران جعل من المصطفى لساناً ينطق من خلاله ليحدّث الآخرين، وفيما عدا ذلك كان كتاب (النبي) نتيجة معاناة طويلة وفلسفة اعتمدت على الحب الطاهر، بخلاف فلسفة نيتشه المبنية على العُنف، والتي كانت أساساً لكثير من الأفكار العنصرية وكان يعيبُ جبران لوأنه وقع تحت سطوة أفكار نيتشه مثلما وقع تحت سطوة بعض أساليبه ويمكن القول بعبارة أخرى، إن جبران في (النبي) معلّم يستخدم قالب نيتشه على طريقته الخاصة وبأسلوبه الخاص كمايقول دكتور (ثروت عكاشة) مُترجم كتاب (النبي) عن الإنجليزية إلى العربية، وأراد جبران لمضمون كتابه أن يتوافق مع اسمه (النبي) فحرص على أن يرتفع بأسلوبه، ليكون التأثر أبلغ واسرع فانتقى التشابيه وأبدع الإستعارات فجاء أسلوبه قريباً من الحكم المسبوكة لمعرفته أنها أعمق أثراً من الجمل الطويلة التي تأتي عفو الخاطر ،بحيث يمكن اعتبار (نبي) جبران خطوة رائدة انطلقت منها الحداثة في العديد من المجالات وخاصة (قصيدة النثر) النامية في أدبنا العربي الحديث ،وفي هذا الكتاب تحدث جبران عن كثير من الأمور التي تهم الإنسان في علاقته بأخيه الإنسان – كماسبق أن قلنا– قال المصطفى يخاطب البحر: " سيدور هذا الجدول دورة ومن بعدها سآتيك قطرة لاتحدّ إلىمحيط لا يحَدّ "، وفي كلمته الأخيرة لأهل (أورفليس) يقول: " عما قليل بعد هجعة قصيرة على أجنحة الريح ستحبل بي امرأة أخرى " ولعله يريد أن يقول في هذا الكلام، انه سيكون بداية لمن سوف يأتي بعده ويكمل رسالته وأنه سوف يبعث في فكر كلّ ثائر متمرد يقول: " الحق .. الحقّ أقول لكم أن حبة الحنطة التي تقع علىالأرض إن لم تمت فإنها تبقى وحدها وإن ماتت أتت بثمر كثير " ألا يريد أن يقول " إنّك إذا أفنيت نفسك في المجتمع تحولت إلى قوة هائلة تماماً مثل حبة القمح التي تفنى في الأرض لتعود

سنابل فيها الحب الكثير .. وما أروع بصيرة جبران التي نفذت إلى المستقبل في الربع الأول من هذا القرن العشرين- فرأت الناس " يتحولون في المدن الكبيرة مع الأيام إلى فاقدي الإرادة ،إنهم يحترقون في أتون الحياة الضاري "، لأنه في المدينة تتباعد قلوب الناس رغم قصر المسافات بينهم ...."

وعندما يتحدث جبران عن اللذة أومايمكن أن نسميه السعادة يجدها في أن نعمل ونفتش ونتعب لأننا نجد في ذلك العمل اللذة المنشودة ،ونجد مُعها سبع شقيقات أحقرهن أوفر جمالاً من اللذة .. أي أن جبران يدعونا إلىالعمل والبحث،لأنه يشبع فيناالشوق إلى السعادة والطموح إلى المعرفةكما يعلمناأن السعادة في الحياة قائمةٌ على الأخذ والعطاء ...

ومن الحقول نتعلم أن لذة النحلة قائمة علىامتصاص العسل من الزهرة ولكن لذّة الزهرة أيضاً تكون بتقديم عسلها ... والنحلة تعتقد أن الزهرة ينبوع الحياة والزهرة تؤمن أن النحلة رسول المحبة، والزهرة والنحلة كلتاهما تعتقد أن الأخذ والعطاء حاجتان لابدّ منهما في الحياة وسعادة لا غنى للحياة عنهما ..

وهنا نلمس واقعية جبران التي كانت السبب في بقائه حيّاً نابضاً بالجديد، بينما أكل الزمن مُعْظم معاصريه، تلك الواقعية التي ترى أن الحياة عمل دائم نحو التقدم وأن السعادة فيها قائمة علىتبادل المنفعة فمثلما تحتاج الحياة للزهرة تحتاج كذلك للنّحلة، وأن عمل الإسكافي الذي يصنع الأحذية لا يقل شأناً عن عمل الفنان الذي ينحتُ الرخام ليجمل منه النماذج الفنّية وأن الريح لا تخاطب السنديانه الجبارة بغير اللهجة التي تخاطب بها أقصر أعشاب الأرض .. هذه حكمة الطبيعة التي هي عند جبران المعلم الأكبر، وتجلت روعة جبران عندما تحدث عن الجمال على أنه شيء نسبي وليس شيئاً مُطلقاً فالجمال عند الحزين رقّة ولطف وعند الغضوب قوّة وبطش وعند الحارس بزوغ الفجر وعند العامل يطل من نوافذ الغروب وهو في ذلك يختلف عن (نيتشه) الذي يريد في كتابه الآنف الذكر خلق الإنسان المتفوق جباراً كشمشون وشاعراً كداود.وحكيماً كسليمان — الإنسان السوبرمان — فهو بذلك يكلّف الطبيعة ما لا طاقة لها عليه — كما قيل.

وعندما يحدثنا جبران عن العطاء يلمس حقيقةً إنسانية رافقت البشر منذ بداية الحياة يسأل: أليس الخوف من الحاجة هو الحاجة بعينها؟ أليس الظمأ الشديد للماء عندما تكون البئر مليئة هو الظمأ الذي لا يرتوي؟... إنه يرى أن رغبة الكثيرين في الشهرة تضيع الفائدة من عطاياهم ؟ ومن الناس الذي يُعطي كما يُعطي الريحان عبيره في الوادي،وهؤلاء هم الذين يؤمنون بالحياة وسخاء الحياة، وهم الذين لاتفرغ صناديقهم وخزائنهم ملأى دائماً ..

وإذا كنا لا بدّ أن نستخدم في المآكل والمشرب لبن الحيوانات ولحومها فليكن ذلك أكثر نقاوة ونبلاً في الأعماق، وكأنه في كتابه (النبي) يسأل السؤال الذي طرحه (زوربـا اليونـاني) وهو يتحدث بعفوية: " قل لي ماذا تفعل بالطعام الذي تأكله أقل لك من أنت ؟

ولا تختلف نظرة جبران إلى العمل عن نظرة أكثر أبناء الإنسانيةعطفاً عليها وذلك حين يرى أن الكسول غريب عن فصول الأرض وطبيعـة الحيـاة، فـالعمل يجعـل الإنسـان مزمـاراً تنطلق منه موسيقى الحياة . يقول: " العمل .. أقول لكم يفتح قلوبكـم بالحقيقـة – لمحبّـة الحياة لأن من أحب الحياة بالعمل تفتح له الحياة أعماقها وتدنية من أبعد اسرارها ولا شيء يغسـل كآبـة الحيـاة ويطهـر النفـس سـوى السـعي .. إن الحيـاة حالكـة سـوداء إذا لم ترافقهاالحركة، والحركة عمياء إذا لم ترافقهاالمعرفة والمعرفةعقيمة إذا لم يرافقها العمل وهذا يكون باطلاً إذا لم يقترن بالمحبة .. وحب العمل يعني أن تبـني وكـأنك أنـت الـذي سـوف تسكن فيما تبني وكذلك حين تنسج، الحب هو أن تـودع كـل عمـل مـن أعمـالك نسـمة مـن روحك وإذا خلا عملك من المحبة فإنه لا يُشبع سوى نصف مجاعة الإنسان ".

وتتجلى واقعية جبران كذلك عندمايرى أن الفرح والحزن لازمـان للحيـاة ،لـزوم النـور للشمس ،والعطر للورد وأنه لولا تغلغل وحش الحزن في قلوبنا لما تضاعف الفرح في أعماقها " لأن الكأس الي تحفظ خمرتكم هي نفس الكأس التي احترقت في أتون الخزّاف ..".

وحين يتحدث عن البيوت يطلب من الناس أن يخبروه بماذايحتفظون في بيوتهم هذه؟ هل عندهم الجمال الذي يرقى بالقلب الإنساني ؟ هل عندهم الرفاهية فقط المزوجة بـالطمع؟ الرفاهية التي تدخل البيت ضيفاً ثـم لا تلبـث أن تصير مُضيفـاً فسيّداً عاتيـاً عنيفـاً ؟! ثـم تتحول إلى رائض جياد يتقلد السوط بيمينه، والكلاب بيساره متخذاً رغباتـه المفضّلـة ألعوبـة يتلهى بها ... وإن كان بنان الرفاهية حريري فإن قلبها حديدي صلب، إن التحرق للرفاهية ينحر أهواء النفس في كيدهافيرديها قتيلة ..

ولا أعرف إن كان غيرُ جبران يستطيع أن يعبّرعما نعانية اليـوم مـن رفاهيـة مستوردة مارسها تقليداً بحيث قضت علىما يمكن أن يكون في دواخلنا من إمكانات قادرة علىالعطاء والإبداع، لإن هدف الكثيرين منا في حياته أصبح تأمين أكبر قدر من الرفاهية علـى حسـاب ذلك الجانب الذي افتقدناه.

ويبدو أن جبران في كتابه (النبي) يريد أن يقطر حكمة الحياة في سطور قليلة وهذا من طبع الكبار الذين تنفُذ بصيرتهم إلىالمستقبل البعيد، حيث تبقى كلماتهم جديدة الطعم تنبض بالحياة، تتحدى طوفان الزمن ،تبقى كلماتهم طازجة وكأن قائلهافرغ لتـوّه مـن كتابتهـا ...

ولقد صدق مَنْ قال: " إذا كنت تخاف أن تفكر فـأجدر بـك ألاّ تقـرأ جـبران الـذي أثبتـت الأيام أنه وإن كان حدثاً في العمر فإنه شيخ في تقطير حكم الحياة في كلمات.

□□

المراجع والمصادر:

١-المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، قدّم لها وأشرف على تنسيقها ميخائيل نعيمة – مكتبة صادر – بيروت ١٩٥٥.

٢- النبي – ترجمة ميخائيل نعيمة – مطبعة المناهل – بيروت – ١٩٥٦.

٣- ميخائيل نعيمة – جبران خليل جبران: حياته، أدبه، فنه، دار بيروت ودار صادر، الطبعة الأولى، بيروت١٩٣٤.

٤- جبران خليل جبران وآخرون – بلاغة العرب في المهجر، مكتبة صادر، بيروت ١٩٤٩.

٥- " الوحدة " مجلة – العدد الثاني – تشرين الثاني عام ١٩٨٤ – مقال الدكتور محيي الدين صبحي، تحية للشاعر القروي.

□

الدكتور محمد مندور (١٩٠٧ - ١٩٦٥)

" معارك من أجل الأدب للحياة!! "

إن المتابع لحركة الثقافة العربيةعامة والنقد الأدبي خاصة لابدّ سمع عن الدكتور محمد مندور أو قرأ عنه أو قرأ له ،فهو منذ بداية أربعينيات القرن العشرين وحتى منتصف الستينيات منه كان دائم الحضور في معظم جوانب الثقافة العربية، ويختلف الأمر بين أن نعرف (مندور) من كتبه وكتاباته وبين أن نتعرّف عليه مشاركاً فاعلاً إذ كان لا يغيب عن مسرحية تعرض أو فيلم جاد أومناقشة لعمل إبداعي ظهر حديثاً في الشعر أو الرواية أو القصة القصيرة أو النقد ... كان دائم الحضور كما كان دائم الكتابة والتواصل مع الناس بحيث كان القُرّاء المتابعون ينتظرون صباح كل يوم الصحف التي كان (مندور) يكتب فيهاإذ تعوّد منه الناس أن يكتب عن المسرحية التي تعرض أوالكتاب الذي يصدر أو عن موهبة جديدة واعية تحاول أن تبدأ .. وإذا لم يكن الأمر كذلك فالدكتور مندور يشترك في معركة ثقافية أو سياسية تحت غطاء ثقافي لأنه أحد المؤمنين بأن الشعوب في بداية نهضتها كما في الوطن العربي – تتعلم من الفن ونقده أضعاف ماتتعلمه بتعميق من السياسة والفلسفة كما كان أيضا أحد الذين يؤمنون– المعرفة العلمية وتأصيل المنهج العلمي ،عن طريق الفنون والآداب ومن أجل هذاوذاك خاض (مندور) معارك متعددة الجوانب إلى آخر حياته، ومن المعروف عنه أنه قال لأحد أصدقائه قبل موته بساعات: " ياأخي إلبس دروعك وتأهب لنخرج سوّياً في غزوة جديدة عظيمة ،ولنطلب هذه المرة الملك (ميداس) نفسه ذا الجعارين الذهبية الكثيرة ..." فقال صاحبه: عوفيت لكل شيء أوان اصبر حتى تسترد قواك ..".

حين غاب الرجال وشجاعتهم انتشرت أسراب الخفافيش وجيوش الهوام وخسيس الحشرات بقيادة الملك (ميداس)، تخرب المجتمع العربي توضع نقطة هذا العدو الذي يدعو (مندور) لقتاله، هو الرجعية التي قضى أنفاسه الأخيرة في ١٩ أيار (مايو) عام ١٩٦٥.، وهو يحاربها. كان أهمُّ ما في حياته محاربة الرجعية: رجعية الفكر – رجعية السياسة، ورجعية السلوك .. ,بذلك كانت حياة هذا الرجل فصلاً من كتاب الحرية العظيم في مصر الشقيقة خاصة والوطن العربي الكبير عامة، ذلك الكتاب الذي بدأ فصوله الأولى أمثال محمد

عبده، قاسم أمين، طه حسين، علي عبد الرازق .. وغيرهم من هذه الكوكبة الرائدة من أنصار التقدم والحياة ..

إن معارك(مندور) اليومية الساخنة تدعوك لمتابعته فيما يكتب وهذه تدعوك لمتابعة ماكتب في السابق، فمقالات الرجل تقود إلى كتبه وكتبه تقودك إلى الرجل فيه، وترحل مع أفكاره لتجد أنه حين ينظر إلى الجيل السابق لجيله، يجد أن هذاالجيل نجح في شيء وأخفق في اشياء، وأكبر ظواهر الإخفاق في نظره خضوع ذلك الجيل لضغط الهيئة الاجتماعية ويعترف أن امتداد الزمن بحياة المرء كثيراً ما ينتهي بـه إلى الصلح مع الحياة، يقول: إن طول العمر كثيراً ماينتهي بنا إلى الصلح مع الحياة لأن الشيوخ عادة أكثر رضىً وتفاؤلاً من الشبان الساخطين المتشائمين..

لهذا يدعو (مندور) أبناء جيله إلى التقاط الأسلحة التي ألقاها " سابقونا وأن نناضل لحرية الرأي وكرامة الفكر البشري وتقديس حقوقه غير باغين ولا معتدين ...".

وكان يرى أن نجاح أبناء جيله كان أوضح ما يكون في المجال الفني حين انتقلوا بالنثر العربي الحديث بل وبالشعر في السنوات الأخيرة من اللفظ العقيم إلى التعبير المباشر، من الصنعة إلى الحياة من (حديث عيسى بن هشام) إلى " دعاء الكروان " (ص ٩الميزان الجديد)....وهذا ماجعل (مندور) يواصل دعوته إلى أن نستبدل بقوةاللفظة قوة الروح ونفوذه .. والابتعاد عن الصنعة بأشكالها المختلفة، صنعة اللفظ وصنعة التركيب، ويدعو إلى الإهتمام بتفاصيل الحياة العادية أو كماسماه هو (فُتات الحياة) والاحتفال بالتفاصيل الحيّة(٢).

ومن أجل ذلك كانت كتب (مندور) بدءاً من كتابه النقدي الرائد (في الميزان الجديد) الذي وضع فيه أفكاره النقدية حول الهمس في الشعر ووقوفه إلى جانب " أدب المهجر " وذلك محاولة منه إدخال الأدب العربي الحديث في تيارات الأدب العالمية، من حيث موضوعاته ووسائله ومناهج دراسته ،كماحاول في هذا الكتاب أن يبين أن الذوق ليس معناه النزوات التحكمية وأن جانباً كبيراً منه ماهو إلاّ رواسب عقلية وشعورية نستطيع إبرازها إلى الضوء وتعليلها(كمايقول ص٥ من مقدمة الكتاب المذكور).

وبذلك يصبح الذوق وسيلة مشروعة من وسائل المعرفةالتي تصح لدى الغير ،كما يعرّفنا أن بعض النّقاد العرب القُدامى من أمثال (الآمدي) و(الجرجاني) قد سبقه إلى هذه الحقيقة الأمر الذي حاول إثباته في كتابه الممتاز "النقد المنهجي عند العرب " الذي درس فيه التراث النقدي العربي على ضوء نظرته النقدية،

وتابع مندور إصدار الكتب فصدر له كتاب (في الأدب و النقد)، (النقد والنقاد المعاصرون) – (مسرح شوقي) ،(مسرح الحكيم) ..

ولد (محمد مندور) عام ١٩٠٧ في محافظة الشرقية – جمهورية مصر العربية لوالد يقرأ ولا يستطيع الكتابة من أتباع المذهب الصوفي النقشبندي الذي يعني النقش على القلب).

تعلم في مدرسة ابتدائية تبعد عن قريته ستة كيلومترات يقطعها يومياً سيراً على الأقدام، وكانت المدرسة أشبه بالسجن لأن المدير يضرب طلابه بمنتهى القسوة التي شلت من شدة الخوف ملكات طلابه .

قامت ثورة ١٩١٩ و(مندور) طالب في (منيا القمح) وشاهد ذات خميس مظاهرة يقودها (البيطار) الذي يصنع حدوات الخيول .. كانت جموع الفلاحين تسير وراء (البيطار) هاتفة ضد الإنجليز .. وفجأة خرج من مركز هناك إثناعشر جندياً بريطانياً، حموا ظهورهم بالحائط ونصبوا مدافعهم الرشاشة واستقبلوا المتظاهرين العزّل برصاص استشهد معه (١٥٠) عاملاً وفلاحاً وفي طليعتهم (البيطار) قائد المظاهرة الذي يتذكر مندور، أنه رآه يركض نحو تُرعة الماء ليبرد النار التي أحرقت جسدّه حين أخترقه الرصاص ،وكثيرون فعلوا مثله وحملت مياه الترعة الجثث إلى قناطر الزقازيق.

إن (مندور) من أوائل الذي أخذوا من الديمقراطية فكرة الحرية ومن الاشتراكية فكرة تدخل الدولة في وسائل الإنتاج كي يتحقق ما نادى به الديمقراطية الاشتراكية أوالديمقراطية الاجتماعية كما كان يُسّميها رافضاً الديمقراطية الحرة – الغربية– لأنها صورة مفرغة من كل مضمون اجتماعي، ولأن هذه الديمقراطية الفارغة لا تتحدث عن الفقر حين تتحدث عن الحرية – وهو أكبر عوامل العبودية.

هاجم مندورثقافة النّخبةالتي ترى أن الثقافة(ترف) والعقل عنده لا يعرف الترف، بل هو جهد مثل كل جهد آخر يبذله الإنسان،ولا يقل أثره نفعاً ولا ضرراً عن إي إنتاج مادي .

ومنذ عام ١٩٤٤ طالب مندور بتوحيد القوانين في مصر كما طالب بتوحيد القضاء مستنكراً أن يمتد التشريع إلى ضمير الإنسان وعقيدته الفردية ،كما طالب بأن تبنى القوانين على أساس وضعي اجتماعي.

وكان من أجهر الناس صوتاً في هذه الدعوات التي كان حافزه لتطبيقها، إيمانه بكرامة الإنسان .

أثمرت هذه الدعوات – بعد عشرين عاماً – أي في ستينيات القرن العشرين، مبدأ توحيد القضاء في مصر العربية .

ماذا تعلّمت من طه حسين؟؟

يقول (مندور)، " يخيل إلي أنني تعلمت من الكتب أكثر مما تعلمت من أشخاص و أنني استفدت من عدد من الموتى القدماء أكثر مما استفدت من الأحياء الذين عاصرتهم وتتلمذت عليهم ومع ذلك فقد أفادني هؤلاء الأساتذة الفائدة الكبرى بأن وجهني كلٌّ منهم إلىناحية من نواحي الثقافة ودّلني على منابعها ،ومكنني من تذوق ثمارها وكان أداة الوصل بيني وبين أولئك الكبار القدماء الذين اغترف من معينهم..".

أنا شديد الغيرة على كبريائي أرفض دائماً أن تمسّ أو أن تفنى في كبرياء غيري، ومع ذلك فإنني اعتقد أن الدكتور طه حسين قد كان له أعظم الأثر في توجيهي وذلك لأنني كنتُ عندئذٍ لا أزال متردداً تردداً شديداً بين وحي البيئة وهوى النفس واستعدادها فبيئتي كانت توحي إليّ بأن أدرس القانون لكي أتخرج وكيلاً للنائب العام يهرول أمامه، الخفراء وجند البوليس بل والعمدة نفسه.

بينما كان السباعي وهاشم (مدرسا اللغة العربيةفي المرحلة الثانوية) غرسا في نفسي حب الأدب وتذوقه وجاء طه حسين فحل هذا الصراع الكامن في نفسي بأن أتاح لي الالتحاق بالكليتين معاً بعد أن أحسّ باستعدادي الأدبي وعنادي الريفي.. وانّني أحمد اليوم هذا الاستعداد وهذا العناد الريفي معاً وذلك لأنه إذا كانت دراسة الأدب والتخصص فيه قد نمت استعدادي وصقلت ذوقي ووسعّت من ثقافتي الأدبية فأن دراسة القانون قد وقتني شرّ البوهيمية العقلية في الأدب ونقده وعودتني الدقة والوضوح والتنظيم والنظام العقلي فيما أعالج من شؤون الأدب والثقافة الأدبية...

ولم يقف تأثير طه حسين في حياتي عند هذا التوجيه الحاسم في مستهل تكويني الثقافي، بل ظل يُلاحقني تأثيرهُ سنين طويلة في اتجاهات ثلاثة بالغة الخطورة:

الاتجاه الأول: فقد كان نحو التحرر الفكري والثقة بالنفس وكان هذا أول وأهم درس أخلاقي تعلّمته من " طه حسين".

أما الدرس الثاني الذي تلقيته عن هذا الأستاذ الكبير فقد كان التوجيه نحو الآداب الأجنبية الكبيرة وبخاصة الأدبين اليوناني القديم، والفرنسي..

وما من شك أنه لولا توجيه طه حسين لما استطعت أن أكتب بعد عودتي عند بدء الحرب العالمية الثانية رسالتي عن النقد العربي القديم وتاريخه وهي الرسالة التي نشرتها بعدئذٍ بعنوان (النقد المنهجي عند العرب) واعتبرها من أمهات كتبي.. بل لولا هذا التوجيه لما استطعت أن أؤدي الرسالة العامة التي أديتها في مجال النقد العربي.

أما الدرس الثالث الذي تعلمته من طه حسين، فهو قدرته على شرح النصوص العربية القديمة وحسن تذوقّها...

النقد عند (مندور) .. إبداع :

كان إبداع مندور في النقد نابعاً من نظرته إلى أن النقد الحقيقي هو إبداع، لأننا " سيّان أن نحسّ ونفكرونعبّر بمناسبة كتاب أو بمناسبة حادثة أومشهد إنساني ..وكل تفكير لابّد له من مثير"(٤).وهدف النقد عند(مندور)يتركز في أمرين أولهما:

أن يكون الناقد هادياً لجمهور القراء يسبقهم إلى قراءة ما يقع تحت يده من الكتب، فأن وجد فيها خيراً أظهره ودعا غيره إلى مشاطرته إيّاه، وإن لم يجد فيه شيئاً حدّث القراء عن تجربته لعلّها تفيد.

ثانيهما: أن يكون الناقد عوناً للكاتب الجديد على أن يؤدي رسالته لدى الجمهور سواء، أكان هذا الكاتب ناشئاً، ينبعث منه الأمل أم منتهياً قد وفق إلى أمر يخلف على رمال الزمن وقع أقدامه(٣).

يقول (مندور) :" أفعل ذلك وفي يقيني دائماً أن التفكير أمر شاق والتعبيرعنه أشق.. والتفكير والكتابة وسيلتنا إلى المساهمة في تجميل الحياة، حياة مواطنينا والدفاع عنها وسبيل ذلك هو الإخلاص لأنفسنا ومجتمعنا...".

لا ينسى الدكتور(محمد مندور) وصية أستاذه (.ديهاميل.) لفتاه: " لاتنس أن تعيش .. عش أولاً، عش بكل قواك ثلاثة أشهر لتكتب ثلاثة أيام واكتب ثلاثة أيام لتكتب ثلاث صفحات...."(٤).

يقول (مندور):" إلى هذا النوع من الأدب الذي تشيع فيه الحياة يتجه إيماني،بحيث لا أطمئن إلى الأدب المجرد، أدب الفكرة الذي يصدرعنه الأستاذ(توفيق الحكيم) فهو أدب سهل لأنه من السهل أن نتخذّ من اشخاص الأساطير رموزاً نحرّكها للتدليل على فكرة ما...

هذا الموقف قاد(مندور) لأن يكون ضد أدب(توفيق الحكيم)الذي لم ينهض منه شيء علىالملاحظة المباشرة..وحين يقارنه مع(بلزالك)يرى أن الأخير يفكر بحواسه بينما (الحكيم) يفكر بعقله وأنه -أي الحكيم-حين يبني نصوصه ومسرحياته يتجه إلى عالم الفكر المجرد... والحياة- لسوء الحظ- أشدّ نفوراً من أن تنطوي تحت خط من خطوط العقل...

ومن دواعي هجومه على أدب توفيق- إضافة إلى ماسبق- هو أننا بحاجة إلى ثورة مشروعة علىأدب اللفظ الذي أفسد حياتنا الروحية قروناً طويلة..

ومن أجل هذه القضايا ذاتها، خاض معركة ضارية مع " سيّد قطب " إذ حين دعا مندور إلى الشعر المهموس، من خلال حديثه عن قصيدة (أخي)(لميخائيل نعيمة) خاصة والأدب المهجري عامة عارضه(سيد قطب) قائلاً: " إن آراء مندور هذه تصدر عن شخصية مريضة، ويصفه كذلك بأنه في الأدب يصدر عن إحساس خاص بالنّساء، عندما يؤيد الميل إلى الوهن في الشعر!!

ورد (محمد مندور) على ذلك بأن المفكر الفرنسي(رينان) قد شعر بأنه عظيم الصفات عندما قالوا عنه" بأنه يفكر كرجل ويُحسّ كامرأة ويتصرف كطفل..".

وخاض كذلك معارك عنيفة ضد (عباس محمود العقاد) الذي وصف الدكتور مندور في واحدة منها، أنه (جاويش في بوليس النجدة) واغتبط (مندور) لهذه الصفة حين قال أناأقبل هذه الصفة مُغتبطاً فليس أحب إلىنفسي من نجدة الحق ضد الباطل والاعتدال ضد التطرف".

ولكن مندور ختم معاركه الطويلة مع (سيد قطب، والعقاد) بقوله:" يعصمني أن استمر في الردّ، بل تقشته عن نفسي وبربرّية لا يزال يصدر عنها الفطريون من الناس .."(٥).

وخاض (مندور) معركة عنيفة ضد الشيخ (أمين الخولي) صاحب مجلة (الأمناء) – نسبة إلى أمين !! - الذي كان أبرز الداعين إلى فرعونية مصر وعزلها عن الوطن العربي إبان كان المدّ القومي العربي في ذروته في خمسينيات وستينيات القرن العشرين .

وشنّ (مندور) كذلك معركة قاسية ضد شاعر الملوك(صالح جودت) الذي لم ينشغل يوماً بغير" سيقان الحسناوات) والذي حول مجلة " الهلال" الشهيرة في ظل رئاسته إلىمجلة البحث في السحر والوسطاء الروحانيين والخرافات كما يقول"رجاء النّقاش"(٦):" ولعل أشهر معارك (مندور) الفكرية كانت مع الدكتور(رشاد رشدي)صاحب مسرحية(لعبة الحب)التي حين عُرضت على المسرح فجّرت الخلاف بين(مندور) الناقد الواقعي –المعروف بصيحته الشهيرة:" ياويل الأدب إذا حدّه شيء غيرُ الحياة "..وبين (رشاد رشدي) الناقد البورجوازي الذي يتعامل مع الأدب باعتباره ترفاً فكرياً من منظور أن (الفنّ للفن) ولا علاقة له بالحياة كماخاض (مندور) معركة شهيرة ضد " يوسف السباعي" الكاتب الروائي المصري المعروف .

ولعل نظرة بسيطة إلى الأسماء التي خاض (مندور) معاركه ضدها تكشف أكثر موقف هذا الرجل، فكل الذين خاض معهم معاركه كانوا في صف الرجعية بهذا الشكل أو ذاك.

مندور.. من الجامعة إلى الحياة:

أُجبر (مندور) على ترك عمله كأستاذ في الجامعة حين شعر بالقيود تحد من حريته. وخسرت الجامعة استاذاً كبيراً، لتكسب الحياة الأدبية ناقداً تقدمياًكان القلب النابض بالحيوية الفكرية في الحركة الفكريةالعربية بعد جيل الرّواد...إذ أسهم بإخراج الأدب من دائرته الأكاديمية، وقرّبه من المجتمع وهاجم أولئك الذين يقولون بأن الثقافة ترف بقوله: " إن العقل لا يعرف الترف، العقل جهدٌ...وكل جهد لا يقل نفعاً عن أي إنتاج مادي.. وإنما يظلمه الظالمون لأنه غير مرئي النتاج وهذا الجهد يعمل في النفوس، وليس من شك أن العمل في النفس لا يقل قدراً عن العمل في المادة.." وعمل العقل لا يقف عند تهذيب النفس والسمو بها، بل يزيد من قدرة العطاء عندها في كافة أنواع الإنتاج.

ومندور من أوائل النّقاد العرب الذين عملوا على تأصيل المذهب الواقعي الاشتراكي في الواقع العربي .. إبداعاً ونقداً – وقد ترسخت هذه القيم عنده بعد جولة له فيما كان يُسمّى (الاتحاد السوفيتي وبلدان أوربا الشرقية) حيث تحدّث بصراحة الرجال عن لقائه بالواقعية الاشتراكية وتحوّله في مجال النقد من النقد التأثري الانطباعي إلى النقد الأيديولوجي الذي تحدث عنه في آخر كتبه (النقد والنقاد المعاصرون) كما اعترف بأن النقد تخطّى النظريات النقدية التي تلقاها عن أساتذته الفرنسيين ولكن هذاالتطور لم يلغ عند (مندور) العناصر التي يحتاجها النقد بشكل دائم ".. فقد احتفظ من مرحلته النقدية الأولى بحاسة(الذوق المدّرب)واحتفظ من المرحلة الوسطى(بالمعرفة العقلية) كأداة للتحليل، ثم أضاف إليهما في مرحلته الجديدة الالتزام الايديولوجي إزاء المجتمع "(٧).

وقد هاجم الكثيرون (مندور) لأنه كان أول مشرف على مجلة (الشرق) التي كان لها بعضُ التأثير في تشكيل الثقافة السائدة..

هذه إشارات سريعة إلى مندور الناقد الانسان الذي لم ييأس ولم ينهزم رغم الأمراض الكثيرة ومنها ضعف البصر، ورغم المعارك الضاريةالتي شنّتها رموز الرجعيّة على اصحاب الأقلام الجريئة والمواقف النبيلة في الوطنية والقومية .. رفض الرجل أن يستريح حتى يتغيّر المجتمع إلى مجتمع تسود فيه قيم العدالة والحرية والديمقراطية..

وكان آخر مقال كتبه قبل رحيله عام ١٩٦٥ حول مسرحية (الحصان) لـ(ميخائيل رومان) الكاتب المصري حذّر من الطبقة الجديدة التي يتعاظم ننفوذهاكل يوم.

وإذا كان (نيرودا) شاعر (تشيلي) العظيم قد قال: " ..... السلام عبر الشعر".. فإن(مندور) الناقد الكبير قد آمن بمايمكن أن نقوله: " نحو التقدم عبر الفن والثقافة..".

هوامش:

١- دكتور لويس عوض- الثورة والأدب- دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة١٩٦٧ .ص٧.

٢- دكتور محمد مندور- في الميزان الجديد - مكتبة نهضة مصر- القاهرة - الطبعة الثالثة ١٩٤٤ ، ص ٩٤.

٣-المصدر نفسه ص١٠ .

٤- المصدر نفسه ، الصفحة ذاتها.

٥- المصدر نفسه ص١٨ .

٦- المصدر نفسه ص٩٧ .

٧- رجاء النقاش، كتاب العربي الثالث - ص ١٣٦ .

٨- دكتور غالي شكري- الناقد المنهج. ص٤٢

٩- دكتور محمد مندور- معارك أدبية -دار نهضة مصر للطباعة والنشر القاهرة. د/تا.

المراجع والمصادر:

- دكتور محمد مندور - النقد والنّقاد المعاصرون- مكتبة نهضة مصر- القاهرة -دون تاريخ.
- -دكتور غالي شكري - سوسيولوجيا النقد العربي الحديث- دار الطليعة بيروت، الطبعة الأولى، كانون الأول ١٩٨١ .
- - دكتور محمد مندور- النقد المنهجي عند العرب- مطبعة نهضة مصر،القاهرة، ط١، ١٩٤٨ .
- - دكتور محمد مندور- في الأدب والنقد- مكتبة نهضة مصر، القاهرة، د/تا.
- -دكتور محمد مندور، الأدب ومذاهبه، مكتبة نهضة مصر، الطبعة الثانية، ١٩٥٧ .

طـه حسين: (١٨٨٩-١٩٧٣)

" حقّ الإنسان في العلم والحرّية "

ضوء من " الأيام"..

"...وكذلك قضي على الفتى أن يستقبل طلبه العلم في الأزهر، والجامعة المصرية،والجامعة الفرنسية بكلمة عن آفته تلك، توذي نفسه، وتفرض عليه ليلةً ساهرة،ثم يعرض عنها بعد ذلك لأنه لم يكن بدّاً ممّا ليس منه بُدّ وما أكثر ماذكر بيت أبي العلاء.

وهل يأبق الإنسان من مُلك ربّه فيخرجَ من أرض له وسماء؟!.

وما أسرع ماكان الفتى ينسى هذه الكلمات المؤذية بعد أن يشتري هذا النسيان بليلة ينفقها مُسّهداً محزوناً! ثم يُقبل بعد ذلك على مالم يكن بدٌّ من الإقبال عليه من العلم في الأزهر، وفي الجامعة المصرية وفي جامعات فرنسا "..(١).

...

لا نعرف إذا كان هناك اثنان يختلفان حول الأهمية الاستثنائية للدكتور طه حسين في فكرنا العربي الحديث سواء كان المرءُ معه أم ضدّه . طه حسين الرجل الذي ولد عام ١٨٨٩، وتوفي في تشرين الأول (اكتوبر)من عام ١٩٧٣عن أربعة وثمانين عاماً.

تجلى نضجُ الفتى طه حسين منذ الطفولة قبل أن يفقد بصره في حوالي السنة الرابعة من عمره.. تجلّى هذا النضج أكثر عندما دخل الأزهر عام ١٩٠٢م،إذ ضاق عقل الفتى بطرق الأزهر في التلقين آنذاك فراح يسأل ويلح في السؤال،وتحول السؤال إلى تمرّد، وجعله يخرج من الأزهر لأنه طالب بإصلاحه والعودة به إلى ايامه الزاهرة.

ترك الأزهر ليلتحق بالجامعة المصرية التي افتتحت لتوها عام ١٩٠٨م، وتقبّلته طالباً منتسباً.. سار يسمع في الجامعة غير ماتعود أن يسمع في الأزهر، علوماً عصريّة،وتفتحّت مواهبه..

وبعد فترة شعر أن الجامعة الوليدة ضاقت عن تطلعه وطموحه وابتعد به الخيال إلى (باريس)في بعثةٍ عن طريق الجامعة وماأكثر العقبات التي وُضعت في وجهه، ولكنه صمد لكل التحديات واستطاع أن يكون أول طالب يتخرج من الجامعة بحصوله على شهادة علمية – دكتوراه– حضّرها وقدّمها دون إشراف من أستاذ عام ١٩١٤، تحت عنوان " تجديد ذكرى أبي العلاء".

تحقق حلمه ليسافر إلى باريس مع أخيه واشتدت عليه الصعوبات، واختلف مع أخيه وافترقا، ولكنه أحسَّ بأنه حقّق شيئاً عظيماً بوصوله إلى فرنسا، لتبدأ هناك المرحلة الأهم من حياة الفتى الذي وجد في باريس العلم والثقافة والتفتح، وُالتقى إضافة إلى ذلك الزميلة والمدرسةالفرنسية(سوزان)عام١٩١٧، الفتاة التي كان لهامن عمق الفكر وسعة الثقافة وما أهلّهاالإدراك المهمة التي شعرت أن الرجل يضعها أمامه في المستقبل مهمة إيقاظ العقول – كما ظهرت بعدئذٍ في معظم كتاباته.

طه حسين لم يكن قد أنهى مرحلة اليفاعة حين شرع يكتب في الصحف ضد الرجعيين، واساليب التلقين البالية في التعليم وكان أول ما هدف إلى تحطيمه هو التقاليد، وليس صُدفة أن نجد (السياج) رمز التقاليد في الصفحات الأولى من كتابه الشهير [الأيام] (١) الذي كان مع كتابه الآخرعن الشعر (الجاهلي) تعبيراً عن مرحلة التحدّي التي عاشها طه حسين منذ أول الشباب . لقد تبّدى القلق والتحدي عنده عندماارتحل من الصعيد إلى الأزهر ثم تركه ليلتحق بالجامعة المصريةدارساً آنذاك، ثم يتركها كي يعود إليها، بعد رحلته إلىباريس محاضراً فعميداً فرئيساً بعد أن قضى ثلاثين عاماً من حياته تلميذاً طالباً للعلم ليقضي بعدها ثلاثة وثلاثين عاماً بين أستاذ في الجامعة أو عميد لكليّة الآداب، أو وزير معارف أو رئيس تحرير لصحيفة مشهورة وبعدها عاش حوالي عشرين عاماً فيمايشبه العزلة ليكتب بقية [الأيام].

قال (جان جاك روسو): " أحسستُ قبل أن أفكر" وجاء طه حسين ليقول: " تألمت قبل أن أفكر " .. في البدء كان الألم عند طه حسين وجاء الفكرعنده ليقهر الألم لأنه آمن منذ بداية حياته أن الفكريبدّد الألم، ويذلل العقبات، وكان يقول علىغرار أستاذه (ديكارت): " أنا أتألم إذن أنا موجود" لكن ثقته العميقة بنفسه قادته إلى قهر الألم، كما قادته إلى أن يُقارن نفسه بشواطئ النيل الرطبة التي حين يُضغط عليها تنبع ماءً.. ولم يكن الألم عنده وليد ثقافة تأثر بهاوإنّما كان حياة يعيشها، ابتداءً من فقد البصر المبكر والصراع ضد التقاليد (السياج) ثم الصراع مع الأزهر ثم أله –وهوالريفي البسيط فاقد البصر – في التأقلم مع أجواء جامعةالسوربون في باريس، وقاده هذاالصراع مع الألم والانتصار عليه إلى موقع لا يبلغه إلاّ القليلون، موقع الرجل الذي يفكر ويطبق ما يفكر به، يأتي بنظرية ثم يُبدع في تطبيقها.

لقد كان شعوره بالألم الناتج عن ظلم القدر، وظلم المجتمع حاداً، ولكنه أدرك أن قدرته على العطاء مرهونة بسلامة الإدراك لذلك مارس على نفسه ضبطاًعظيما فرّوضها وانتصر عليها، لأنه كان يعرف أن الانتصار في الحياة لايتم إلاّ عن طريق الانتصار على النفس.

إن كتابه الرائد(الأيام) يُعطيناصورة عن صراعه مع الألم، لأنه يلخص لنا سيرة حياة إنسان غالب مافي ذاته من عوائق وانتصر عليها، وصارع ما حوله من شروط مُعيقة وانتصر، ونتعلم منه أن الظروف قابلة لأن تتبدّل لصالح الإنسان بالعمل والدأب والصدق مع الذات.

إن طه حسين صارعظيماً رغم فقدان البصر بالإرادة والعمل والتصميم، ولم يتذمر من حياته بتأافف ويندب حظّه العاثرلأنه " كان مع نفسه حين يشقى في سبيل مايرى أنه الحق ويثور ضدها إذا شعر أنّها صانعت أوداجت أو جهرت بغير ما تؤمن به ،أو آثرت رضى الناس على رضى الضّمّير"(٣).

طه حسين الرائد:

كان طه حسين أول من حصل على إجازة علمية من جامعة عربيةحضرها ليتقدم بها بنفسه دون إشراف من أستاذ ونوقشت بين يدي الجمهور عام ١٩١٤ وأوفدته الجامعة المصرية إلى باريس في العام نفسه مكافأة له علىاجتهاده في تحضير رسالته عن أبي العلاء المعري،" تجديد ذكرى أبي العلاء "

وكان في باريس أول من اكتشف من العرب جوانب العظمة عند العلامة العربي - ابن خلدون- عندما حضّر رسالة للدكتوراه باللغة الفرنسية عن " الفلسفة الاجتماعيةعند ابن خلدون" تحت إشراف عالم الاجتماع الفرنسي الشهير: دوركهايم.

وكان أول من ناقش قضية الشعر الجاهلي عام ١٩٢٦م مُطبقاً منهج (ديكارت)القائم على الشك والذي أثر كثيراً على طه حسين وأثار كتابه عن الشعر الجاهلي ضجةً هائلة انتقلت إلى مجلس النواب ورُفعت ضده القضايا في المحاكم ومُنع الكتاب من البيع!!

وكان أول المفكرين الذين وقفوا ضد رئيس الوزراء الطاغي – صدقي– الذي أحال طه حسين ظلما علىالتقاعد ولكن ذلك لم يقعده فمارس العمل كاتباً في الصحف

وكان أول من طبق شعاره المشهور الذي طرحه عندما تولى وزارة المعارف: " التعليم ضروري للناس ضرورة الماء والهواء"، حين قرّر مجانية التعليم ،وحاول تطبيق مجانية التعليم الجامعي لكن الملك رفض ذلك ... -وحول الكثير من الكتاتيب - وهي المدارس الديّنية -إلى مدارس ابتدائية،وافتتح آلافاً من الصّفوف لينشر التعليم بين أبناء الشعب

الكادح.. وماكان أصدق مجلة " الطليعة" المصرية حين تحدثت عن أثر طه حسين في المثقفين من الشعب العربي في مصر فقالت: " إنَّ في أعناق المثقفين المصريين ديناً ثقيلاً لطه حسين فمامنهم إلاّ واستمد من نور عقله قبساً، بل إن أجيالاً بكاملها كان يمكن أن تنفق حياتها من غيرجدوى لولا إيمان هذا الرجل العظيم بحق الإنسان في العلم والحرية.))

كان طه حسين أول من كتب في السيرة الذاتية كتاب [الأيام] الذي يمثل ظاهرة غيرمألوفة في الأدب العربي الحديث الأمر الذي جعل الدكتُور " حُسام الخطيب " يعتبر كتاب الأيام" ثمرة مبكرة نضجت قبل موسمها المتوقع" إذ حين صدر كتاب -الأيام- عام ١٩٢٦ كان الطارق الأول لهذا الفن في أدبنا العربي وتنبع أهمِّية هذا الكتاب من أنه يقّدم لنا الإنسان- التجربة الإنسانية في مواجهة الشرط الاجتماعي، ومحاولة تغييره لصالحها،فخرج بذلك عن كونه تجربة شخصية ليأخذ بعداً إنسانياً شاملاً.

وكان طه حسين من أوائل المفكرين العرب الذين ربطوا بين حرية الأدَب وحريّة الأديب، وقالوا: إنّ الأدب ظاهرة اجتماعية كما أن الإنسان نفسه ظاهرة اجتماعية وان الأديب لا يُحسّ ولا يشعر ولا يفكر لنفسه فقط، وأنّما يحس ويشعر ويفكر للناس... وهومن الذين آمنوا بالعلاقة الوثيقة بين الثورات والآداب لأن الفنان عنده يتحسّس القهر والظلم قبل غيره.

وتحدث كذلك عن الظلم باعتباره مصدر التفاوت بين الناس إن رُفع عنهم، سادت المساواة ،ذلك لأن الخيرات التي تنتجها الأرض وتنتجها الحضارة لا يمكن أن تتفاوت حظوظ الناس فيها إلاّ إذا كان الظلم مصدر هذا التفاوت فإذا ظفر -زيد- بالغنى فلا بدَّ أن يضطر - عمرو- إلى الفقر.. والسبيل إلى المساواة أن يُؤخذ من الغني وأن يُرد على الفقير حتى لاتكون بينهما هذه الفروق

وفي تقييم هذه الأعمال الرائدة لطه حسين نستعين برأي طرحه عام ١٩٥٠وهو يستقبل (محمود تيمور) عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة،ونرى أن هذاالذي قاله في محمود تيمور ينطبق عليه أكثر مما ينطبق على المعني به ،قال طه حسين:" وسبقت إلى شيء لاأعرف أن أحداً شاركك فيه في الشرق العربي إلى الآن ،وإذا ذهب أحد مذهبك أو جاء أحدٌ فيما بعدُ بخير مماجئت به فلن يستطيع أن يتفوق عليك لأنك فتحت له الباب، ومهدت له الطريق وأتحت له أن ينتج وأن يمتاز وأن يتفوق".

كما كان - مكسيم غوركي- أول مسؤول عن تنظيم دار الأدب العالمي للنشر في الاتحاد السوفييتي - حين كان اتحاداً - حيث جمع فيه البارزين لترجمة النتاجات الأدبية العالمية القيمة ....كذلك فعل " طه حسين"عندما كان المشرف علىترجمة إبداعات الفكر الإنساني

،إلى اللغة العربيةلوضعها بين يدي القراء العرب،وإذا كان مكسيم غوركي لم يتحول إلى قيمة تاريخية فقط بل استمر قيمةً سارية المفعول تؤثر إلى الآن بماطرحه في أبداعه.فإن طه حسين كذلك مازال قيمة سارية المفعول من خلال مواقفه التي نشعر بحاجتنا إليها في كثير من شؤون حياتنا في الوطن العربي ،وربّماأصبح طه حسين الفكر قيمة تنتمي إلى التاريخ ،ولكن طه حسين المواقف مازال قيمة مستمرة العطاء نتّعلم منها الكثير لأن مواقفه عبر حياته كانت في مجموعها دعوة تمرد على ألوان العبوديات التي صاغتها قيم المجتمع سواء على مستوى حياة الفرد أو الجماعة .. وقد يخالفه المرءُ أو يتفق معه لكنه يظل يرى نبتة الثورة على قلمه، ووقفه الخروج علىالتحنيط ومحاولة تجاوزه كماتقول(الدكتورة) نجاح العطار في مجلة المعرفة في العدد (١٥٥) كانون الثاني لعام ١٩٧٥.... ثم علينا أن نتذكر أن مثل هذه المواقف الآن لم تعد تحتاج ماكانت تحتاجه في مرحلة طه حسين.

قال طه حسين يوماً: " ما أبعدني عن هذا الاطمئنان الذي يُتيح لي تذكر الماضي أنا ذلك الرجل المقذوف باستمرار إلى أبعد، ولا يمكنني التّوقف ولا الاستقرار..".

ولعل هذا القول يمثل أحد المفاتيح الهامة في دراسة هذا الرجل والمفتاح هو: العلاقة السيئة مع كل شيء جامد بدءاً بأسلوب التلقين في التعليم وانتهاءاً بالسلطة المستبدة.

هذا المنفي خلف جدار فقدان البصر الرهيب، يصرُّ على التحدي والمجابهة حتى تتجاوز دعوته إلى التحرر مصر وتنتشر في الوطن العربي دعوة يتصل فيها العلم بالعمل لأن صاحبها رجل ثقافة مُقاتل كان العلم عنده هو الشجرة والعمل هو الثمرة...ولأن موقفه من الحياة كما لخصّه في إيجاز بالغ في أحد مقالاته هو- حبٌّ للمعرفة وصبر علىالمكروه- ظل يغذي هذا الموقف بسلوكه ومواقفه ،فحب المعرفة هذا لا يطفئه اكتساب العلم وإنمايزيده قوّة وشدةً ،وإذا كانت حاجةُ مَن عاش لا تنقضي، فحاجة من ذاق المعرفة للمعرفة أشدّ الحاجات إغراءً بالاستزادة، وهذا الظمأ الشديد للمعرفة وإدراك قيمتها في تقدم الشعوب،جعل طه حسين بطل تحديث التعليم في مصر العربية ثم في الوطن العربي بعد ذلك.

العلم من أجل كل الناس

اقترن اسم طه حسين في تاريخ مصربانه أبو مجانّية التعليم وبانه أبو الجامعات فهو الذي أنشأ جامعةالإسكندرية عام ١٩٤٤ وأنشأ جامعة عين شمس أثناء توليه الوزارة عام ١٩٥٠ووضع نواة جامعة (أسيوط) وهو الذي وحدّ التعليم في مرحلته الابتدائية فحوّل كتاتيب القرون الوسطى إلى مدارس ابتدائية،تعلّم فيها مبادئ العلوم الحديثة،وخلال عامين من توليه وزارة المعارف ١٩٥٠-١٩٥٢بلور اتجاهه بإنصاف - المعذبين في الأرض- في سلسلة

من التشريعات الديمقراطيةكان أهمها: مجانية التعليم،وتقرير تغذية التلاميذ في المدارس على نفقة الدولة، كماكان منذ ثلاثينات هذا القرن وراء تحويل المدارس العليا للزراعة والتجارة والطب البيطري إلى كلّيات جامعية. وإدماجها في جامعة القاهرة – الجامعة المصرية يومئذٍ فاستحدث ثورة ونسف لغماً ضد الرجعية التعليمية التي ربطت التعليم باحتياجات الرجعية والتي يسوؤها أن يتعلم المواطنون وأن يفكروا تفكيراً حراً...!

وإذا كان طه حسين من أوائل الذين فجروا الصراع بين ديمقراطية التعليم ورأسمالية التعليم فإن ذلك في الحقيقة كان صراعاً سياسياً بين الذين يريدون التعليم من أجل الجماهير سلاحاً بيدها لتغيير واقعها ،وبين أولئك الذين يريدون لأبناء الشعب أن يكونوا مجرد آلات جاهلة تخدم الإنتاج العائد للرأسماليين والاقطاعيين.

مواقف في حياة طه حسين :

احتج على أساليب التلقين في الأزهر فخرج منه لأنه طالب بإصلاحه وحرم من النجاح على أثر ذلك كما حرم من الحصول على الشهادة . في عام ١٩٢٨انتخب عميداً لكلية الآداب ثم أعيد إليهاعام ١٩٣٠وطلب إليه رئيس الوزراء آنذاك أن يكون رئيس تحرير جريدته فرفض وأحاله إلى وزارة المعارف... وامتنع طه حسين عن العمل وشنّ حملة صحفية وقفت فيها الجامعة إلى جانبه واستمر طغيان رئيس الوزراء " اسماعيل صدقي " -وأحاله على التقاعد !!.

بينما كان طه حسين أستاذا في الجامعة – كان أستاذه وصديقه " أحمد لطفي السيد " مديراً لها،نشأ بينهما خلاف حول مجّانية التعليم الجامعي لأبناء الأساتذة فقال مدير الجامعة: عندمايدخل " مؤنس بن طه حسين " الجامعة سنمنحه المجانية ؟! ردّ طه حسين على الفور: أنالا أقصد نفسي وإنماأريده مَبدأ عاماً .:. ثم أعلن استقالته من الجامعة.

رفض طه حسين عميد كلية الآداب منح درجة الدكتوراة الفخرية لبعض الساسة مجاملةً لهم ممن حولهم ولم يذعن لتعليمات وزير المعارف -عيسى حلمي – الذي وصفه العميد بأقذع الأوصاف وصدر قرار الجامعة بنقله منها، واحتج أستاذه لطفي السيد واستقال من إدارة الجامعة تضامناً مع طه حسين.

حين كان طه حسين عميداً لكليةالآداب زار الملك (فؤاد) الجامعة ومعه رئيس وزرائه (اسماعيل صدقي) ووزير المعارف (عيسى حلمي) وكان من عادة الملك أن يستمع إلى بعض المحاضرات وقد نبّه طه حسين الأساتذة ألاّ يغيروا شيئاً من البرنامج وصادف أن كان موضوع إحدى المحاضرات(تطور الدستور الانجليزي) ففهم الملك أن هذا تعريضٌ به، لأنه

كان قد عطل الدستور ،ولمّا سأل قال له وزير معارفه: " هذا من تدبير طـه حسـين " ؟! ... كان ذلك يوم السبت ويوم الخميس صدر قانون وزاري بنقله من الجامعة – ولمّا رفـض تنفيـذ القرار – يقول طه حسين: فقلتُ له: " طلبني رئيـس الـوزراء وقـال لي: لمـاذا لا تنفـذ قـرار الوزير ؟ فقلت له: إنه (...) ولا أحب أن أتعامل معه ... ثم صدر قرار إحالتي على المعاش حدث ذلك في عهد الملك (فؤاد) الذي أشيع عنه أنه كان يؤمن بالعلم والتطور لأنه قال لطه حسين حين استقبله في الثلاثينات: أرجـو ألا تصبح شـهادة الليسـانس شـهادة طـلاق بـين طلاب الجامعة وبين العلم .

أما الملك(فاروق) فحين استقبل طه حسين على مضض في أوائل الخمسينات قال لـه: أرجو أن تكون قد تخليت عن يساريتك بعد أن أصبحت وزيراً !! أنا لا أريد منك يا دكتـور طه الكلام الفارغ الذي تحدث به الناس وتكتبـه في الجرائـد!!. يقـول طـه حسـين: لزمـت الصمـت.. وكـان ردّي عليـه بعـد ذلـك بيـوم واحـد أن أعلنـت مجانيـة التعليـم الابتدائـي والثانوي،ولـما أردت إعـلان مجانيـة التعليـم الجـامعي رفـض الملـك وقـال لرئيـس وزرائـه (النحاس) إن طه حسين يريد أن يجعل البلد اشتراكية؟!.

طه حسين الذي استطاع أن يكون عصارة طيبة لمعهدين مختلفين: الأزهر والسوربون أو الحضارة العربيةالاسلامية والحضارة الغربية وامتدت حياته من أواخر القرن التاسع عشر عام ١٨٨٩م حتى أوائل الربع الرابع مـن القـرن العشـرين ١٩٧٣م.. لكـن الحلقةالمشرقة في هـذه الحياة امتدت لأكثر من ثلاثين عاماًكانت بين ثورتي ١٩١٩ و١٩٥٢ وبعد هذا الاشراق وقـف في أواخر عمره ضد تجديد طلابه الذين ربّاهم على قيم احترام العقل ،وتدريب الفكر وتنميـة الشك في كل قديم حتى تثبت صحته، وذلك حين وصـف الأدب الجديـد بأنـه " يونـاني لا يقرأ " الأمر الذي قاده إلى صراع مع طلابه وقف فيه المجدد القديم طه حسين ضد التجديـد وليس هذا غريباً في كثير من الحالات ولعل الرجل علـى أهميتـه لم يرتفـع إلىمستوى أعظـم المتازين الذين عناهم (برناردشو) حين قـال: إن جميـع المتـازين يـدؤوا حيـاتهم ثـائرين وأ- ثم هؤلاء المتازين يزدادون ثورة كلما تقدموا في السن "... ويمكن القول هنا: إن اسـتمرار القدرة على التجديد حتى آخر العمر صفة لا يتمتع بها إلاّ القلـة القليلـة مـن بـني البشـر .. ولكن هل موقف طه حسين ضد التجديد في بدايـة السـتينيات مـن هـذا القرن يُلغـي القيمـة التاريخية له ؟ هذه القيمة التي نرى أنها سوف تظل ساريةً ،رغم موقفه هـذا إذ مـن المؤكـد أن الكثير من نواحي التجديد، ماكانت لتحدث في الوقت الذي حدثت فيه لـولا وجـود طـه حسين هذا الرائد العظيم، حين عمّم التعليم ونشـط الترجمـة ودعـا للأخـذ بالمنـاهج العلميـة الحديثـة في الدراسـة ،وبذلـك كـان حلقـةً مشـرقةً في الدعـوة للإيمـان بقيمـة العلـم في

حياةالشعوب، وتقديس حق الشعوب في الحرية،بحيث كان معلماً للأجيال التي جاءت بعده.

ولعل وقوف طه حسين ضد التجديد يمثل سلوكاً اجتماعياً دون أن يمثل سلوكاً فكريا،والسلوك الاجتماعي يتأخر صفاؤه دائماً عن السلوك الفكري المجرد كما يقول (حنا مينة) في كتابه (هواجس في التجربة الروائية،ص ٢٧).

إذ منذ المعركة الضارية ضد كتابه عن (الشعر الجاهلي) صار طه حسين يميل إلى أن يكون (ثائراً) في الفكر (عاقلاً) في قضايا السياسة والمجتمع!.

هذه المواقف من طه حسين ضد التجديد لا تمنع الرؤية العلمية الموضوعية له من تلاميذه فهذا أحد المجددين الشاعر (صلاح عبد الصبور) يقول في كتاب له بعنوان (ماذا يبقى منهم للتاريخ؟!) ص ٣١-: لست أغالي إذا قلت إن من عاشوا بين عامي ١٩٢٠و١٩٥٠يستطيعون أن يقولوا انهم عاشوا في عصر طه حسين كما يقول الناس أنهم عاشوا في عصر شكسبير أو في أيام فولتير .. وهذا أحد تلاميذ طه حسين الذي أصبح فيما بعد من الكتاب المشهورين (الدكتور عبد الكريم الأشتر) يقول: كنا نعشق في كل أستاذ صفة" في أحمد أمين الوضوح والعمق ،وفي أمين الخولي القدرة على الإثارة والآراء المتجددة، وفي عبد الرحمن عزام نقاء عروبته ورعايته للطلبة العرب ولكننا كنا نلتقي جميعاً هذا اللقاء العفوي في ظلال هذه الشخصية الأسرة لا يكاد يفلت من أسرها أحد (طه حسين) شخصيةتمثل في عقولناوقلوبنا هذاالحضور الدائم الذي لا يغيب والمكانة الرفيعة التي لا تتأخر، والعطاء الخصب الذي لا يدانيه عطاء إن وجوده المعنوي كان يسبق حضوره المادي...."(٤).

إن طه حسين رجل المجابهة والتحدي مستمر في الذاكرة ،لأن العقبات حتى ولو كانت كفّ البصر، لم تقف أمام إرادته في صنع نفسه ليُصبح مثلاً رائعاً للظامئ الذي لايرتوي من المعرفة المقرونة بالعمل.

وإذا جئناإلى طه حسين لنرى ما نريد أن نراه فاننا بذلك نظلمه وإذا جئنا إليه وفي أنفسنامواقف مسبقة جاهزة نبحث عنها فإنناتتجنى عليه لأنه عمل وناضل في زمن غير زمننا الحاضر .

□□

هوامش :

١- دكتور طه حسين (الأيام) طبع دار المعارف بمصر ج(٣) ص٣٢.

٢- دكتور طه حسين (الأيام) ج١ ، ص٤.

٣-الأيام، ج٣- طبعة دار المعارف بمصر، ص ١٦٤- ١٦٥.

٤- دكتور عبد الكريم الأشتر - رجال رأيتهم يعبرون حياة الجيل، مقال في جريدة البعث، ١٩٨٣/١١/٢٢.

المراجع والمصادر:

• دكتور لويس عوض - الحرية ونقد الحرية- الهيئة العامة للتأليف والنشر عام ١٩٧١.

• فتحي العشري - الإنسان كلمة- الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة ١٩٨٨.

• دكتور لويس عوض - دراسات في أدبنا الحديث - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٦١.

• مئوية طه حسين، عدد خاص من مجلة أدب ونقد رقم (٥٣) كانون الأول عام ١٩٨٩.

• قضايا وشهادات رقم (١) كتاب دوري ثقافي بعنوان طه حسين.

□



الباب الثاني: من أعلام الغرب

الفصل الأول

أعلام قدماء



سقراط أول شهداء حرية الفكر

(٤٧٨ - ٣٩٩ ق.م)

" اعرف نفسك بنفسك " حكمة قديمة نقشهاالقدماء علىباب معبد دلفي اليوناني .. من هذه الحكمة انطلق سقراط الذي نشأ بينما كانت أثيناتعيش أسوأ أحوالها .. لم يكن من أسرة متوسطة وإنماكان من الطبقة الدنياكان أبوه حفاراً وكانت أمّه قابلة.. لم يكن جميل الطلعة بل كان قبيح المنظر ممقوت الشكل ولكنه ذكي القلب نافذ البصيرة شديد الفطنة، درس الناس حوله .. ولكن ماإن بلغ سن الرجولة حتى أحس أن مافي نفسه يخالف مافي أنفس الاثينيين وأن له ميولاً تخالف ميولهم وأخذ يحاور من حوله ولكن ذلك لم يصرفه عن واجباته الوطنية يشترك في الانتخابات ويجلس في جماعة الشعب وعندما انتخب في مجلس الشورى رأس جماعة الشعب ،واشترك في الحرب غير مرّة، وأظهر فيها شجاعة وتضحية بالنفس .

إن طريقة سقراط في الحوار جعلت الشبان يميلون إليه، لم يكن له مدرسة وإنماكان هو نفسه مدرسة مُنتقلة يحاور في الميادين العامة في الملاعب الرياضية. كان حسن الدعابة حيث لم يكن حواره إلاّ دعابة متصلة وهزلاً مستمراً يخفيان تحتهما الحق والجد ولم يكن له موضوع بعينه يدرسه ويحاور فيه، كما لم يحاول أن يلتمس من محاوراته مجداً ولا كسباً ،بل كان يفر منهما كأنهما وباء.

رسالة سقراط :

" إن الحياة بغير بحث ليست جديرة بالإنسان ،هكذا جعل سقراط شعار حياته لأنه كمايصف نفسه مُحباً للحكمة وليس حكيماً .. وحين تمكن من نفسه طلع إلى الاثنينيين يعلمهم بارتياد الأسواق يتحدث مع كل الناس لا يكترث بحال محدّثه غنيّاً كان أم فقيراً شاباً أم شيخاً وخصص وقته لتحقيق الرسالة التي كان يعتقد أنه وجد من أجلهاوهي أن يكون حافزاً للشعب الأثيني يحمله علىالخير ،ويدفعه إلى التمسك بالعدالة.. ومن أجل هذه الرسالة أهمل سقراط شؤون منزله وأغفل أعماله الخاصة وازدرى المناصب وخصص وقته لإيقاظ الناس من نومهم وإبعادهم عن التقاليد البالية، وخاصة إن إيمان اليونانيين أخذ

يضعف تدريجياً بالآلهة كلما ارتقى تفكيرهم واستنارت عقولهم نتيجة لتغـيّر نظـرة المفكريـن والأدباء نحو هذه الآلهة، بدءاً من القـرن السـادس قبـل الميـلاد فبعدهجـوم دام طويـلاً علـى الآلهة نادى (جوراس) بأن (العقل سيد كل شيء) فلا يجب احـترام غـيره،وتبعـه سـقراط زعيم الفكر الفلسفي في حملةعنيفة علىالآلهة المتعـددة ،وأخـذ يُعلـم الأثينيـين فكـرة الإلـه الواحد، واعتبروه لذلك خارجاً على آلهة المدينة وكانت هذه واحدة من التهم التي أعدم من أجلها ولكن إعدامه لم يمنع المفكرين والأدباء من بعده أن يُتابعوا مابدأه.

الفلسفة .. من أجل الإنسان

قال (شيشرون) .."إن سقراط أول من أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض لأنه يؤمن أن لا خير في معرفة تهمل الإنسان لتُعنى بالطبيعة "(١).

ولا قيمة لأي علم مالم يتمحور حول الإنسان وقضاياه .. فعل ذلك في الوقت الذي كان الفلاسفة قبله يبحثون في أمور الطبيعة الخارجية في قوانـين العـالم القابلـة للقيـاس .. وجـاء سقراط لينادي بأن الفلسفة الحقيقية هي البحث عن ذات الإنسان وعن كنُه نفسه، ولقد علق على نظريات الذين سبقوه بقوله: هذا الأمر حسنٌ جداً ولكن هناك بالنسبة للفلاسفة موضوعاً أهم من البحث في ماهيّة الأشـجار والكواكـب والنجـوم .. وهوالراهـن البشـري .. ومـن هـو الإنسان؟ ومالذي يستطيع أن يؤول إليه..؟؟ من هذا الموقع الفكـري الواقعـي انطلـق سـقراط لسبر أغوار النفس البشرية.

منهج سقراط ألّب الحاقدين عليه

لقد بهر سقراط مستمعيه بحديثه البسيط البليغ في الوقـت ذاتـه، وقدرتـه علـى كشـف أخطاء الخصم، لأنه عاصر السوفسطائيين وأخـذ بعـض أسـاليبهم فعـرض أراءه علـى شـكل محاورات ليقول: ان مهّمة الفلسفة ليست النظر إلى الطبيعة... بل تعليمناكيف نعيـش، لأن المعرفةالحقّة عنده تنطلق من معرفة الانسان، وقد طابق سقراط بين الفضيلة والمعرفـةوعنده أن جميع الأعمال السيئة تعود إلى الجهل وأما الفضيلـة فتعـود إلى المعرفـة، وقـد كـانت نظرتـه العقلانية الواقعية هذه حول المعرفة مثار دهشة معاصريه لأنهم اعتادوا غيرها..

اتبع سقراط في حديثـه مـع النـاس منهجـاً جديـداً في البحـث كـان يتصنـع الجهـل، ويتظاهر بأنه يُسَلم بكلام محدثه، ثم يُلقي عليه الأسئلة ويشككه فيما يقول، ومن ثـم يوقعـه في التناقض وحين يصل بمحدثه إلى أن يشعر بجهله، يولد لديـه، الاسـتعداد للمعرفـة وهنـا يأتي دور سقراط (المعلم) في توصيل تلميذه إلى المعرفة التي يبتغيها له .. وقد أثـار منهجـه هذا الإعجاب البـالغ والعـداوة الشـديدة في آن واحـد أقبـل عليـه الشـباب وكرهـه الخطبـاء

والشعراء والسياسيون لأنه كشف أمرهم وجعل البعض منهم سخرية للناس وكان أول الذين هاجموه الشاعر الهزلي (أرستو فانس) الذي كان رجعياً يمقت حريةالفكر وينفر من كلّ تجديد واعتبر سقراط من السفسطائيين وشنّ عليه هجوماً في مسرحيته (السّحب) حيث صوره تصويراً مضحكاً،ونادى في آخر مسرحيته بأن العدالة تتطلب حرق سقراط وتلاميذه ومدرسته ... كلّ هذا يُضاف إليه منهج سقراط في البحث وعداوته للحروب الظالمة عندما كان عضواً في مجلس الشيوخ ... قد ألّب عليه رجال السياسة والرأسماليين الذي أثروامن تجارة السلاح..لقد هاجم هذه الفئات بقوله : " يدهشني تماماً راعي الغنم الذي لا يعترف بجرمه عندما يذبح جزءاً من قطيعه ويترك الجزء الباقي للموت جوعاً، كما يدهشني أكثر الحاكم الذي يُلقي بنصف شعبه إلىالهلاك ويستغل النصف الآخر ثم لا يخجل من نفسه ولا يعترف بذنبه ..." (٢).

هذا الموقف الشجاع جعل كبار الحاقدين يطالبون بالانتقام من سقراط حين زعم أحدهم أنه أفسد له ابنه عندما كان تلميذاً عنده، ونجح هؤلاء الأعداء جميعاً في تقديم سقراط للمحاكمة عام ٣٩٩ق.م .... وبعد محاكمة صورية صدر الحكم بإعدام سقراط في فترة الحج عند اليونانيين وكانت العادة أن لا يُنفذ حكم الموت أثناء هذا العيد ولذلك كان علىسقراط أن ينتظر في السجن حتى تنتهي فترة الحج،وكان أصحابه وتلاميذه يختلفون عليه بالسجن كلّ يوم وكانوا يزينون له الفرار من سجنه ولكنه رفض لأسباب سيذكرها عند مرافعته ضد أعدائه حين طالبت المحكمة سقراط أن يُدافع عن نفسه بعد الحكم عليه بالإعدام بدأ بالاعتذار عن أسلوبه الذي لا زخرف فيه، وقال انه لايحب البلاغة ،ولا يعرف أبلغ من الحق ،وأخذ يُفند مزاعم (أرستوفانس) في أنه يتقاضى أجراً عن التّعليم، وأنه يُفسد الشباب....

أما عن إفساد الشباب فإنهم يأتون بمحض إرادتهم.... وعن أجر التعليم فهو كلام باطل لا يحتاج إلىردّ .. وكان يمكن لسقراط أن يتجنّب التهم والمحاكمة لأنه بريء ولكنه إيماناً منه برسالته أراد لنفسه أن يبقىمثلاً للتضحية من أجل الواجب الذي يؤمن به ورمزاً للثبات على المبدأ ومن أجل تأكيد ذلك سنورد بعض أقوال سقراط نفسه لقضاة محكمته : "....يارجال أثينا إن حكمتم ببرائتي فلن أغير من سيرتي لكنني أستمرفي أداء رسالتي لأن هذا هو واجبي ،ولا ينبغي أن أتخلى عنه ولو أدّى ذلك إلى الموت فالرجل لا ينبغي أن يتدبر أمرحياته أو موته ولا يجوز أن يهتم إلاّ بما يقدمه من خير للناس،ومع أنّي كسائر البشر خلقت من لحم ودم،ولي زوجة وأولاد فلن أحضرهم أمامكم كما يفعل غيري ليتوسلوا إليكم ويطلبوا براءتي، وأنا لا أفعل ذلك اعتداداً بنفسي، أواحتقاراً لكم بل لاعتقادي أن مثل هذه التصرفات تقلل من قدري وتحطّ من شانكم وتجلب العار على أثينا هذا إلى أنني اعتبر

أنَّ من الحماقة استجداء القاضي بدل إقناعه فليس على القاضي أن يمنح العدالة ولكن عليه أن يكون عادلاً لا يتبع هواه...." (٣).

هكذا أنهى سقراط دفاعه المجيد وتمسّك بمواقفه وأصرّ على رأيه فحكم عليه القضاة بأغلبية ضئيلة وقبل الحكم رابط الجأش وعندما طلب إليه التعقيب على الحكم قال: " .. ((أيّها الأثينيّون لقد حكمتم عليّ بالإعدام وهذا لا يحزنني بل يُسعدني لأنني انتصرت على أعدائي . أفضل أن أموت حراً على أن أعيش عبداً..."(٤).

كان بين الحكم بالإعدام وبين تنفيذه ثلاثون يوماً أغراه خلالها تلاميذه ومحبّوه بالفرار من السجن وكان يقول: " إن صوتاً في داخلي يطلب منّي أن احترم قانون بلادي قبل احترام حياتي ،وحياة أبنائي ،وأنا لا أردّ الشرّ بمثله..."

بعد زمن قصير أدرك الشعب شناعة الجرم الذي ارتكبه محلفو أثينا فنادى الشعب بمعاقبه خصوم سقراط وأقام التماثيل لفيلسوفه الشهيد ومجدّ ذكره بشتى الطرق وخلّده المؤرخون في كتبهم والفلاسفة في محاوراتهم، ليبقى في ذاكرة الإنسانية ووجدانها أول شهداء حرية الفكر في تاريخ البشريةالمعروف إذ كان قد عاش ما بين ٤٧٨و ٣٩٩، ق.م.

□□

المراجع والمصادر:

١- دكتور محمد صقر خفاجه تاريخ الأدب اليوناني - نشرمكتبه نهضة مصرعام ١٩٥٦.

٢- دكتور عبد الرحمن بدوي - إفلاطون - مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٥٤ (مقدمة هامة عن سقراط).

٣- دكتور طه حسين - قادة الفكر ،دار المعارف بمصر ١٩٥٦.

٤- أحمد أمين - زكي نجيب محمود - قصة الفلسفة الحديثة - لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٩.

٥- جماعة من الأساتذة السوفييت - موجز تاريخ الفلسفة - دار الجماهير الشعبية دمشق ١٩٧٩ ،تعريب: توفيق ابراهيم سلوم.

٦- الدكتور علي حافظ بهنسي - سقراط - سلسلة إقرأ، عدد (٧٨) دار المعارف بمصر ١٩٤٩.

هوامش

١- موجز تاريخ الفلسفة جماعة من المؤلفين السوفييت، تعريب توفيق سلوم- دار الجماهير الشعبية ١٩٧٩، ص ٨٦.

٢-دكتور محمد صقر خفاجة ،تاريخ الأدب اليوناني - مكتبة نهضة مصر، عام ١٩٥٦، ص ١٦٦.

٣- المصدر نفسه ص ٧٠.

٤- الدكتور عبد الرحمن بدوي - افلاطون مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٤، ص٦١.

□

فـولتـيـر (١٦٩٤-١٧٧٨م)

" سعادة الإنسان في العقل والحرّية "

لا يمر يوم دون أن يتذكر الواحد منا (فولتير الذي اقترن اسمه بـ(حرية الفكر) منذ أن أطلق شعاره المجيد في القرن الثامن عشر قائلاً: " قد اختلف معك في الرأي ولكنني على استعداد لأن أدفع حياتي ثمناً لحقك في الدفاع عن رأيك "..وذلك بسبب ما تتعرض له حرية الكلمة وحرية الفكر في الوطن العربي من ملاحقة واضطهاد .

احتل فولتير مكانة خاصة في حياة فرنسا، الفكرية فتحدث عنه تاريخ الثقافة كاتباً كبيراً وعالماً وفيلسوفاً كما كان.محاجاً موهوباً وأديباً ساخراً هجاءً ،وقد بقي حتى آخر حياته المديدة ١٦٩٤- ١٧٧٨م مناضلاً لا تلين قناته ضد الكنيسة والتعصّب الديني كما كان يمقت الطغيان والملوك.

ومنذ أن أصبح مشهوراً في الرابعة والعشرين من عمره ظل ولمدة ستين عاماً بعدها الشخصية الرائدة في بلاده. تعرض بسبب آرائه للسجن والملاحقات فسجن أكثر من مرة وكان يُطلق سراحه بشرط أن يغادر فرنسا .. ورحل نتيجة لذلك إلى انجلترا وسويسرا وألمانيا ولم يتنازل عن شجاعته في إبداء رأيه، وفيماكان تلميذه " روسو" يخاف الخطر الذي يتعرض له كلٌ من يحاول تحريك الجماهير الملتفة حول الملكية الفرنسية، نجد فولتير يقول: ".... إن شقاءنا ناتج عن خضوعنا للعادات القديمة التي يطلق عليها اسم " الشرائع"، وإن الشعوب تخضع للملوك لتستعبد أو تُسلب وإذا كنتم بحاجة إلى شرائع عادلة فأحرقوا مالديكم منها وضعوا جديدة غيرها .. جميع عاداتنا لا تصلح إلاّ طعاماً للنّار " أيتها العدالة المقدسّة .. اسمعي صوتك الرهيب القادم.."(١).

وقد احتال فولتير كي يعيش ويرصد حياته للحرية والكفاح في سبيلها، أن اشترى أرضاً في سويسرا وأرضاً أخرى في فرنسا وكانتا تتجاوران وذلك ترقّباً من الاضطهاد من إحدى الحكومتين السويسرية أو الفرنسية بحيث يستطيع الفرار إلى فرنسا إذا وجد الحملة عليه من الأولى، أو إلى سويسرا، إذا وجد الحملة عليه من الثانية ...

اثر مدينة لندن في حياة فولتير :

سافر إلى لندن هرباً من القهر والاضطهاد عام ١٧٢٦م وكتب إلى أصدقائه : " أعرف أنها بلد تحترم فيها الفنون وتكافأ وأن فيها فروقاً بين الطبقات دون فروق بين الناس، سوى ما يفرضه فضل كلٍّ منهم . إنها بلدٌ يفكر فيه النـاس بحرية ونُبل دون أن يردعهم خوف دنيء، لو اتبعت هواي لا ستقر بي المقام هنا لاتحدوني سوى الرغبة في أن أتعلم كيف أفكر...

أمضى في لندن حوالي ثلاثة أعوام حتى عام ١٧٢٩ م أثرت تأثيراًعظيماً في مجرى حياته، إذ شاهد عام ١٧٢٧ جنازة (نيوتن) ودُهش لما رآه في تكريم العبقرية والعلم والعلماء وهذا الإعجاب دعاه لأن يكتب " رسائل عن انجلترا" عندما عاد إلى وطنه، ثم كتب (مبادئ فلسفة نيوتن)،وقد أعجبه نظام الإنجليز السياسي كما أعجبته الحرية الشخصيةالديمقراطية التي أظهرت فساد نظام بلده السياسي ... وفي عام ١٧٣٤ نشر كتابه، الشهير (رسائل فلسفية) الذي كان البداية الحقيقية لحركة التنوير في فرنسا القرن الثامن عشر وقد وصف فيه النظام الانجليزي المحبب إليه وأفكار المفكرين الإنجليزمما أثار حفيظة الفرنسيين فاجبروه على أن يترك فرنسا ثانية ..

العمل عند فولتير :

آمن فولتير بأن العمل نصيب كل كائن بشري كما هو حقُّ هذا الكائن وشرفه، وكما يقول: إنني ألاحظ كل يوم أن العمل حياة الإنسان وهو يستجمع قوى النفس ويضفي عليها روح الهناءة والغبطة، وتطبيقاً لهذا الإيمان كان يعمل نهاراً وليلاً بنشاط المرء حين يستيقظ من نومه، لم يعرف الملل يوماً ولم يطرأ عليه الكلل..

وقد قال (فاجينير) أمين سره الذي قضى في خدمته ما يقرب من ربع قرن: " إنه كان يعمل ثماني عشرة ساعة في اليوم وإنه كان يوقظه ليلاً ليملي عليه مايُريد أن يدوّنه .."(٢).

كان فولتير يرى أن اللذة التي لا يشوبها وهم ولا زيف توجد في الزراعة وغرس الأشجار والنباتات حتى لقد قال يوماً: " انه لم يعمل إلاّ شيئاً واحداً معقولاً طيلة حياته هو زراعة الأرض " وكان كلماتقدم في السن ضاعف من عمله المتشعب وأعماله هذه لم تمنعه من دخول مسابقة لنيل جائزة المجمع العلمي الفرنسي وهو في الثمانين من عمره .. وكثيراً ما أبدى الأسف على وقته الذي يضيع سدى في لُعبتي، الورق ،والشطرنج، لأن ذلك كما يقول: ملهاة يرتاح إليها الخاملون..

فولتير .. والكتابة :

هوجم فولتير لأنه يصّغر الأشياء العظيمة بشدة إيضاحه لها وجعلها في متناول الجميع وذلك إنه يعتبر الكتابة عملاً كما اعتبرها في مقدمة الفنون ولخص فنّ الكتابة بقوله إنه : " التعبير عما في الفكر تعبيراً دقيقاً ".

وفولتير لم يكتب كمحترف ولا سعياً وراء مجد ولكنه كتَب ليبسط نفسه على الورق وفي سبيل العمل وحده وأن ما يريده في هذا المجال هو أن يتكلم القلب ويسكت الكاتب، وأما من يكتب لمجرد الاعتقاد بأن الواجب يدعوه إلى ذلك فإنه عند فولتير لا يستحق غير اللعنة، ولا فاصل عنده بين الرجل وما يكتب.

يقول: ان ما أحبه في الأديب أن يمشي الكاتب فيه خلف الرجل لا يجب أن يسير الرجل في المؤخرة بل في المقدمة ولا يوجد عنده رجلٌ وكاتب بل رجل يجمع الصّفتين..

وحول طغيان العقل على الأدب نرى فولتير يقول: لن أتردد في إتلاف مؤلفي، لو تأكدت بأنه سينظر إليه كعمل من أعمال العقل. إن العقل يسمى وراء الأحكام والمجادلات البارعة والتأملات وهذا ما يحط من مكانة الأدب.

كما أنه يميل إلى الإيجاز ولا يتجاوز في كتابته ما يستلزمه التعبير عن فكره وشعوره لحظة الكتابة، يقول: " لماذا أكتب مجلداً ما دامت تكفي بضع صفحات؟؟!"(٣). وقد عاب على معاصريه لأنهم يكتبون مجلدات مقابل صفحتين في حين لا يحتاج الأمر لأكثر من سطرين مقابل صفحتين.. إن المدارس تمنح الجوائز لمن يفيض في التحرير، وهذا يعلم الطالب طرق الإبهام فالذي يجدر أن يكافأ هو الذي يضغط فكرته لأنه يعرف كيف يكتب بقوة ...وبدلاً من أن نُسمّى الإفاضة جمالاً تسمى عيباً..."

ويرى فوليتر أن الذي رفع قدر الشاعر (راسين) هو أنه كان لا يقول أكثر ممّا يجب، في حين أن غيره كانوا يقولون .. كل ما يستطيعون، وهذا ما جعل فولتير يتجنب التنميق والتصنّع فهو يهتم في عمق المشاعر والتأثير لا في العبارات والألفاظ وبفضل هذا البعد عن التصنع والبلاغة المفتعلة في اللفظ مع نزاهته وإخلاصه في العمل ظلّ ستين عاماً – وهو عمر العطاء عنده– ظل يتجدد باستمرار، وظل يتجنب استعمال ما هو مُمّل أو متعب حتى لو تناول الموضوع الواحد مراراً كما استطاع ألاّ يتقيد بطريقة واحدة وأن يبتعد عن التقليد لأن هناك طرقاً كثيرة كي يصبح الإنسان فنّاناً، وفنانا كبيرا.

أحب فولتير الأدب إلى درجة عبرعنها حين كتب لصديقه (فورمون): " إنني لا أعرف ولا أريد أن أعرف في حياتي غير الآداب الجميلة.."ويعرف عنه أنه إذا صادف عملاً أدبياً

رائعاً فإنه يتلوه باحترام ويشعر بالإجلال نحو صاحبه وأنه لا يتمالك نفسه عن معانقته لو كان حاضراً ..

ولعل الناقد الكبير (سانت بوف) كان على حق حين وصف " فولتير" بأنه .."كان حين يبدأ الحديث في موضوع فإنه يعطيه حقّه أكثر من سواه وبمجهود أقل..."(٤).

سخرية فولتير :

بالإضافة إلى سخرية فولتير وتهكمه كان ذا حصافة عالية وذكاء متوقد ونكتة رائعة لم يتوان في استخدامها .. كشف في سخرياته اللاذعة نقاط الضعف في الأشراف وفي الكنيسة أكثر من أي بحث فلسفي .. ومن المعروف أنه لم يسخر من الدين والدولة بل سخر من ممثليهما الذين لم يكونوا أهلاً لذلك..

يُروى عنه- أنه بعد موت (لويس الرابع عشر) باع القائم بأعماله نصف الجياد التي لا تحصى في اسطبلات الملك – علق قائلاً: (كان خير وأبقى لو عزل نصف الحمير الذين يملؤون البلاط الملكي..." كما كتب يقول :" إن رجل الدين الغبي والجاهل يثير احتقارنا .. ورجل الدين الشرير يولد الرعب في نفوسنا ،أما الصالح المحسن البعيد عن الخرافات فهو الجدير بحبّنا واحترامنا..".

وصل إلى علم فوليتر أن الملك " فريدريك " تحدث عن توصل فولتير إلى معرفة حقيقية المادة، فقال الأخير ينقد موقف الملك :" لا توجد غير قبعة حمار لتوضع على رأس ذلك العالم الذي يتوهم أنه يعرف حقيقة المادة!!؟.

وبسخريتة اللاذعة يتحدّث عن أولئك الذي لا يتحولون أبداً عن آرائهم: "…. بأنه لا يعرف إلاّ وسيلة واحدة لعدم التحول عن الرأي وهي عدم إبداء أي رأي أو الإجابة عن " أي سؤال!!".

بعد مجاملة امتدت طويلاً دعا الأمير (فريدريك) فولتير إلى بلاط والده فردّ قائلاً: " إني أجد في مجيئي إلى بلاط سموكم الملكي وتقديم عبارات احترامي فخراً ثميناً وسعادة فائقة ولكن الصداقة التي تربطني مع عزلتي لا تسمح لي بمغادرتها ،ولا شك أنك تفكر مثل(يوليانوس) إن الأصدقاء يُفضلون على الملوك.."

وعندما صار (فريدريك) ملكاً بقي فوليتر على موقفه وأعلن أنه يفضل مدام(دي شاتليه) على كل بلاط في العالم.

ولمّا سخر الملك هذا من جهل بعض الناس. كتب إليه فولتير يقول: " إن جلالتكم لعلها أحق بالسخرية من الحيوانات ذوات القائمتين التي تظن أنها تعرف كل شيء..".

وبعد أن خرج من السجن الذي قضى فيه أحد عشرشهراً، جاء الوصي على العرش ومنحه ألفي دينار للتعويض عمّا أصابه فقال فولتير:" يا سيدي إنني أشكر سمّوكم على اعتنائكم بتأمين طعامي، ولكنني أرجوكم ألاّ تهتموا بإسكاني بعد الآن..".

يُحكى عن لويس السادس عشر ملك فرنسا، أيام الثورة الفرنسية أنه أطّل من نافذة السجن في باريس فوجد الناس يحملون نعش فولتير الذي نقلوه من قبره الوضيع يريدون الاحتفال بدفنه من جديد في ضريح ضخم، فقال الملك وهو يشيرُ إلىالنعش:" كل ما نحن فيه من مصائب، جاءنا من هذا الرجل.."!!؟.

الصداقة عند فوليتر:

قرأ فولتير في أحد مؤلفات " بوب " الشاعر الانجليزي أن متاع الحياة في الراحة واليسروالصحة فصاح: " والصداقة والحب!.. إن الصداقة هي شهوة القلوب الكبيرة وهي أعظم تعزية في الحياة كما أنها أولى الفضائل.."(٥).

كما كان يقول:" لا توجد سعادة بغير أصدقاء يجب أن يسمو الإنسان على عوامل النجاح أيّاً كانت حسنة أم سيئة ولا بد أن يكون حساساً بشعور الصداقة إن الأصدقاء القدماء يملكون شعاب القلب".(٦).

وكان لفولتير أصدقاء فقد كتب لأحدهم عام ١٧٥٤م: إنه لمن أحب الأمور أن يحب بعضنا بعضاً ونحن في المائة من عمرنا، إننا الآن في الخمسين فمازالت أمامنا صداقة خمسين عاماً أخرى..".

وعندما بلغ الخامسة والسبعين تقريباً كتب له:

"اشعر بأن قلبي مازال فتياً كلما فكرت فيك.."

"إن الكتاب الوحيد الذي تجب قراءته هو كتاب الطبيعة والدين الوحيد الذي يجب اعتناقه هو أن يعبد الإنسان الله ويكون شريفاً..."(٧).

فولتير وحرية الفكر:

ناضل فوليتر من أجل حرية المعتقد حين وقف بحزم مع قانون حرية الضمير الذي أصدره (وليم بن) في آخر القرن السابع عشر في (بنسلفانيا).. وقد اتخذ من العرب مثالاً على حرية الفكر والتسامح الديني أثناء نضاله من أجل الحرية الفكرية يقول: " إن العرب عندما فتحوا إسبانيا لم يُرغموا أحداً على اعتناق الدين الإسلامي....".

كما ندّد بأولئك الذين يعذبون المفكرين بسبب آرائهم، هؤلاء الذين جعلوا قاتلي سقراط قدوةً لهم، ويتابع منّدداً باضطهاد الفكر في بلده قائلاً: " .. إن سقراط هو الفيلسوف الوحيد الذي قتله اليونان لآرائه وأفكاره.."، ولم يلبث اليونانيون أن استنكروا فعلتهم التي كانت نتيجة دسيسة فعاقبوا الدساس وشيدوا تماثيل للضحية وبذلك جعلوا موت سقراط تمجيداً للفلسفة، ثم يقارن بين التعذيب في عصره وفي العصور السابقة فيلاحظ أنه في العصور السابقة لم تكن هناك استجوابات ولا مشانق ولا تمزق أعضاء المحكوم عليهم .

كان " فولتير " جمهورياً في عصر الملكية الذي وصفه : " إن اختراع مهاجمة الجار والفتك به يعتبر أساساً للحكم الملكي، أيّهما أصلح أن يكون وطنك مملكة أو جمهورية..؟؟".

" إذا سألتم الأغنياء عن رأيهم فإنهم يفضلون الارستقراطية وإذا استفتيتم الشعب فإنه يريد الديمقراطية ولا يوجد من يفضّلون الملكية غير الملوك... ومع أنه لا توجد حكومة كاملة ولكن أحب الحكومات بغير شك هي الحكومة الجمهورية لأنها تقرّب الرجال من المساواة الطبيعية..".

وقد دافع فولتير عن حرية الإنسان وعنده أن الإنسان حُرٌّ لأنه يعي حريته الذاتية،وأن من يوجد فعلاً هو الإنسان المفكر.." وهو لا يكون حُراً إلاّ حينما يكون قادراً على تنفيذ مايريد..".

كما وقف ضد الذين يقولون بـ (فطريسة المبادئ الأخلاقية)الأمر الذي لا يمكن معه إصلاح الإنسان أو تقدّمه وانتقد آراء (باسكال) و(روسو) خاصة اللذين عارضا الثقافة لأنها تشوه الطبيعة الإنسانية..

واعتبر فولتير أن الرجوع إلى الحالةالبدائية كمايريد روسو أمرٌ يتناقض مع الطبيعة الإنسانية الساعية دائماً نحو التقدم والتحضر، وأن الإنسان المتحضّر يعيش أكثر تلاؤماً وانسجاماً مع طبيعته من الإنسان المتوحش البدائي...

ويرى فولتير أن انتشار الثقافة هو الدواء الأنجح ضد التعصب، يقول: " ثمة متعصبون باردو الأعصاب وهم القضاة الذين يحكمون بالإعدام على الذين لا جريمة لهم سوى أنهم لا يفكرون علىشاكلتهم ..

وليس من دواء لهذا الداء المقيم إلاّ الفكر الفلسفي الذي إذا انتشر لطّف الأخلاق وهدّأ من حدّة المرض..

إن شجاعة فولتير قادته لأن يقول رأيه في كل مايعرض له ويراه غير موافق لحقائق الحياة فهو يفنّد افتراءات اليهود حول أنهم " شعب ا لله المختار" بقوله: " إنه من السخف

التفكير في أن الله صاحب العزّة والجلال قد اختار اليهود وهم قبيلة من البدو الرحالة ليجعل منهم شعبه المختار..."

ومن كتب فولتير الهامة كتاب بعنوان (تفسير التوراة) وقد نقد فيه التوراة نقداً شديداً وهاجم الخرافات وهو يتحدث بهذا الصدد واعتبر أن الخرافة بالنسبة للدين مثل التنجيم بالنسبة لعلم الفلك، أو مثل الفتاة المجنونة بالنسبة للأم الحكيمة العاقلة.. ويستنتج أن الخرافة الناتجة عن السفه والأنانية هي ألد أعداء العقل الإنساني..

تناول فولتير مُعظم جوانب الفكر الإنساني في كتاباته التي زادت حين جمعت عن ثلاثين ألف صفحة، وإذا كان بعضهم يرى أن أفكار فولتير عادية في يومنا هذا فإننا نستعير قول كاتبنا نفسه موضوع هذا الحديث - الذي كان على درجةٍ عاليةٍ من الموضوعية وهويوضح لنا كيف نحكم على الأجيال قال: " لقد طال ماردّدنا بأنه لا يجب الحكم على تلك الأجيال بالقياس إلى جهلنا .."

إنه " فرانكو ماريا أدويت" المعروف عالمياً باسمه الأدبي " فولتير "..

□□

مصادر البحث ومراجعه:

١- فولتير - تأليف سليم سعدة - إقرأ عدد (٧٢) نشر دار المعارف بمصر.

٢- فولتير، سلسلة زدني علماً - تأليف: أندرية كريسون، ترجمة دكتور صباح محيي الدين، منشورات عويدات - بيروت تشرين الأول، ١٩٦١.

٣- أعلام الفكر الفرنسي - نشر دار الشرق الغرب / مصر ،ذ/تا، ترجمة حبيب سعيد.

٤- مايكل هارت - كتاب المائة الأوائل ،ترجمة خالد أسعد عيسى وأحمد غسان سبانو- دار قتيبة للطباعة والنشر (دمشق).

٥- موجز تاريخ الفلسفة - جماعة من الاساتذة السوفيات تعريب: توفيق ابراهيم سلوم، نشر دار الجماهير الشعبية دمشق ١٩٧٩ جـ ١.

٦- سلامة موسى كتاب- هؤلاء علموني - نشر دار سلامة موسى للنشر والتوزيع،الطبعة الثالثة، ١٩٦٥.

٧- سمير عبده - نفسيات المشاهير - منشورات دار النصر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٦.

هوامش:

١-عباس محمود العقاد- ساعات بين الكتب- مطبعة مصر ١٩٥٢ ،ص ٣٦٣.

٢- سلامة موسى-هؤلاء علّموني-دار سلامة موسى للنشر والتوزيع ط٣، ١٩٦٥ ،ص٦٧.

٣-سليم سعده- فولتير إقرأ العدد ٧٢، ص٢٢.

٤-٥- المصدر نفسه ص٧.

٦- المصدر نفسه :ص٧٢.

٧- أعلام الفكر الفرنسي - مجموعة من الكتاب، ترجمة حبيب سعيد،القاهرة ص٦١، دار الشرق الغرب.

□

جــان جــاك روســــو

١٧١٢ - ١٧٧٨ م

خلق الإنسان حُراً..."

(جان جــاك روسو) طفولـة مشـردة في جنيـف دون أسـرة، طفولـة عصـامي مشـبوب الانفعال ،متمرد اشتغل خادماً وتشرد كثيراً ..

ولد " روسـو" عـام ١٧١٢م، ومـاتت أمـه عنـد ولادتـه يقـول: " فقـدت أمـي حياتهـا بولادتي فبولادتي بدأ سوء حظّي ..".

بقى له والده – اسحق-- كثير الخيال سريع التأثر يحب نفسه يميل للعاطفة أكـثر مـن ميله للعقل.. نمّى الوالد في طفله حبّ الوطن لأنه وإن رأى أماكن كثيرة لكنه لم يرَ أجمل من وطنه..

علم ابنه القراءة واعتاد أن يجلس معه كلّ ليلة بعد العشاء للقراءة حتى منتصف الليـل حيناً وحتى مطلع الفجر أحياناً...(١).

وبهذا اعتاد الطفل القراءة ،وصار يستعير الكتب من أقاربه ليقرأ، بينما والده يعمـل في النهار كان ذلك قبل العاشرة من عمره وأثر في نفسه في هذه المرحلة (.بلوتارك).

بعد قليل تزوج الوالد وأجبرته الحياة أن يترك ابنه بعد العاشـرة بقليـل، فـاضطر هـذا الأبن للتنقّل بين البطالة والتشّرد، فما إن يترك منزلاً كان يخدمـه حتـى ينتقـل إلى آخـر... وبعد سنوات صار يخدم سيدة ويقرأ معهـا كتـب (فولتـير) ويسـمع إليهـا إذا تحدثـت وقـد رغبت هذه السيدة أن يصبح – روسو- كاهناً بناءً على نصيحة أحد أقاربها الذي كـان رأيـه بـالفتى -روســـو- " أنــه محــدود الذكــاء جــاهل جــداً لا يصلــح إلاّ كاهنــاً في إحــدى القرى...".فشلت محاولات السيدة وهرب الفتى من هذا الجو...

سافر (روسو) إلى باريس وعمره تسع عشرة سنة ومعه رسائل توصية إلى الكتاب الكبار ونزل بفندق للفقراء ،وعندما كان يتناول الطعام في بيت أحد الباريسيين سـخر حتـى الخـدم من طريقته في تناول الطعام إذ عاش في بيئة ريفية فقيرة ...

في باريس تعرّف بـ(فولتير) و(مونتسكيو)و(ديدرو) ... وبينما كان روسو مشرداً ضائعاً في شوارع باريس كان فولتير يعيش في قصر يطل على نهر السين.. وفي إحدى المرات دعا (فولتير) المشهور(روسو) الفقير إلى أن يُؤويه في قصره.. ولكن روسو اعتبر هذه العروض نفاقاً ومداهنة.. ونشبت المعركة بين الرجلين، قال فولتير: " لو كان لأحطّ الحيوانات ولد ،لكان جان جاك روسو! ".

ردّ روسو: " إن المضحك فولتير واحد من أعضاء ديوان التفتيش لاهم لهم سوى إعدام الأبرياء..".

كان روسو يحتقر المال ويهاجم فولتير الذي (تبرجز) وابتعد عن المعذبين وقضاياهم.

ظلّ روسو يقرأ في الحدائق فترة طويلة من حياته وبدأت معرفته بـ (ديدرو) تتحول إلى صداقة فكلاهما فقير ،وكلاهما أديب، وبينهما تشابُه كبير في الأذواق، والميل إلى الحلم رغم قسوة الواقع والفقر.

أمضى روسو جزءاً كبيراً من حياته مريضاً ضعيف البنية نحيف الجسم يشكو الأرق كان كثير الفقر والألم دون أن يشكو، عاش حياةً لاحدَّ لتناقضها، جاع في طفولته وشبابه وعرف بنفسه ظلم الأقوياء للفقراء عانى الإضطهاد وعرفه عن قرب.. ومع ذلك صار روسو عظيماً .. وهنا نتذكر قول الناقد البلغاري الشهير (كارانفيلوف) حين يرى أنه من العجيب حقاً أن ينسكب كلُّ هذا الوحل على هذه الطفولة وعلى هذه الفتوة ولا تبقى أيّة لطخة مهما ضؤلت على روحه ... وأن –روسو– قد عبر وُحول الحياة دون أن يلطخ جناحي طائره المائي الصّغير ومثله (غوركي) الذي أمّضى سنوات طفولته في وحل الحياة وفي وحول ضيّقي الأفق دون أن يوسخ ريش صقره الصغير (كتاب أبطال وطباع – كارانفيلوف) كلا الرجلين قد صاغ من شقاء الحياة ووحولها إبداعاً يتلاءم مع عصره، ومُتطلبات المظلومين حوله.. فهذه الطفولة المعذّبة جعلت روسو– يربط بشكل مبكر بين فقدان الحرية وبين الملكية الخاصة فهو يقول: " ظهر الشرُّ في البشرية حين رسم أحدهم حدوداً حول أرضه وقال: هذا ملكي..." إن روسو يعتقد أن هذا التصرف هو اصل التفاوت بين البشر وبدءاً من هذه الفترة التاريخية استمر الإنسان يدفعه الطمع إلى أن يملك ويملك ونشأت الحروب .. وولد القانون الذي شرع ليدافع عن ملكية المالكين ،ويقف في الغالب مع الأغنياء ضد الفقراء، فإذا سرق الفقير شيئاً يسد به الرمق قالوا: إنه مجرم ولكن إذا عاش الغني يمتصّ دمّ العامل والفلاح عاش مستريحاً غير مُذنب يحترمه الجميع ! !

ورأى روسو أن الحرية ليست فاكهة تنمو في كل طقس ومن ثمّ فهي ليست في متناول الجميع " لذلك نذر الكثير من كتاباته للدفاع عن هذه الحرّية لدرجة أن جعل من الشعارات

الهامة في كتابه " العقد الاجتماعي" القول: إن البشر يولدون أحراراً ويبقون أحراراً، ومتساوين في الحقوق واعتبر أن من يتنازل عن حريته يفقد صفته الإنسانية ويصبح عبداً والعبودية كمايفهمها " روّسو" هي للسيد والعبد معاً لأن الذي يستعبد إنساناً لا يستطيع أن يقول عن نفسه بأنه حرٌ ..وكم من المصائب والمخاوف كان بالإمكان إنقاذ المجتمع منها لوأن رجلاً خلع أول سياج أحاط بقطعة أرض، وصاح في جماعته: حذار من الإصغاء لهذا المغتصب ...وأنكم لهالكون ولو نسيتم ولو لمرةٌ واحدة إن ثمرات الأرض إنما هي لنا جميعاً، أما الأرض نفسها، فليست مُلكاً لأحد وكما أن الكوارث تنشأ من ملكية البعض للأرض دون البعض الآخر كذلك فإن معظم مصائب البشرية تنشأ حين نعمل لإسعاد فرد واحد مقابل إتعاس وإفقار مئة فرد مقابله..

هذه الأفكار الجريئة الرائدة في زمنها كثّرت الأعداء حول روسو – الذي حين سمع بموت لويس الخامس عشر عام ١٧٧٤م قال: " يا إلهي ما أشد حزني !! فسئل: لماذا تحزن؟ فقال: لأنه كان يُقاسمني كراهية الشعب، أما الآن فيجب أن احتمل هذه الكراهية وحدي.." كان روسو مفكراً عقلانياً جريئاً وقف عامة الناس ضده وحملّوه كماحملّوا " فولتير " مسؤولية جميع الاضطرابات التي اجتاحت أوربا بعد ذلك .. حتى لقد جاء في أغنية (غافروش) الساخرة في رواية (البؤساء) لفيكتور هيجو إنها غلطة (فولتير) إنها غلطة (روسو)..".

لم يصبح روسو عظيماً في تراث الإنسانية دون أن يقدم القربان الذي تستحقه العظمة إذ اشتراها بمهر غال من الفقر والتشرد والعمل المتواصل، ويظهر ذلك في البرنامج اليومي الذي وضعه لحياته في الأوقات القصيرة التي أتيح له فيها الاستقرار إذ كان لا يكف عن العمل والقراءة حتى كوّن نفسه بالمطالعة وعشق الطبيعة وتحسس ألام المظلومين ،وقراءة كلّ ما استطاع من تراث القدماء والمحدثين، وإن استقراره لفترة قصيرة أثمر هذا الذي تركه من آثار، والكل يعرف أنه بقي حتى الأربعين من عمره فقيراً مشرداً ثم صمم أن يحمل القلم في يده ليرتفع كالسنديانة فوق النظام الملكي ويدعو للجمهورية والحرية ويقف بحزم ضد الملكية الخاصة التي يعتبرها منبع كلّ الشرور، واستمر بعد الأربعين يتقدم ويصنع نفسه بالفكر العقلاني والعمل والتصميم.

في عصر لويس الخامس عشر الذي بدأ مع بداية حُكمه ١٧١٥بلغت التناقضات الاجتماعية ذروتها، القليل يقضي حياته في رفاهية مفرطة والكثيرون من الشعب يموتون جوعاً وقد تجردوا من أبسط الحقوق الإنسانية، وصاروا تحت رحمة الحاكمين ..

في هذا العصر المضطرب كان فولتير يدعو إلى استنارة الفرد عن طريق تهذيب العقل وترقيته وهاجم كل الذين حالوا دون تنوير أذهان الشعب .

وفي هذا العصر المضطرب كان روسو تلميذ فولتير الذي سلك طريقاً مغايراً قد دعا إلى الثورة الاجتماعية التي وضع أسسها في كتابه " العقد الاجتماعي".

فهم لويس الخامس عشر ما يحدث حوله من غليان فقال كلمته المشهورة " وبعدي الطوفان ".

طالبت السلطات السويسرية بإعدام كتاب روسو (العقد الاجتماعي) وحرقه فكان موقف فولتير رغم اختلافه مع تلميذه روسو مثار إعجاب لإنه كتب قائلاً: " لا أقر كلمة واحدة مما كتبت ولكن سأقف مدافعاً حتى الموت مؤيداً حقك في أن تقول ما تُريد ".

دروس في حياة " روسّو ":

تلقى روسو درساً عملياً على يد "كاهن" كان يرعاه... طلب روسو بعض المال من الكاهن، وكان قد رأى أن الناس يعطونه الصدقات حتّى يجمعها فقال الكاهن الذي أراد من هذه الحادثة درساً: " ... أنا مسؤول عنك ويجب أن لا أمسّ نقوداً وُضعت أمانة في يدي ...". ثم منحه من ماله الخاص...

وبدأ نقاش بعد الدرس بين الكاهن والفتى حول سير العظماء ممّا أثر في حياة الشاب.

مرّ (روسو) على صاحب كوخ وكان جائعاً فأطعمه خبزاً جافاً ولم يشبع .. وشعر صاحب الكوخ بجوع ضيفه الفتى وغاب قليلاً وأحضر قطعة خبز ومعها قطعة لحم وعجّة....أكل روسو وأراد أن يدفع الثمن،رفض الفلاح .. سأل روسو: لماذاتصّرفت بهذا الشكل ؟ أجاب الفلاح: نتظاهر بالعثر خوفاً من الضرائب الثقيلة..

تأثر روسو للحادثة وشعر بأن الظلم يخفي حقائق الناس ويشوههم، فهذا الفلاّح الذي كسب خبزه بعرق جبينه لم يستطع أن يظهر علىحقيقته، وعاش في خوف دائم من الظلم .. تنقل روسو بين أكواخ الفلاحين المتشابهة ..وهناك حادثة في طفولة " روسو" كانت درساً بالغ الأثر وتفصيل الحادثة أنّه اتّهم بكسر اسنان مشط.احتج على هذا الاتهام ،لأنه لم يكسرها دافع عن نفسه بغير جدوى، وعومل كما يُعامل المذنب، فعوقب على ذنب لم يرتكبه ... فتألم من هذه العقوبة ولم ينس الحادثة وكتب عنها بعد ذلك بخمسين سنة وقال: " .... لو قدر لي أن أعيش مائة ألف سنة ستظل في نفسي لأنني كنت ضحية مالم أفعله .. ولو رأيت ظالماً يعتدي على إنسان لعاقبت ذلك الـ ـم المعتدي في الحال، ولا أبالي بمايحدث لي، ولو كان الحكم عليّ بالموت مائة مرّة..".

وهناك مُعلّم بارز في حياة " روسو" كان مرشده من المهد إلى اللحد وهو " بلوتارك" يقول روسو:" عندما كنتُ في السادسة وقع في يدي فحفظته .. فرافقني طول حياتي ...".

وكان فولتير (أستاذه وخصمه اللدود في المستقبل) قد أغراه بالدرس أكثر من غيره من خلال ماكتبه في " رسائل فولتير الفلسفية" .. نعم أغراه بالدرس وأول مادفعه إلى الكتابة وذلك باعتراف " روسو" نفسه ! !

العقد الاجتماعي ... ملامح:

بدأ روسو كتابه (العقد الاجتماعي) بجملة ثائرة تقول: " خلق الانسان حراً وهو مستعبد في كل مكان، وليس لإنسان ما سلطان طبيعي على أخيّه الانسان،وإن تنازل المرء عن حريته يعْني تنازله عن رجولته، وهناك تناقض بين كلمة (حق) وكلمة (عبد)..."

إن إنسانية الإنسان تنتفي عندما لا يمارس حريته، والسيادة لا يمكن أن تمارس بالإنابة فهي إما أن تمارس بالذات أو لا تمارس أصلاً وليس هناك طريق وسط.

يرى روسو أن الجوع انتحار، ومن المؤلم إلى حد القتل أن يرى الإنسان أطفاله يموتون جوعاً بجريمة الأغنياء.

والسعادة هي أن نجعل الثروة بيد أكبر عدد من أفراد الشعب، إذ هنا فقط نقضي على منتهى الفقر ومنتهى الغنى وهنا لايشتري الغني الفقير بماله،ولا يضطر الفقير أن يبيع نفسه لسد حاجته وفقره ،ويصبح شيئاً من الأشياء لاوجود لكرامته الإنسانية ،وهذا هو مفهوم "الاغتراب " الذي كان روسو أول من استخدمه بهذا المعنى.

الحرية عنده هي الخضوع للقوانين، الشعب الحر يخضع ولا يُستعبد، له رؤساء لا أسياد، يخضع للقوانين لا للأفراد، ذلك أنّه بقوة القوانين لا يخضع للأفراد .

كثيرون اعتبروا روسو رائد العاصفة العظيم ومبدع حقبة جديدة، واعتبروه أكثر تأثيراً من فولتير هذا واحد من أساقفة (باريس) يقول في " عظة" له :

"إن روسوقد ألحق ضرراً أكبر كثيراً مما ألحقه فولتير وأكثر من كل الانسكلوبيديين مجتمعين".

وعندما صدر كتابه " العقد الاجتماعي " عام ١٧٦٢وبعده كتاب " إميل " منعت حكومتا فرنسا وجنيف تداول هذين الكتابين وطورد روسّو،لينتقل بين عدة أماكن ويسافر إلىانجلترا عام ١٧٦٦ حيث غدا هناك " مواطن شرف "وعاد ليموت بعيداً عن باريس في منطقة ريفية جميلة وبعد انتصار الثورة الفرنسية حمله الثوار المنتصرون إلى مدافن العظماء في

باريس بعد ستة عشر عاماً، قضاهامدفوناً في أحضان الطبيعة ،واحتفل بنقل رفاته احتفالاً عظيما لأنهم كانوا يعتبرون كتابه (العقد الاجتماعي إنجيل الحرية)....كمااعتبر كتابه " اميل " إنجيل التربية ..

صدر كتاب العقد الاجتماعي حين كان من الخطر أن يرفع رجل صوته ،لكن " روسو" لم يبال وطرح كل مايفكر فيه بروح قوي وأسلوب ثائر ولغة مؤثرة كتب عن حقوق الشعب وحقوق الفقراء، مخالفاًالسائد في عصره الذي يلخصه القول: " ... إذا كان الحكام كالذئاب وجب أن يكون الشعب كالغنم ...".

تأثر روسو في كتابه هذا بما كان يحدث في انجلترا وماكان يحدث في الماضي البعيد في عصر أفلاطون وسقراط وأرسطو..وأصبح كتاب "العقد الاجتماعي "إنجيل الثورة الفرنسية بعد وفاة روسو ١٧٧٨ ففي سنة ١٧٨٨م كان قادة الثورة يقرؤون العقد الاجتماعي في الشوارع ويهتفون له ، وعنه قال نابليون: " لو لم يكن روسو ما حدثت الثورة الفرنسية " فروسو بذر بذور الثورة فيما كتب وشاركه في ذلك عدوه اللدود " فولتير "، إذ لم يجرؤ على النقد الحر أحدٌ قبل الثورة الفرنسية إلاّ فولتير وروسو اللذين كانا من عشاق الحرية والصراحة في الرأي والقول، فكتب روسو يدافع عن الفقراء وينتصر للعامة تقوده العاطفة والوجدان الحي وقلبه الحساس وكتب فولتير يقوده عقله وذكاؤه النادر ،واطلاعه الواسع، يعلي من شأن العقل والمواهب العقلية، مُطالباً بنقل السيطرة من رجال الكنيسة إلىرجال العقل والتفكير ..

كان فولتير لا يعطف علىالفقراء في حين كان روسو يتألم لهم ويدافع عن حقوقهم ..

وقد قيل: إن السر في عظمة فولتير إنه كان ينادي بما كان يفكر فيه الشعب .

والسر في عظمة روسو انه كان ينادي بمايشعر به الشعب ..

حين كان " فولتير" و" روسو " كان الصوت الحر والرأي الصريح .قال أحد قادة الجيش للملك " لويس السادس عشر ": " في أيام لويس الرابع عشر لم يجرؤ أحد أن يتكلم....وفي عصر لويس الخامس عشر كان الناس يتهامسون وفي عصر جلالتكم قد رفعواأصواتهم..."

صار روسو أحد عمالقة الفكر المؤثرين بكتابيه " العقد الاجتماعي " و" إميل ".

ولكن الناس لا ينسون كتابه الهام " الاعترافات " الذي لم يكن لكتابٍ من التأثير في الأدب الفرنسي على مدى قرن من الزمان مثلما كان لهذا الكتاب،فقد كان " الأمّ" لكتب الاعترافات التي كتبها الرومانسيون الأول ،كما قد فتح هذا الكتاب في فن القصة القصيرة مقاصير الحياة الداخلية كمايقول" رومان رولان" (٢).

□□

هوامش

١- رومان رولان – آراء روسو الحية – دار العلم للملايين ،بيروت ١٩٦١، ص ١٣. ترجمة الدكتور محمود زايد.

٢- المصدر نفسه ص ١٥٤.

المراجع والمصادر :

١- جان جاك روسو –الاعترافات – دار الكاتب العربي – بيروت ،الطبعة الأولى، ١٩٦٨ جـ ١.

٢- جان توشار– الافكار السياسية – وزارة الثقافة – دمشق – ترجمة ناجي الدراوشة جـ(٣).

٣- محمد عطية الأبراشي – جان جاك روسو المصلح الاجتماعي ،دار إحياء الكتب العربية _ الطبعة الأولى ١٩٤٦.

٤- كارانفيلوف – أبطال وطباع – ترجمة ميخائيل عيد – منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي – دمشق ١٩٨٢.

٥- مايكل هارت – المائةالأوائل – ترجمة خالد اسعد عيسى وأحمد _ غسان سبانو – دار قتيبة للطباعة ـ والنشر دمشق، الطبعة الثانية ١٩٧٩.

٦- عبد اللطيف شرارة – معارك أدبية – دار العلم للملايين ط١، تشرين الأول، ١٩٨٤ (المقدمة).

٧- سمير عبده – نفسيات المشاهير – منشورات دار النصر – بيروت ط(١) ١٩٨٦.

٨- حبيب سعد – أعلام الفكر الفرنسي – مجموعة بحوث مُترجمة، دار الشرق والغرب – بولاق، مصر – دون تاريخ.



الفصل الثاني:

محدثون



برنـارد شـــو (١٨٥٦ – ١٩٥٠)

" العظيم هو أبعد الناس حديثاً عن نفسه "

نقدم (برنارد شو) نموذجاً لعقل متفتح يؤمن بالحياة، ويضع التطور فوق التقاليد ،كماأنه يصلح نموذجاً ليكون أديب أفكار، لا أديب ألفاظ ويصلح فوق ذلك ليكون مثالاً للتربيةالذاتية التي تقوم على الاختبار الفعّال في صنع النفس ،وأن التربية المدرسية أيّاً كانت درجتها، إنما هي تأهيل فقط وخطوط عريضة، عـاش (برنـارد شـو) أربعاً وتسعين سنة، عاش ثمانين سنة منهافي قراءة الوعي والتساؤل والتبصر يقول: " لقد كسبتُ شهرتي بمثابرتي علىالكفاح كي أحمل الجمهور علىأن يعيد النظر في أخلاقه ... وحين أكتب مسرحياتي أقصد أن أحمل الشعب على أن يصلح شؤونه وليس في نفسي باعث آخر للكتابة إذ إنّني استطيع أن أحصل على لقمتي بدونها .. وبهذا نعلم أنه كان يقرأ ويكتب من أجل الآخرين لا لمصلحة شخصية ..

حياة دون طفولة

تفتح " شو " على الحياة بين أبوين غير متنقين فاعتمد على نفسه وأحس المسؤولية ووضع لحياته هدفاً .. أمضى بعض السنوات من طفولته في مدرسة ابتدائية كانت هي كلُّ ماكسب من التعليم المدرسي لأنه ترك المدرسة ليعمل مع أبيه (محصلاً) يجمع إيجارات المباني التي تملكها إحدى المؤسسات، مقابل أجر متواضع ،ولكن ذلك العمل أكسبه ما هو أروع، وهو دراسة أحوال الفقراء وكيف يستغلّهم المالكون؟

ولأن حياته كانت في بدايتهانضالاً ضد الفقر، فقد جعل من مكافحةالفقر هدفاً رئيسياً لكل ما كتب باعتبار أن الفقر عنده مصدر كلّ آثام البشر، وأن الفقر معناه الضّعف والجهل والمرض والقمع والنفاق....

تحملّ (برنارد شو) مسؤولية العمل لكسب قوته وهوطفل .. وقضى زمناً لاطعام له غير البطاطس المسلوق ولا كساء غير بدلة واحدة يلبسها في كل الفصول ،وقد انسحب ذلك علىكافة مراحل حياته فيما بعد ،إذ بلغ به التقشف على أن يقتصر طعامه على النبات

،لايقرب الخمر، ولا يقتني من الأثاث غير السهل البسيط، ولا يرى في الشهوات الجسدية ما يستحق أن يتهالك عليه ..

برنارد شو ضد القيود...لماذا؟

لعل عدم خضوع (شو) للتقاليد وميله العارم نحو الحرية نابعٌ من أمرين: الأول عام،هو أصله الايرلندي والثاني خاص هووضعه الأسري....

ولد في (دبلن) في ايرلندا والايرلنديون معروفون بالدأب في طلب الرزق ونزعة التمرد، مع حب الفكاهة، وقد ألجاهم الحكم الأجنبي البريطاني إلى التمرد وألجاهم الفقر إلىطلب الرزق والكدح وأعانتهم الفكاهة على الضحك ورفض السلطة..

وأما عن وضعه الأسري، فقد ولد عام (١٨٥٦م) لأسرة فقيرة وكان والده رجلاً معتداً بنفسه، حلوالنكتة، سكيّراً ،ولعل هذا الأب أثر بابنه من الميل للسخرية وحبّها .. وكانت الأم مولعةً بالموسيقى ترفض التقيد بالتقاليد .. وكان هذان الوالدان أميل إلى إهمال الأبن وتركه وشأنه في كل حال ... ووجد (شو) في جوّ هذا البيت كلّ مايؤهله لنموٍّ في شخصيته غير خاضع لسُنّة أو عُرف.

وإلى جانب الأب والأم كانت له أختان .. ويعلق (شو) على عدد أسرته بطريقته المعتادة في السخرية فيقول: " إن ميلادعبقري يحتاج إلى هذه التجربة التي سبقته بولادة بنتين لم يطل العمر بواحدة منهن، أما الأخرى فقد عاشت ...."(١).

يقول (شو) إنه مدين لوالدته بتوجيه فطرته فمنها ورث حب الموسيقى كما ورث عن أبيه الجهر بالرأي ولا يُبالي بمخالفة المألوف، ومن والدته ورث الصلابة، ومن والده ورث التمرد على سلطان التقاليد، كما ورث من البيت الدعوة ليصبح نباتياً لا يأكل اللحم .. أن العيش بين أبوين لا يتشاركان في غير الثورة على التقاليد كان له الأثر الكبير في حياة (شو) الفكرية . بدرج برنارد الصغير وهومتفتح الذهن والعينين وتعلم القراءة وهو في نحو الثالثة من عمره ،ومن أقواله المأثورة في ذلك " إنني ولدتُ قارئاً ولا أذكر زمناً كنت فيه من الأميّين"!!(٢).

تعلم (شو) الاعتزاز بالنفس من أبيه ولكن أهم ماإستفاده منه هو تحريمه المسكرات على نفسه إذ أن عبودية الأب للمشروبات الروحية المسكرة ولّدت عند الابن ردّة فعل، فجعلها من المحرمات في حياته .

كان يقرأ منذ الخامسة من عمره وعند العاشرة اصبح الكتاب المقدس وآثار شكسبير جزءاً منه، وانتهى من قراءة أدب (ديكنز) في الثانية عشرة من عمره، وكانت قراءاته في

طفولته بتوجيه الذين حوله، وقد أتى وهو دون العاشرة على" ألف ليلة وليلة " و" روبسنون كروزو " وعندما كبر قليلاً بدأ بالاطلاع واستعارة مالم يستطع شراءه من الكتب، وتعلم اللاتينية والإغريقية والفرنسية وأصبح يختار مايقرأ ،وكان يرود المكتبات العامة واضعاً نُصبَ عينيه أن العقل هو الوسيلة الوحيدة لفهم الحقائق والتفاهم معها.

شو.. ضد الإكراه في التعليم:

لأن (شو) لم يتعلم في المدرسة شيئاً ذا قيمة ،دعا دائماً إلى التّعلم الحر لأنه يستثير الشوق في النفس.. وله رأي في هذاالمجال وهو أنه يعتبر من الإجرام أن نحاول إكراه الأولاد على تعلّم أشياء رغم إرادتهم، إن إرغامهم على تعلم مالايحتاجون إليه مثل إكراههم على أكل النشارة.. ولعل إيمان (شو) بهذه القضية كان من أهم أسباب نجاحه حيث اختار طريقه بنفسه ولم تفارقه عادة التوسع في المطالعة منذ الطفولة حتى أدرك الرابعة والتّسعين . وعن حُبّه للمعرفة يقول بسخريته المعروفة: " إنّني لم أحترم آدم دائماً لأنه انتظر حتى تغويه امرأة.. قبل أن يقطف التفاحة من شجرة المعرفة ..ولو كنتُ موضعه لأتيت علىكل تفاحة في الشجرة عند أول فرصة يُدير صاحب الحديقة ظهره لي!..

الفن رسالة:

آمن (شو) دائماً برسالة المعرفة الاجتماعية وسخر دائماً من مذهب (الفن للفن) قال باسلوبه للاذع "..... إنّني أنكر (الفن للفن) الفن بغير فائدة أو رسالة، لسبب واحد ذلك أنه أعظم من أن ينشده أحدٌ من الناس ...". ورسالة الفن هذه تنبع عند(برناردشو) من إيمانه بتغيّر الطبيعة البشرية حين نريد ذلك يقول :" لاشيء أعظم قبولاً للتغيير من الطبيعة البشرية إذابادر الموكلون بهامبكرين في تعهدها وتهذيبها ...."(٤).

إن إيمانه بالمعرفة المفيدة جعله يقف ضد المعلومات (الحشو) التي تملأ الدماغ دون حاجة إليها أو استعداد لتقبلها ويقف مع المعرفة التي تنفذُ إلى الذوق والفطنة ،المعرفةالعملية المتصلة بحقائق الحياة..

يحدد (برنارد شو) درب العظمة التي يرى أنّها تتجاوزالسعادة الشخصية . يقول بطل مسرحيته (قيصر وكليوباتره) الذي اعتبره الكثيرون (شو) نفسه ليس المهم عندي ماأحب وما أكره إنما المهم عندي أن أفعل ما يلزم ولا متسع عندي للاشتغال بنفسي..

والعظيم عنده هو الذي لا ينشغل بماهو موجود، بل بما هو مستطاع، يقول: " إن فلتات الطبيعة التي نسّميها بالعظماء لا تسجل ماأدركته الإنسانية بل تطمح دائماً إلى ما هو

مأمول ومستطاع.. كما أن العظيم عنده هو أبعد الناس حديثاً عن نفسه وحين يستطيع رجل عظيم أن يعرّفنا بقدره وجب علينا شنقه...؟!".

شو.. الإرادة وحرية الرأي

يُعتبر (برنارد شو) من المدافعين عن حرية الرأي وحرية النّقد وحرية الاجتماع، وتحدث أكثر من مرة عن جناية كبت الحريات من هؤلاء الذين يتحكمون بالآخرين، يقول: " إن الحضارة لن تتقدم بغير النقد ولا مناص لها كي تتجنّب العفن والركود من إعلان حريةالمناقشة .." وحق الحرية مُقدس عند (برنارد شو) ويؤمن بأن حرية الإنسان تنمو بالتربية منذ الولادة وغاية الحرية هي البطولة ..

وعن دور الإرادة والعزم في الحياة نرى(شو) يقول:"... إذا لم تكن لك عينان وأردت أن تنظر وأصررتَ علىمحاولة النظر وجدتَ لك عينين ،وإن كانت لك عينان وأردت كماأراد الخُلد أو السمكة التي تعيش تحت الماء – ألا تنظر فقدت عينيك " وإذا كنتَ تحبُّ طعم الأوراق الطرية على رؤوس الشجر وجمعت إرادتك كلّها في عنقك ،فسوف يكون لك في النهاية عنق طويلة كعنق الزرافة.."

وقال يُحدّد قانون الحياة عنده أقول لكم :" إني طالما أدركت أمامي شيئاً خيراً لن أهدأ حتى أبلغه أوأمهد إليه الطريق-وذلك عندي هو قانون الحياة...".

ويحدثنا (شو) أن الحياة البسيطة يمكن أن تكون منبعاً دائماً للإبداع وذلك حين يعترف: " لم أقم بمغامرات بطولية .. كل ماحدث أنني عشت حياة عادية ،وكلُّ ماكتبتُ في مؤلفاتي من كتب ومسرحيات هو قصة حياتي، وماعدا ذلك فهوالإفطار والغداء والعشاء لا يختلف عن أي روتين عادي...".

ويرى (شو) في شكسبير مثلاً على العبقرية المرتبطة بالعمل لأن شكسبير الطفل هجر المدرسة مبكراً ليساعد أباه، لكن ذلك لم يُبعده عن هدف حياته .. إن عمله هذا مع إرادته جعلا حياته القصيرة– التي لم تتجاوز الخمسين عاماً إلاّ بقليل – حافلة بالعطاء الخالد المتجدد مع الزّمان.

شو الذي تعلّمنا منه فيما ترك من آثار: ان الحياة الحقة هي التصميم على الحياة خارج الدورة العادية للحياة كما يعيشها العاديون من الناس لأنه يؤمن أن الجهد والفكر هما الأساس الفعلي لكل عطاء إنساني نبيل وهو القائل "إن طريق الحياة تمر عبر مصْنع الموت..".

مع الشباب والتجديد :

أما رأيه حول التجديد في الأدب، فيرى أن الأفكار الجديدة تستحدث لنفسها الصنّعة اللازمة لها كما تشق المياه المجرى الذي تسير فيه ورجلُ الصنّعة الذي لا أفكارله، يشبه في عدم جدواه مهندساً يشق قناةً لا ماء لها.. ولابدَّ في البداية من التقليد في العمل إلى أن ينضج الشاب فتلحُ عليه الأفكار طالبة التغيير .. كما يقول: " إنّ الأعلام في كلّ فنٍ يبدؤون حياتهم بالتقليد ولا يزالون يزاولونه حتى تنضج أفكارهم الخاصة إلى الحد الذي يتيح لهذه الأفكار أن تلحّ عليهم طالبة التغيير ..".

كمايحث الشباب على الوضوح ،لأنه أعظم وأثمن المواهب، لأن موهبة المعلم الحقيقي هي الوضوح ،وأنا – يقول شو: يمكنني أن أوضح أي شيء لأي إنسان وأجد متعة في ذلك..

كماحاول (شو) أن يبيّن للشباب خطر عدم المعرفة لأنها تحوّل الإنسان عن إنسانيته، وكذلك تفعل المعرفةعندما لا تقترن بالعمل ،فمن الأمان حقاً للشباب أن يعرف وأن يؤمن بمايعرف وأن يعمل بما يُؤمن ... وحين سأله أحد الشباب ماذا عليه أن يعمل كي يكون مؤلفاً ،أيتقن صناعة الكتابة؟، أجاب (شو) :" ليس هناك حاجة لأن تتعلم كيف تكتب إذا لم تكن قد اهتممت بموضوع ما تكتب عنه وفي نفسك شيء تقوله فإذا وجدت الموضوع ووجدت الاهتمام فإن الكلمات ترد إلىذهنك بسهولة...".

كما يحذّر (شو) الشباب من الإيمان الأعمى الذي يحجب التطور هذا التطور الذي يخشاه معظم الناس، ويدعو إلىالإيمان بالعقل لأن العقل لا يحل مشكلة إلاّ يثير جنبها عشرات المشكلات الجديدة وهنا يكمن التقدم المستمر .. ويرى (شو) أن أولئك الخياليين الباحثين عن السعادة الذاتية إنّما يعيشون في جحيم، وأن الشعور بالسعادة هو من نصيب أصحاب الواقع العمليين الذين يعيشون ويعملون ويواجهون الأشياء كما هي بعزيمة وإرادة..

برنارد شو والقارئ

إن أهمّ مايميز (شو) كتابةً أوحديثاً هو أنه يفاجئ القارئ أوالسامع ،وعدم مخاطبتهما بما يألفان أو ينتظران.. لأنه يرى أن هذا الإغراب في طرح القضية كالجرس الذي يُنبه السامع أو القارئ إلى ما سوف يأتي ،ثم يبدأبعرض ما يريد بظرفه وفكاهته ومقدرته على رسم الشخصيات، الأمر الذي يجعلنا بفضل فاعليته الفائقة نرى الشخصيات التي أبدعها أكثر واقعية في نظرنا من شخصيات الحياة الحقيقية ولهذا الكاتب مسرحيات عديدة لا يمكن نسيانها بسهولة لما فيها من مواقف تتصل عميقاً بحياتنا اليومية..فمن هذه المسرحيات

مسرحية (حيرة طبيب) المصدرة بمقدمة طويلة حول استغلال بعض الأطباء استغلالاً قبيحاً والمسرحية تؤكد هذه المقولة..

ومن يقرأ مسرحيته (بيت القلب الكسير) يستقر في وجدانه معنى هام ونبيل: هو أن الحياة تمشي نحو الدمار عندما لا يكون للإنسان هدف وإن الإيمان بهدف ما والعمل من أجله يحمي الإنسان من السقوط.."

ولا ينسى قارئ (شو)، مسرحيته الشهيرة (جان دارك) هذه الفتاةالتي اتخذت المسرحيةاسمها دفعت حياتها من أجل إيمانها الذي اختلف عن إيمان الآخرين .. وأنهاحين حققت ماكانت تصبو إليه – تحرير فرنسا وهزيمة أعدائها – تنظر حولها لتجد أخلص الناس يتخلّون عنها ويخونونها ويُدّبرون لها المؤامرات يريد (شو) أن يقول: إن البطلة عاجزة عن تدبير المؤامرات ضد الآخرين وقت السلم لكنها مليئةبالمواهب الخلاقة حين يكون الوطن في خطر زمن الحرب كماأن الأبطال مُجبرون دائماً علىالحرب في أكثر من جبهة ".

السخرية عند برنارد شو:

قال (شو) إن أسلوبي في المزاح هو أن أقول الحقيقة، وقال أيضاً: إن أسلوبي هو أن أتعب غاية التعب في استنباط ما ينبغي أن يُقال ومن ثم أقوله بأدنى العبارات إلى الاستخفاف.

وكان لـ (شو) من المفارقات البارعة ما جعلته مُنقطع النظير في العصر الحديث .حيث أظهر الكثير من الحقائق في ثوب الفكاهة وأظهر الفكاهة في ثوب الحقيقة..

وأدب (شو) حافل بالسخرية اللاذعة لأنها أسلوبه في قول الحقيقة ونودُّ هنا أن نأتي على بعض سخرياته في مختلف الجوانب على سبيل الأمثلة فقط يقول عن تحرر الإنجليز من التقاليد مُشيراً إلى حقيقة استعبادهم للتقاليد:" لن يكون الإنجليز أمّة عبيد، إنهم أحرار في أن يصنعوا ما تسمح لهم به الحكومة والرأي العام.."

– وعن هؤلاء الذين يهتمون بأناقتهم لدرجة يرون أن الرجولة تبدو في الأناقة، يقول:" إنه جنتلمان انظر إلى حذائه!! ".

–وعن العاطلين بالوراثة الذين يستغلون جهود غيرهم نراه يصرخ: " لاحقّ لنا باستهلاك السعادة بغير إنتاجها إلاّ كحقنّا باستهلاك الثروة بغير إنتاج."

وحين قابله أحدُ الصحفيين الذي استأثر بالحديث كلّه ولم يسمح له أن يتحدث كلمة واحدة قال :" فلّما انصرف سمحتُ له بنشر الحديث بشرط أن يكتفي بما قلت ويحذف كل ما قال!!".

وعن المبالغة في تقديم الطعّام للضّيوف يقول رأياً هو " إن الأكل الكثير يقلّل من حفاوة اللقاء لأن الإنسان لا يتكلم وهو يأكل ! وعندما اقترحت عليه فنّانه جميلة أن يتزوج بها عسى أن يرزقا طفلاً، له رأس أبيه العبقري ووجه أمه الجميل كان جوابه " اقتراح جميل ولكن أخاف من مكايد الوراثة فيأتي طفلنا وله رأس أمه الفارغ ووجه أبيه البشع.." .

يُروى أن رجلاً سميناً التقى (شو) فقال السّمين :" إن مَنْ يراك يا مستر (شو) يظن أن في بريطانيا مجاعة، وردّبرناردشو قائلاً: بل إن مَنْ يراك يظن أنّك سبب هذه المجاعة!!.

وسأله أحدهم عن رأيه في العالم حوله قال (شو) :" العالم مثل رأسي غزارة في الإنتاج وسوء في التوزيع " والمعروف عن (شو) غزارة شعر لحيته وطوله، بينما رأسه يكاد يخلو من الشعر.

لم يكّف (برنارد شو) عن السخرية حتى في أحرج لحظات عمره، قال وهو على فراش الموت، حول التزامه الطعام النباتي لمدة(٦٤)سنة :" لي الحق أن تُشيعّني قطعان البقر وأسراب من الخراف والدجاج و أحواض تحوي الأسماك ..... من الحق أن تمشي كلّها في حدادٍ عليّ..".

وبصورة عامة يرى (شو) أنه عندما يكون الشيء مُضحكاً أبحث عن الحقيقة المختفية، ويرى أن كل طُرفة هي كلمة مخلصة من أجل الحقيقة..

مواقف في حياة برنارد شو:

عندما منحته لجنة نوبل جائزتها لعام ١٩٢٥ رفضها وكتب إلى أمين سرّ لجنتها يقول: " إن هذه الجائزة كطوق النجاة الذي أُلقي إلى السابح بعد وصوله إلى برّ الأمان..".

وعندما فرض عليه قبول المبلغ المترتب على هذه الجائزة، تبرع به من أجل قضايا فنية وأدبية .

عاش (شو) نباتياً -كأبي العلاء المعري في تراثنا العربي – يجتنبُ الخمر وهو يقول .. إنّني مدين بصحّتي الجبارة وذخيرتي الهائلة من النّشاط لهاتين الخصلتين لأن الذي يحشو بطنه بالأجسام النتنة لا يستطيع أن يقوم بأفضل عمل.."

وأما عن ظاهرة التدخين فهو يؤمن أنه من السّخف أن ندفع المال كي ننظف مداخننا بعد أن نكون قد ملأنا غُرفنا بالأدخنة القذرة المنبعثة عن السيجارة البالغة الأذى وكان يرى في التدخين عادة بعيدة عن الجمال لأنهاتُضايق الذين لايمارسونها.

كان (شو) مُناهضاً للاستعمار بكل ألوانه وللاستعمار البريطاني خاصة ودافع دفاعاً حاراً عن(الفتى زهران) الذي أعدمه الإنجليز في حادثة (دنشواي) الشهيرة في مصر العربية ،وجاءت كتاباته حول هذه القضية حارة بحيث لم تضارعها كتابة في صدق الدفاع وشدة الغيرة على المظلومين ،وتحدث عنها حتى ربط غُلاة المستعمرين بين اسم (شو) وبين حادثة دنشواي لكثرة ما دافع وكتب ضد جرائم الاستعمار وبشكل عام فإن كتابات (شو) تقف مع المظلومين .. مع المرأة..مع الشباب .. مع حق الإنسان في العيش الكريم ،واستطاع أن يحول هذه المواقف التي يؤمن بها إلى أعمال فنيّة.."

في سنة ١٨٨٢ م قرأ(شو) كتاب " التقدم والفقر" لـ "هنري جورج" كما قرأ في السنة ذاتها كتاب " رأس المال " لـ " ماركس"..

وتركت هذه القراءات أثراً بعيداً في نفسه، بحيث صار يؤمن أنه من العبث محاربةالشرور الاجتماعية بالتعاليم الدينية، فالحرب والفقر والجريمة صمدت أمام المواعظ قروناً طويلة، وأن الكلام البليغ لا يقضي علىالفقر وأن الذي يقضي عليه هوالثورة الاجتماعية.

على الرغم من إيمان (برناردشو)بضرورة الثورة الاجتماعية،نراه أبرز أعضاء الجمعية الفابية، التي لا تؤمن بالثورة بل تدعو إلى الإصلاح دون عنف هذا في مواقفه الاجتماعية.. ولكنه في كثير من أعماله الفّنية غيرُ بعيد عن جوهر الماركسية عندما يربط بين الأخلاق وبين الأحوال المادية .. وعندما يؤمن بضرورة – القوة– الثورة لبناء المجتمع الاشتراكي ويعتقد (شو) أنه من الحظ الكبير للمثقف أن يهتدي إلى الفلسفة المادية منذ شبابه، لأنها تضيء العقل ،وتشدّ الإنسان إلى الواقع من أجل تغييره.

ترك (شو) موطن ولادته –إيرلندا– المستعمرة من قبل بريطانيا وهو في العشرين من عمره، ليذهب إلى انجلترا كغريب كأجنبي ،.كغاز كمنتصر.. وكأنه يقول: " لقد أخضعت (انجلترا) بلدي (ايرلندا) وما علّي سوى أن أخضع بدوري انجلترا لي "، وتحقق له ما أراد إذهو حسب قول البعض: قد قشط جلّد لندن وأجبر كثيرين ألاّ يتحدثوا عنه فحسب بل عن أفكاره أيضاً .. لذلك يمكن القول إن مغادرته لبلده –وهو في العشرين من عمره – لم تكن احتقاراً ولا خيانة لأنه ظل طوال حياته المديدة يحمل على كتفيه– آلام أول مستعمرة انجليزية.. من خلال نضاله من أجل تحرير بلده من الاستعمار البريطاني .

يُعطي شو للحرية معناها المحسوس القريب إلى أذهان العامة من الناس حين يصفهابقوله: إنها وقت الفراغ الذي يصنع فيه المرءُ ما يحلو له، لا ما يجب عليه.."

ويصف الكسل بأنه أحطّ الجرائم الاجتماعية، حين يتحدث عن العاطلين بالوراثة أولئك الذين يرتكبون جريمة الكسل والكسل شيء غير طبيّعي، ومُمّل، ولايمكن لأحدٍ أن يصبر عليه .

يقول (شو): " إن جميع المتازين بدؤوا حياتهم ثائرين، وأعظم هؤلاء المتازين يزدادون ثورة كلّماتقدموا في العمر ولعل هذا القول لا ينطبق على إنسان مثلما ينطبق على قائله نفسه الذي ظلّ إلىالتسعين من عمره مثار إعجاب ودهشة حيث لم يبدُ عليه ضعف أو انحطاط .. وظلّت مواقفه إلى آخر عمره، كما كانت في بدايتها، فهو الذي رفض أن يزور الولايات المتحدة الأمريكية حتى لا يرى سخرية القدر بوجود تمثال للحرية في بلدٍ يمتهن الإنسان أينما كان .. ذلك البلد – أمريكا– الذي انتقل من البدائية إلى الانحلال دون أن يعرف الحضاره..

برنارد شو هذا الذي حين مات(٢) أصدر (جواهر لال نهرو) رئيس وزراء الهند ورجلها العظيم أمراً بتعطيل الدراسة في المعاهد الهندية ثلاثة أيام حِداداً على وفاة أحد أفذاذا الأدب وأنصار الحريّة في العالم كان ذلك في عام (١٩٥٠)والذي يبدو أن شعوب العالم قد استفادت من برنارد شو كثيراً من الدروس بينمابريطانيا ظلّت بعيدة عن أفكار وقيم هذا الرجل.

من مذكرات شو:

لم أتعلق بالوظيفة لأنني دائماً كنت أرغب في إحراق مراكبي، كنت أسأل نفسي إلىمتى أظل في هذا العمل؟رغم أني لم أكن أعرف قيمة نفسي وماهو مصيري؟ ولكن أحد المتمرنّين في الحسابات عندي قال لي ذات يوم: " إن كل طفلْ يعتقد إنه سيصبح عظيماً .."

ذهلت لأني كنت أعتقد أنني وحدي الذي يعتقد ذلك في نفسه لاشيء يدل على أنني ولدت لأصعد سلم المجد، ولقد كان هذا الادعاء من موظف صغير في شركةمتواضعة يبدو ادعاءاً فظيعاً ومُرعباً ..

استفدت من عملي في الوظيفة، إذ تعودت على الدأب اليومي وأن أتعلم أي شيء بدلاً من أن أحلم بكل شيء..

---

٢ مات برنارد شو في شهر تشرين الثاني ، نوفمبر /١٩٥٠

لقد تخلصت من الادعاء الذي تربّى عليه أبناء عمي وهو التفاخر بالأجداد .

كنتُ أميناً في الشركة وكانت أمانتي عبئاً على ضميري لأنهاكانت مؤهلاً للعمل الذي أكرهه، وقد بدأت نشاطي الأدبي خلال هذه الفترة عام ١٨٧٦استقلتُ لأقذف بنفسي إلى لندن ولأنضم إلى أمي بعد أن توفيت أختي (أجنس)

وبعد أكثر من ثلاثين عاماً قررت أن أعود ثانيةً إلى بلدتي الأصلية ومررت علىالبناء القديم الذين كنتُ أعمل فيه استقبلني أحد الموظفين بلباقة .. لم يتذكرني !!.

لقد ظل هذا الموظف يحضر إلى هذاالمكان كلَّ يوم منذ ثلاثين عاماً، وأنا أجوب العالم طولاً وعرضاً.

كنتُ أميناً في الشركة وكانت أمانتي عبئاً على ضميري لأنهاكانت مؤهلاً للعمل الذي أكرهه، وقد بدأت نشاطي الأدبي خلال هذه الفترة عام ١٨٧٦استقلتُ لأقذف بنفسي إلى لندن ولأنضم إلى أمي بعد أن توفيت أختي (أجنس)

وبعد أكثر من ثلاثين عاماً قررت أن أعود ثانيةً إلى بلدتي الأصلية ومررت علىالبناء القديم الذين كنتُ أعمل فيه استقبلني أحد الموظفين بلباقة .. لم يتذكرني !!.

لقد ظل هذا الموظف يخضر إلى هذاالمكان كلَّ يوم منذ ثلاثين عاماً، وأنا أجوب العالم طولاً وعرضاً..

□□

هوامش :

١- برنارد شو (حياتي) ، نُشر على حلقات في مجلة (الهلال) القاهرة راجع عدد أيار ١٩٦٦ .

٢- المصدر نفسه .

٣- المصدر نفسه .

٤- المصدر نفسه .

مراجع عامة ومصادر:

١- عباس العقاد - برنارد شو(إقرأ) عدد (٨٩) نيسان (إبريل) ١٩٥٠ ، دار المعارف بمصر.

٢- برنارد شو، دليل المرأة الذكية - مطابع دار القلم - القاهرة .

٣- برنارد شو " حياتي " نشرعلى حلقات في مجلة الهلال المصرية ١٩٦٦ .

٤- سلامة موسى " هؤلاء علموني "- سلامة موسى للنشر والتوزيع الطبعة الثالثة ١٩٦٥ .

٥- ج ب كوتس - قادة الفكر الحديث -

٦- خالد القشطيني " في ذكرى برنارد شو" مجلة الآداب عدد (٨)، آب١٩٦٠ .

٧- دكتور علي الراعي، مقال عن (شو) مجلة الفيصل عدد (٩٣) كانون أول (ديسمبر) ١٩٨٤ .

□



هيلين كيلر (١٨٨٠-١٩٦٨)

"الإرادة .. انتصار على العاهات"

بعد ولادتها بخمسة أشهر أُصيبت هيلين بالتهاب في الدماغ فقدت معه السمع والبصر معاً..

وبعد انقضاء أربعة عشر ربيعا مُظلماً عليها قالت بكل ثقة: " سأذهب إلى جامعة هارفارد ذات يوم..".

" الجو دافئ" أول جملة نطقتها .. وعرفت معنى كلمة (حب) بأنها الخطوط غير المرئية بين روحها وأرواح الآخرين..

ترجم كتابها الأول (قصة حياتي) إلىخمسين لغة ومنها لغتنا العربية..

...

" هيلين كيلر " ليست وحدها مّمن قست عليهم الحياة في هذا العالم ولكنهامع قلّة من أمثالها استطاعت أن ترتفع فوق قسوة الحياة وشقّت الطريق الوعرة بمساعدة الأب والأم والمعلم ،وفي أحيان كثيرة لا يوجد واحدُ من هؤلاء في حياة بعض هؤلاء العظماء.. ونتذكر هنا في تراثنا العربي " أبا العلاء المعري " و" بشار بن برد"، والدكتور طه حسين، والشاعر اليمني عبد ا لله البردوني ،وسواهم في تراثنا الحديث.

ولا أنسى أنه في أحد أيام عام ١٩٦٥انعقدت ندوة فلسطين العالمية في جامعة القاهرة حين قام كفيف ليتحدث باسم الوفد الفلسطيني اقتاده أحدهم إلى منّصة الخطابة وشرع يقرأ بالإنجليزية بطريقة (بريل) وكانت كلمته التي تترجم فورياً من أبلغ ما سمعه الحاضرون في تلك الندوة.

سمكة .. خارج الماء

ولدت كيلر في ولاية (ألاباما) الأمريكية عام ١٨٨٠م ولادة طبيعية ولكنها أصيبت وهي في الشهر الخامس من عمرها بالتهاب في الدماغ مما جعلهاتفقد حاستي السمع والبصر معاً.. وبعد ذلك اكتشفت أنها لا تستطيع النطق ،وشيئاً فشيئاً أحست أن الآخرين يتفاهمون بغير

الاشارات التي كانت مُجبرة على استخدامها .. وظلت تشعر بالغربة حتى التحقت بمعهد الأطفال المكفوفين في (بوسطن) وقالت بهذا الصدّد لقد سرّني جداً أن أجدهم يعرفون الأحرف الهجائية اليدوية ..

وتحدثت معهم (بلغتي الخاصة) المنتمية إلى العشوائية التي يتخبّط فيها أي أبكم مع العالم الخارجي..

بالنسبة (لكيلر) لم يكن باختيارها أن تبدأ رحلة الحياة صمّاء بكماء ،كما لم يكن باختيارها أن تولد في مجتمع الفردية والمال والعنصرية والعنف ولكن والدها ذا القلب الكبير كان يروي لهاأفضل القصص (قصصه) فهو أحد القصصيين المشهورين بتهجئتها عن طريق لمس يدها ولم يكن يسره شيء أكثر من أن تُعيد سرد القصة في لحظات مناسبة وكذلك والدتها التي كانت تقرأ لهاقصة فتاة صمّاء كفيفة وقالت (كيلر) عن والدتها: " ... حديث أمي كان لي كنزٌ كبير لن أبوح به للآخرين ولا أنسى أن بداية تحركي نحو عالم النور كان بفضلها .."

وفي معرض حديثها عن انتقالها إلى معهد المكفوفين (ببوسطن) قالت: كنت في بلدي سمكة على الشاطئ أما الآن فأنا أعيش في الماء لقد كان الأطفال في هذه المدرسة يضعون أيديهم فوق يدي حين أتحدث إليهم ،وكانوا يقرؤون الكتب بأصابعهم .. وكان التحاقي بهذا المعهد من الأحداث المهمة في حياتي ..

بعد أحد عشر درساً من المعلمة (ساليفان) في المعهد ببوسطن أعلنت الطفلة (كيلر) التي بلغت العاشرة من عمرها أنّها ستتعلم كيف تتكلم بفمها ،كمايتكلم غيرها من الناس وليس بأصابعها كشخص أبكم ،وغدت تقول لكن دون وضوح " لست الآن بكماء" ....' وهنا بدأت رحلة النضال الشاقة لتتخلّصّ من عالم الظلام والصمت فعن تعلمها النطق قالت: " كنتُ أضع إحدى يدي فوق حنجرتي بينما أتحسس باليد الأخرى حركات شفتي وكانت آنستي (فوللر) قد درّبتّني على النطق بالطريقة التالية: " جعلتني أمرّر يدي برفق على شفتيها وأتحسسهما عندما تتحدث .... اشتقت أن أقلّدها..".

(الجو دافئ)، أول جملة نطقتها..

تقول كيلر: " لا يمكن أن أصف اللحظة عندما نطقت أول جملة (الجو دافئ)... لأني تحررت من سجن رهيب، والطريق على أمثالي وعرة، ولكن بإرادتي من جهة، وجهد آنستي (سوليفان) من جهة أخرى استطعتُ أن أتخطّى جميع العقبات، ولقد أدهشتني السهولة في الكلام بالنسبة إلى التهجئة بالأصابع .. في البداية لم أكن أفهم شيئاً إلاّ إذا لمسته

.. ولكن آنستي تهّجت لي مرات ومرات كلمة (فكّري) وقد عرفت بعد ذلك أن هذه الكلمة تعبر عما يدور في الرأس وعرفت أن هناك كلمات تدل على الأفكار مثلما هناك كلمات تدل على الأشياء ..

إذن هناك كلمات لايمكن لمسها ،وعرفت معنى كلمة (حب) بمساعدة الاكتشاف الجديد وعرفت – أنه أي الحب – الخطوط غيرالمرئية بين روحي وأرواح الآخرين وكشفت بهاء لحظات التواصل مع الإنسان.

ميلاد الروح

تعتبر (هيلين كيلر) يوم لقائها بمعلمتها في (٣) آذار (مارس)من عام ١٨٨٧م تعتبره عيد ميلاد روحها إذ بدأت على يدي هذه المعلمة تقرن الكلمة بالفعل، والفعل بالكلمة وعرفت منها أن لكل شيء اسماً وعليها لذلك أن تتعلّم الأسماء ...

تقول عن معلمتها " لم تكن تضايقني بالأسئلة إنما تُريد أن استوعب ما أقدر عليه ... لا ماتريدني هي أن أحفظهُ..."

لقد وهبتني الآنسة (سوليفان) الشجاعة وحالت دون أن أتوقف عن محاولات الكتابة، ... في أكثر من حادثة كان بإمكان واحدة منهاأن تغير مجرى حياتي... لقد أيقظت المعلمةُ روح التلميذة وعلّمتها القراءة بلغة الأصابع في حوالي السابعة من عمرها.. أول ما تهجت لي كلمة(دُمْية) ثم قدّمت لي قطعاً من الكرتون عليها حروف مطبوعة بشكل نافر، عرفت أن لكل كلمة مطبوعة معنى.. وقادها الكرتون النافر إلى الكتاب المطبوع " وبدأت أبحث في كتاب المبتدئين عن الكلمات التي أعرفها .. وهكذا بدأت القراءة عندما أوشكت المعلمة على الموت، قال بعضهم يريد تخفيف بعض ألمها :" شدّي حيلك فإن هيلين لا يمكن أن تمضي بدونك.." .... المعلمّة أجابت والأسى يجتاح كيانها: ". إن ذلك يعني أنني فشلت"، لقد كان هدف هذه المعلّمة أن تحرر هيلين .. تحررها حتى منها،حتى من الحاجة إليها..وبعد ذلك تذكرت عملها الدؤوب وشعرت أن التلميذة لن تفشل .. وصدقت نبوءة المعلمة حين قالت التلميذة بعد ذلك: " قد يظن الناس أن المعلمة تركتني ..لا إنها لم تتركني فما زالت إلى جواري في كل حين .. إن العجب يملؤني وأنا أفكر بفارق الظلمة والنور في حياتي قبل مجيئها وبعده ،إذ الحق أقول: إن عقل معلمتي وروحها المتازين ثم تفّهمها السريع لي وحكمتها المحبّبة هي التي جعلت أولى سنوات تعلّمي جميلة للغاية،كانت هذه المعلمة تؤمن أن عقل الطفل يشبه جدولاً صغيراً بحاجة إلى التغذية كي

يتوسّع ويتحول إلى نهر عميق ..إن بإمكان أي معلم أن يـأخذ طفـلاً إلى غرفـة التعليـم ولكـن ليس بمقدور أي معلم أن يجعله يتعلّم، فالطفل لن يقبل على التعلّم إلاّ إذا كان مسروراً ..

ظلت المعلمة ترافق تلميذتها (هيلين) لمدة خمس عشرة سنة ترافقهافي الصف وتنقل لهـا المحاضرات والدروس عن طريق لمس اليدين وكذلك الأفـلام السـينمائية والمسـرحيات .ظلـت المعلمة كذلك إلى أن وافتها المنيّة عام ١٩٣٦م.

تقول (كيلر) عن نفسها: " أتيت إلى هذا العالم وتفتحت عيناي على النور وانتصـرت كما ينتصر أول طفل في العائلة وعشت أنعم بحواسي ربيعاً قصيراً واحداً تملؤه أغاني الطيـور ،وصيفاً واحداً سخيّاً بالفاكهة والورود، وخريفاً ما أجمل لونه الذهبي ،ثم جاء عـام ١٨٨٢م ليغلق عيني وأذني ويغرقني في حالة من الغيبوبة .. لا أتذكر متى اكتشفت أنني أختلف عن الآخرين..".

كان على كيلر أن تقوم بأداء مهمتين معاً علىامتداد ثمانية عشر عاماً، مهمـة الانتصـار على عاهاتها ومهمة ارتشاف العلـم وتـأصلت في نفسـها فكـرة الالتحـاق بالجامعـة تقـول: " دفعني إلى ذلك شوقي للسباق مع الفتيات المبصرات والسامعات"وفاجأت أصدقاءها في مدرسة (كامبردج) للبنات "سأذهب للجامعة ذات يوم " وتحققـت أحلامهـا الواحـد تلوالآخـر فمـن معهـد (بوسـطن) إلىمدرسـة الصـم (بنيويـورك) إلىمدرسـة (كامـبردج) للبنـات إلىجامعـة (كامبردج) في(هارفارد) وكان ذلك في خريف عـام ١٩٠٠م تقـول: " كـانت الخطّـة أن تكـون معي مدرستي لتحضر الدروس ثم تلقنني إيّاها وكـانت طريقـتي الوحيـدة للسـماع هـي قـراءة الشفاه بيدي، فالشخص الذي يقرأ لي أو يتكلم معي يتهجّى بيديـه وهـو يسـتخدم الأحـرف الهجائية اليدوية، يتهجّى بيدٍ واحدة فقط وأنا أضع يدي برفق فوق يد المتكلّم ووضـع اليـد هذا يسّهل الإحساس كما تسهل الرؤية فأنالا أتحسّس كل حرف بأطول مما تنظر أنـت كـل حرف بمفرده عندما تقرأ ..ومع الزمن تحولـت مـن قـراءة كتـب الأطفـال إلى قـراءة الكتّـاب العظام وعرفت عن طريق الكتب كيف أن الإنسان عن طريق كفاحه بالفكر قد تقدم كثيراً.. ".

الإرادة أولاً..

حين صممت (كيلر) أن تدخل الجامعة كانت تمتلك قوةً في داخلها أقوى من صلـوات سواها من المعوقين والمقربيّن وأعمق من الشّك الذي ينتابها بين الحين والآخر – كـانت تلـك القوة تلح عليها لأن.تختبر مقدرتها بالمعيار نفسه الذي يستخدمه مـن يملـك حاسـتي البصـر والسمع .. ولأنهاكانت تؤمن أن تقدم العالم نحوالأجمل مسكون بأرواح العظماء الذين قهـروا بإراداتهم كل عوامل الإحباط واليأس ..

وتخرجت من الجامعة عام ١٩٠٤م بدرجة ممتازة وألفت كتابها الأول (قصة حياتي) الذي كان درساً في الإرادة للإنسان في كل مكان ،وتُرجم إلى خمسين لغة منها اللغة العربية، وألفت كتابها الثاني (عالمي الخاص) عام ١٩٠٨م وأعقبتهما بكتابيها (السلام عند المساء) عام ١٩٣٢و(ليكن لنا إيمان) عام ١٩٤١.

إن " كيلر" كانت تتقن الكتابة بأحرف (بريل) النافرة وتستخدم آلة طبع خاصة، ويروى أنها نادراً ماكانت ترتكب أخطاء طباعية لقد كانت متمكنة من اللغة حاضرة الذهن دائماً..

الحضارة عند كيلر

قامت كيلر بجولة في معظم أنحاء العالم لتدفع الأمل إلىنفوس ذوي العاهات المختلفة ومشوهي الحروب، وكانت تؤمن أن السلام يبقى حلماً مادامت هناك نفس واحدة تحيا في عزلة الظلام ،ولا شك أنها كانت بذلك تبيّن جرائم الحروب الامبريالية، التي تترك كثيراً من البشر سجناء هذه العزلة وكانت تؤمن أن الحضارة لم تعُد مسألة إقليمية ..

إن عملها من أجل ذوي العاهات هو مادعته بـ(عمل الحياة) وقد مارسته طوال حياتها الفاعلة ،لأنها كانت تجهز نفسها للقيام به منذ طفولتها ،واستمرت تقوم بهذه الرسالة إلى أن وافتها المنية في حزيران (يونيه) من عام ١٩٦٨م وخلفت وراءهامسيرة حياة أشبه بالمعجزة.. وما كانت تزور بلداً إلاّ منحها جائزة أو وساماً أو لقباً لقد كانت (كيلر) وستبقى مثلاً حياً ورائعاً لإرادة الخروج من ظلمات اليأس حتى لمن يسمعون ويبصرون ..

□ـا

المصادر والمراجع:

١- ميلين كيلر - قصة حياتي -ترجمة أمين موسى قنديل.

٢-ميلين كيلر- (معلمتي آن سوليفان) - ترجمة الدكتور.فوزي حسين النجار - دار المعرفة - القاهرة ، د/تا.

٣- الناجحون - كيلر - المرأة المعجزة - دار العلم للملايين - بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٠ .

□

لـويـــــس بـاســـتـور (١٨٢٢-١٨٩٥)

" أهم ثلاثة ألفاظ عندي : الإرادة، العمل، الصبر "

لا يستطيع أحد من البشر أن ينكر دور العالم العظيم " لويس باستور" ... هذا العالم الذي ارتبط اسمه بتخفيف آلام البشر، والذي جعل من الإرادة والعمل والصبر، أهم ثلاثة أركان في حياته شاد عليها هرم نجاحه...

إن الإرادة هي التي تفتح أمامنا الباب، باب المهنة السعيدة الناجحة، والعمل يجتاز بنا العتبة في مرحلة يتحتّم فيها علينا الصبر والترقب ثم يُقبل النجاح متوجاً جهودنا الصادقة . كان الصبر على العمل، أهم مايتصف به، وصلابة الرأي أبرزمزاياه وقد تحقق في حياته قول " ماريو بوزو" في رواية " العـّراب " "العظماء لا يولدون في العظمة إنهم يعظمون..." .

إن باستور لم يولد عظيماً بل صنع عظمته بإرادته وصبره، كتب عنه أحد معلميه ،يقول: " ... هو أودع رفاقه في الصّف وأصغرهم وأبعدهم عما يَنّم عن مخايل النجابة وما يتوسم منه الخير" (١).

هذا مارآه معلمه في واقعه المنظور .. ولكن الواقع الممكن الذي صار إليه " باستور" من صنع إرادته ،كان جاداً في طفولته شأنه في صباه وكان ذا نهم للإطلاع لا يشبع، كثير اليقظة والتساؤل في سبيل المعرفة لدرجة أن أحد معلمّيه عنّفه لكثرة أسئلته قائلاً له: " دعني ياهذا أقول لك مرّة أخرى بأن عمل التلميذ ينحصر بالإجابة عن الأسئلة لابإلقائها.."!!

بين الوالد والمعلم :

كان والد باستور " دباغاً " أراد لابنه أن يكون مثقفاً أوفده إلى(باريس) بعد أن أنهى دراسته الإعدادية في (أربوي) كي يتابع تحصيله في (دار المعلمين) لكن المرض أقعده عن متابعة الدراسةهنا، وبعد أن تعافى أرسله والده إلى الكلية الملكية التي تخرج منها عام ١٨٤٠يحمل (ليسانس) في الآداب وكان يدرس الرياضيات في الوقت ذاته وحصل بعد عامين على(بكالوريس) في العلوم التي أولع بها حداً رغم عدم تفوقّه في الكيمياء التي صمم أن يكون ذا شأن فيها ،رغم نصيحة أصدقاء والده الذين قالوا ": ..يسوؤنا أن يضيع وقت ابنك

سدىً في علم لا طائل تحته ولا جدوى...". ولكن الوالد كان يثق بكفاءةابنه، ويثق بما لديه من استعداد وجلد الأمر الذي دعاه ليردّ على ناصحيه من الأصدقاء بقوله: " أستطيع أن اعتمد على ابني في حسن اختياره ولا ريب عندي أنه لن يختار إلاّ الأصوب..".

وحين شعر الفتى أن ثقة الوالد تهتز لضعفه في الكيمياء كتب إليه يقول: " ... عفوك اسأل ورضاك، أرجو منك أن تثق بي وأن تصبر علي سأكون عند حسن ظنّك بي كلّما ثابرت ألا بعض حلمك ياأبي .."(١).

تابع " باستور "منهج الدكتوراه في الكيمياء (بباريس) بنشاط وذهب يعطي بعض الدروس اليومية كي يكسب نفقاته الخاصة ويُتابع تعليمه وراح يقتن في طعامه وشرابه ووقوده حتى يوفر على ذويه وكثيراً ما عضّه الجوع .. كتب عن هذه الفترة من حياته يقول: " ... كان الجوع يشتد بي كان الصداع من الناحية الأخرى يلم بي على أعنف مايكون وهكذا كان الألم يمحو الآخر أو هكذا كان يخيل إليّ يُنسيني الصداع وطأة الجوع..".

كان لأستاذه في الكيمياء أثره البالغ في تقدّمه في هذا العلم . دفعه الإعجاب إلى أن يتحدث لوالده عن هذا الأستاذ بقوله :" ..فهو استاذ موهوب حقاً، وهو ليس عالماً فحسب، بل شاعر كذلك، يثير حب الاستطلاع في سامعه إلى أبعد حدود الإثارة؛ ويُلهب الخيال بلفظه الأنيق وبيانه المجنّح "(٢).

كان من أثر هذا الأستاذ أن بدأ الطالب (باستور) يُجهزّ أُطروحتين للدكتوراه في هذا العلم ..

بدأت أخباره تصل إلى والده الذي قال :" ... تهلّل كلُّ مَنْ في الدار لأنبائك السارة فنحن أعجز من أن نحكم على أطروحتك، ولكننا نستطيع أن نحكم على خُلقك وأنت من أرضيتنا يابني باجتهادك.."(٣).

باستور وحقيقة اصل الحياة:

تقدم باستور نحو النجاح العظيم باجتهاده الذي أرضى والده بينما تخلف رفاقه فحسدوه، وبدأ كثيرُ منهم يصوب إليه سهام الغيرة.. ولكنه تابع بكل جهده اكتشاف لغز الحياة والموت . قال :" ارجو أن أوفق في خطواتي قريباً بالإجابة عن سؤال الأجيال بألا يستغرق طويلاً بحث هذا الموضوع الشائك خاصة أن الناس يؤمنون بأن الحياة تنشأ تلقائياً من مادة ميته حسب مقولة (أرسطو الشهيرة " الحياة تنشأ من جسم رطب يجف أوجسم جاف يرطب.."

وذكر " فرجيل" شيئاً قريباً من قول " أرسطو حين قال: " إن النمل ينبثق إلى الحياة من جيفة ثور". وأمام ثبات واستقرار هذه القناعات المسبقة الجاهزة في عقول الناس حوله، كان عليه أن يتجرأ على هذاالإيمان القديم وأن يستعد في الوقت نفسه كي يتحمّل رشقات سهام المؤمنين به لأن أكثرهم علماً كان اشدّهم انتقاداً ،وتطاولاً عليه إلى حد أن نعتوه بالمشعوذ والمهرّج ..

وحين أعلن بعض العلماء من معاصريه للنّاس صحة الخلق التلقائي الذي قال به أرسطو.. ابتسم " باستور" وقال لزوجته ماقاله لأبيه في رسالة: " التجارب بعيدة عنهم كل البُعد ،أما ما يقولونه عني فلا قيمة له عندي ولاشأن وعلى رجل العلم أن يفكر بما سيُقال عنه في الأجيال المقبلة لا بالتجريح أوالمديح الذي يُغدق عليه في حاضره ..".

وقد وصل الجدل حول أصل الحياة إلى لجنة أقرّت رأي باستور الذي يقول بأن الحياة وحدها تستطيع أن توجد حياة أخرى وهكذا انتصر باستور حين توصل إلى اكتشاف حقيقة أصل الحياة فصار عميداً لجامعة العلوم في (ليل).

باستور .. وحفظ الحياة

بعد أن اكتشف حقيقة أصل الحياة، بدأ يفكر بقضية أخرى لعلّها أعظم أهمية من الأولى وهي: كيف يحفظ الحياة؟! شاع عنه ذلك لدرجة أن الناس،هرعوا إليه عندما هبط داءٌ خطير بدودة القز .. تذمروا عندما لم يجدوا الدواء المناسب بالسرعة المناسبة .. وكان يردُّ عليهم بالصبر أخذ الموت أحد أبنائه ،وما جفّت دمعته حتى اختطف الثاني، ثم تطاول على ولدهِ الثالث فهمس في أذنه صديق حميم: " ... أما أن تتابع عملك في مثل هذه الظروف القاسية فجرأة ما بعدها جرأة.."

أجابه باستور :" أجهل يا صاحبي مايتعلق بجرأتي كل الجهل، ولكن أعلم ما يتعلق بواجبي كلّ العلم ..."(٤).

هذا العلم بالواجب جعله يلازم عمله رغم العواصف حوله بحيث كان يعمل ثماني عشرة ساعة كلّ يوم..بعد تجارب تميزت بالصبر أعلن " باستور" أن مرض دودة القز موروث عن بيض موبوء ،ونادى بإبادة هذا البيض عند ذلك حاول تجار البيض الانتقام منه وأطلقوا الشائعات ضده وكان يجيب دائماً بالصبر إلى أن تحوّل الناس إلى الإيمان بما قال . أقام له سكان القرية التي اشيع أنه طُرد منهاتمثالاً تقديراً له .. وعندما وصله علمُ ذلك قال معلقاً :" ((.. أنا لا أجد في الرخام مجداً وشرفاً فإنما مجدي وشرفي في تخفيف أذى النكبة التي ألّمت ببلادي ولو على حساب التضحيّة بشخصي...".

وحين تعجب الكثيرون من أن عمله الدؤوب لم يعد عليه بغير العيش الشريف المتواضع ومنهم نابليون الثالث عندما التقى به قال باستور يرد عليهم: " يحط العالم من قدر نفسه إذا عمل في سبيل نفعه الشخصي . " .

صار باستور شهيراً إلى حد كانت فرنسا تهرع إليه عند كل وباء يؤثر في اقتصادها..

على أثر صفقة فاسدة خسرت بلاده معهاالملايين، اكتشف مبدأ التعقّيم (البسترة الذي جاء نسبةً إلى اسم باستور)والذي ينعم به العالم جميعه .. قضى بعملية التعقيم هذه على الطفيليات التي كانت تعيث فساداً في طعامنا وشرابنا في عام ١٨٦٧م نشر دراسته الشهيرة عن التخمير ،وطارت شهرته واعتبرته الأوساط العلمية (أعظم حجّة للكيمياء في عصره).

توصل باستور نتيجة تجاربه إلى أهمية عملية التطهير أثناء العمل الجراحي،تطهير اليدين والضمادات والمشارط لأنها تحمل ملايين الجراثيم التي يحفل بهاالهواء ،وكانت النتائج باهرة منذ البداية حيث انخفضت نسبة الوفيّات في العمليات الجراحية خلال عامين من ٩٠٪ إلى ١٥٪... .

عارضه بعض معاصريه في نظرية التعقيم لأنها جديدة ولكنه انتصر عليهم كما انتصر علىالجراثيم ..

بينما ظل يتابع معاركه العلميةمن أجل حفظ الحياة استمر الرجعيون في معاركهم ضده، حتى وصل حقد بعضهم وحسده إلى أن دعا باستور للمبارزة حين لم يستطيعوا الاعتداء عليه، وكان ردّ العالم الكبير :

" إن مهنتي تنحصرُ في شفاء الناس وتخفيف آلامهم لا في ترويعهم أو قتلهم..".

– من اكتشافات (باستور)، (التحصين) التلقيح كمانعرفه اليوم وذلك بحقن الجسم السليم بجراثيم المرض ولكن بشكل مخفّف وقضى على " داء الكلب" عند الأرانب وذلك بتلقيح الأرانب بلعاب الكلاب المسعورة، ثم طبق الأمر نفسه على الإنسان فنجح وهلّلت باريس لانتصار عالمها فانشأت بلديتها معهداً باسم باستور تقديراً له وتخليداً ...

باستور ... والوطن

ما كانت نجاحات باستور العلمية الباهرة لتمنعه من المشاركة في الدفاع عن حريةالوطن حين يدعوه الواجب، ففي ثورة عام ١٨٤٨ قدم في سبيل بلاده ما كان يدّخره وهو (١٥٠) مئة وخمسين فرنكاً وهو يقول " " لن أتلكأ عن التضحية بنفسي إذا دعا الداعي ولا على إن تضيتُ على مذبح الحرّية.. "(٥).

عندما غزا " بسمارك "فرنسا واستباح حماها ثارت حمية العالم الرصين ... وحين حال مرضه (الشلل) دون رغبته في القتال لم يجد للتعبير عن احتقاره لما فعله الألمان خيراً من ردّ شهادة الدكتوراه الفخرية التي كانت قد منحته إياها جامعة (بون) يقول في ذلك " ((... يدفعني ضميري الحي إلىإعادة شهادة الدكتوراه إليكم، دلالة على سخط عالم فرنسي واشمئزازه من بربرّية القيصر والذين يؤازرونه من ذوي العنجهية والغرور ،ويتوقون مثله إلى استمرار المذابح بين شعبين عظيمين ،وأطلب منكم أن تمحو اسمي من سجلات جامعتكم...".

وكان ردُّ الألمان عليه: " .. ونحنُ رغبةً منّا في الاحتفاظ بسجلات جامعتنا نقيّة لا تشوبهاشائبة نُعيد إليك كتابك ههنا مردوداً مع السّخط..".

هذا بعضُ مماقدّمه العالم العظيم (باستور) من أجل وطنه ،ومن أجل البشرية، وبسبب نجاحاته انهالت عليه ألقاب الشرف، ومُنح الأوسمة ،واقيمت الاحتفالات من أجله وقدّره الملايين من البشر..

وكل هذا المجد لم يغيّر من سير العمل عنده فقد ظل على تواضعه ،وعلى صلابته في الدفاع عما يعتقد أنّه الحق وظل كذلك يضع كل إمكاناته في كلمة كانت شعار عمره كلّه وهي (العمل) فصار عظيماً.

* * *

احتفل العالم بعيده الذهبي الخمسيني (يوبيله) في باريس عام، ١٨٧٢فقال له: " ليستر." أحد الجراحين الكبار: " لقد جاءت أبحاثك نوراً علىظلام الجراحة، وغيّرت العمليات من عمل طبي مجهول العقبة، إلى فنّ علمي مُفيد على وجه التحقيق ،ويُدين لك الطب بفضل باق علىالدهر أبداً...". وفي حفلة أقيمت على شرفه بجامعة (ادنبرة) جاء ممّا قيل عنه: " إن العالم أجمع مدان لباتسور بفضل لم يدن لأحد قبله ..".

مثل باستور بلاده في مؤتمر طبي عالمي في لندن ولم يعرف أنه مثار إعجاب الآخرين ولماأخبروه بأنه المعني بهذا الترحيب الحار أطرق حياءً وقال: " شكراً لتقدير العلم في شخصي المتواضع..))

حين دخل المجمع العلمي الفرنسي كان الفيلسوف (رينان) على رأس هذا المجمع رحّب بالعالم الجليل فقال: " إنّنا نرحب بك أجمل ترحيب وأحرّه فانت مُتقبل إلينا فوق كل شيء بأمجادك وعبقريتك ونبوغك وبشهرة مستفيضة من الاكتشافات الرائعة فأهلاً بك وسهلاً..".

كان ضعيفاً حين احتفل العالم بعيده السبعين فأناب ابنه في قراءة خطابه الذي جاء فيه ..: " .... ماأعظم سعادتي عندما أراكم، عندها أعتقد اعتقاداً جازماً بأن العلم والسلام سينتصران على الجهل والحروب ورغبتي إليكم إلاّ تأذنوا لبعض ساعات اليأس التي تمرّ بهاالأمم، أن تثبط عزائمكم ،وليكن لكم إيمان بأن الأمم ستتعلم أخيراً كيف تتحّد لا للخراب والدمار ولكن للتعاون الوثيق، وأن المستقبل ليس للمنتصرين الغزاة بل لمنقذي الإنسانية وتخليص الجنس البشري ...".

عام ١٨٩٥ قال: " .. معذرة لا أستطيع.." حين قدّموا له كأس حليب ..

وهكذا ودع الحياة واحد من أعظم الرجال الذين أنجبتهم فرنسا، رجل سخّر العلم لنفع الإنسانية...

وليس هناك ماهو أعظم من التكريم الذي لاقاه العالم الكبير رجل السلام والإنسانية، الذي ارضى والده (الدباغ) بالجهد والعمل المتواصل الأمر الذي جعله يصنّف في مكان متميزّ بين المئة الأوائل في تاريخ البشرية..

□□

المراجع والمصادر:

١- جورج سلستر - عباقرة العلم في الغرب - دار العلم للملايين - بيروت د/تا.

٢- جورج سارتون- تاريخ العلم - دار المعارف - القاهرة طبعة أولى، ج٢ :١٩٥٧.

٣- مايكل هارت - المائة الأوائل - دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة(٢) ١٩٧٩- ترجمة خالد أسعد عيسى- أحمد غسان سبانو.

هوامش:

-عباقرة العلم في الغرب - مصدر مذكور.

١- ص ٢٢٦

٢-ص ٢٢٧

٣-ص٢٢٧

٤- ص ٢٣٥

٥- ص٢٢٧.

□



مكسيم غوركي (١٨٦٨-١٩٣٦م).

" من المستغرب أن تكون طيباً بينما من حقّك أن تكون شريراً "

تولستوي

عاش غوركيَ في بيت جدّه لأمه مع جدته،كان الجدُّ أنانياً غليظ القلب والطباع يحمل عداءً للناس أجمعين يحاول الاستعانة با لله لتدمير حياتهم وإزالتهم من طريقه .. أما جدّته فكانت على العكس تماماً رحيمة تحب الناس وتصلي لله كي يهبهم العون والخير حتى خيل للطفل أن هناك إلهين :

أحدهما لجدّه: جبارٌ قاسٍ منتقم.

وثانيهما لجدته: شفيق غفور رحيم .

كان الجد والجدة قطبي الوجود عنده: البغضاء والمحبة، الشر والخير، كان الجد يضربه بدون سبب ،وكانت جدته تمسح جراحه وأحزانه ..

وهذه الجدّة كما يقول غوركي " أدخلتني الحياة اللذيذة على صعوبتها بين الناس وحين أفكر بهايزول الألم كلّه والجراح جميعهاويتغيّر كلُّ شيء، ويصبح أكثر جاذبية وأعظم تشويقاً ويبدو الناس أفضل مما هم..."

" قبل جدتي كنت مدفوناً في الظلمات، ولكنهاظهرت فأيقظتني وأخرجتني إلىالنور.. وأصبحت طوال الحياة الصديقة، الكائن الأقرب الأعز المفهوم وقد أغناني حبّها النزيه للعالم وملأني بأساً لحياة صعبة.."

***

وصل إلى الصف الثالث في المدرسة ،وأخذ شهادة ثناء أعطاها لجدّه الذي طواها باعتناء دون أن يفتحها وقال للصبيّ: " حسناً يا ألكسي لستَ قلادة أعلقك بعنقيْ فاذهب بين الناس واحصل على خبزك.." .

، ان ذلك الطردُ فجر حيـاة طافحـة بـالحوادث، معقـدة غريبـة يسـتحيل وصفهـا، إن
ا ..يا في خاطري كحكاية كئيبة رواها لي جنّي طيب القلب لكنه واقعي حتـى درجـة
لا.

... أعلن المستقبليون الروس في بيان شهير لهـم في مطلـع القـرن العشـرين رفضهـم،
مراء روسيا الماضين وهو (بوشكين) بقولهم :" لنلق بوشكين من سفينة العصر "!!.
ايهم (مكسيم غوركي) قائلاً: " بوشكين هو بداية كل البدايـات عندنـا .." لعـل
تصلح أن تكون مفتاحاً لشخصيةغوركي العظيم الذي لا يتنكر للعظمـاء قبلـه بـل
ـ نلهم، من خلال إيمانه بمبدأ التعاقب في الحركة التاريخيـة للثقافـة وإيمانـه بـأن
من القيم النبيلـة عنـد السابقين يُسـهم في تطويـر الأدب المرتبـط بحركـة الجماهـير

ا العظيم الذي صنع نفسه بنفسه وسط المشاق والمصاعب والتشرد والحرمان.. إذ بـدأ
اسكافياً ثم مساعد مساح أرض، ومساعد طاهٍ في سـفينة واشـتغل بسـتانياً وفرانـاً كمـا
انعا جوّالاً وحمـالاً في الميناء.. إن مـرارة الحيـاة هـذه أوحـت لـه أن ينتحـل اسمـا
من المرارة فكان اسمه المستعار (غوركي) الذي يعني المرّ... وعندما نشر أولى قصصه
المستعار كان عمره أربعة وعشرين عاماً وذلك بعد أن تعرّف على أحـد الثـوار المنفيـين
سيبريا.

غوركي .. حياة بلا طفولة

ولد (ألكسي مكسيموفتش بشكوف) الذي اشتهر بـ(مكسيم غوركي) عـام ١٨٦٨،لأب
نجاراً ومات هذاالأب وعمر الطفل أربع سنوات فذهبت به أمّه إلى بيت أهلها وتركت
هنالك في رعاية جدته الطيبة الذكية الواسعة الاطـلاع، والـتي أفـادت الطفـل كثـيراً .
المدرسةولكنه في الصف الثالث اضطر للعمل يتجـول في البيـوت يجمـع الـورق والخـرق
بها لم يستمر في المدرسة التي أجبر على تركها بعد ذلك،ليشـتغل صبيّـاً في حـانوت ..
غسل الأطباق ويمسح الأرض عند أحد المهندسين .. وهرب من ثـم ليشـتغل حمـالاً علـى
نهر الفولغا وعمره إحـدى عشـرة سنة... وبعدهـا اشـتغل في سـفينة حيـث انتهـت
الذي لم يعشها...وبدأ حياته (مع النـاس) – كمـاسمّى أحـد كتبـه – بوابـاً وحمـالاً
.. بدأت حياة غوركي هذه مع الناس الذين أثر بعضهم فيه بعمق.. منهـم تلـك
التي سبق ذكرها بقصصها وأغانيها الشعبيّة والثاني طاهي السفينة التي كان يعمل بها
(٦) والذي كان مولعاً بالمطالعة حيث نقل هذا الولع إلى الصبي المشرد (غوركي) .

ومن المؤكد أنّ الطفولة المفقودة في حياة كاتبنا كانت وراء فكرته النّبيلة بإنشاء الأدب العالمي للأطفال لأنه أدرك من خلال طفولته أهمية الكتاب في تربية ا... الروحية...

ورغم أن هذا الحلم لم يتحقق في حياته إلاّ أنه تجسّد وصار حقيقة فيما بعد.

خلال عشر سوات قضاها غوركي بعيداً عن قريته، عمل دون توان على تثقيف ... طالع المؤلفات الكلاسيكية – الروسية والأجنبية ووضع مجموعة من القصائد مثل ... الفلاح العتيق) وغيرها...

وعرضها على صديقه (كرولينكو) مؤلف رواية (الموسيقي الأعمى) الذي نصحه يقرض الشعر مُطلقاً وانصاع غوركي لنصيحة صديقه، كما كان بيتٌ من شعر ... "بوشكين" ترّسب في أعماق روحه لينجعله الناقد الأول لما يكتبه أو يصدر عنه: .

" أيّها الشاعر أنت المحكمة العليا لذاتك.."

إضافة للمؤثرين الهامين السابقين في حياة غوركي، فإن رحلةً كبيرة إلى ارا... سيراً على قدميه عام ١٨٩١م زاول خلالها مختلف الأنواع منها الفلاحة... أ... وكان الكثير من صور هذه الرحلة مرجعه الأول في أعماله الأدبية، وبعد هذه الرحلة حياة غوركي الأدبية التي قسمها بعض الدارسين إلى مراحل تبدأ الأولى عام ١٨٩٢م بعد سبعة أعوام ١٨٩٩م.

وتستمر المرحلة الثانية سبعة أعوام أيضاً من ١٩٠٠–١٩٠٧م وفيها تبلورت ... غوركي الكاتب الروائي وفي هذه المرحلة وضع روايته الخالدة (الأم)عام١٩٠٦، وال... أهم أعماله نظراً لأهمية المشاكل التي عالجتها ولجِدّتها وأسلوبها الفني ولتر... حياة اشخاص من الواقع الفعلي إذ أن بطل الرواية وأمه اشتركا في مظاهرات عام ... ١٩٠٢م وقد عاشا إلى ما بعد ثورة عام ١٩١٧ حيث صدرت الرواية بشكلها ال... الرقابة منعتها من الصدور قبل الثورة ..... والأم في هذه الرواية من النماذج ا... الخالدة التي أضافها غوركي إلى النماذج البشرية التي خلقتها المبدعون قبله . هذه ا... تمردت على ضعفها الماثل في حياة لا تعرف غير الخوف والدموع. . وعندما ا... للحياة طرقاً أخرى غير الدموع والخوف مارست إيمانها الجديد عندما تنقلت بين ا... وعلى ظهرها كيس وفي يدها حقيبة ... تتحدث إلى الناس بهدوء وجرأة ... أن تشترك في مظاهرة يقودها ابنها بطل الرواية.الذي قال مشيراً إلى ... والدته له ... ونضاله: " إنّها لسعادة نادرة أن يدعو المرء أمّه أمّاً في الدم والروح. "

وفي هذه المرحلة كتب أشهر مسرحياته (العوام) عام ١٩٠٠م (في القاع)عام١٩٠٢م هذه المسرحية الرائعة التي يتحدث فيها عن مراقبته عشرين سنة لحياة الناس... تُرجمت إلى معظم اللغات ومثلت في برلين أكثر من مئة وثمانين مرّة...

وكتب (المصطافون) المسرحية التي صوّر فيها المثقفين المبتذلين بتفاهاتهم وريائهم والذين يذرفون دموع التماسيح على مصائب الشعب ويحاولون تبريرها على أنّها ضرورة كما يبتدعون التسويغات لأي ظلم.

وامتدت المرحلة الثالثة من حياة غوركي حوالي تسع سنوات ١٩٠٨-١٩١٧م دافع فيها عن بلاده كجندي متطوع في الحرب الأولى ويقف مع الثورة ويقود الحركة الثقافية باتجاه التقدم ويحرر صحيفة(الحياة الجديدة) ويرأس تحرير مجلة "الآداب العالمية " إضافة لإسهاماته في تحرير عدد من المجلات الأخرى..

أما المرحلة الرابعة من حياة غوركي فقد امتدت من ثورة (اكتوبر) تشرين الأول الاشتراكية عام ١٩١٧م إلى عام وفاته١٩٣٦م وكتب فيهارواياته الضّخمة(سيرة أرنامونوف) صوّر فيها الإنسان ينحط ويتدهور نحو الحيوانية إذا عاش عيشة البطالة والفراغ لأن العمل بحدّ ذاته مفخرة الإنسان .. كما أرّخ في هذه المرحلة للكتّاب الروس العصاميين الذين بلغوا حسب تقديره ثلاث مائة كاتب منهم صانعوالأحذية والخياطون...

القيصر... يعترض!!

منذ بداية القرن بدأ نجم (غوركي) يلمع وانتخب عام ١٩٠٢م عضواً في أكاديمية العلوم دون أن يحمل شهادة علمية.. الأمر الذي جعل القيصر(نيقولا الثاني) يعلق على انتخابه قائلاً: " إنّه لحادث طريف حقاً!! .. وكتب إلى وزير معارفه يقول:" آمركُمْ أن تلغوا قرار الأكاديمية بانتخابِ غوركي في عضويتها.." !!

واحتج (تشيخوف) و(كورلينكو) على قرار القيصر بإلغاء انتخاب غوركي بأن أعلنا التنازل عن عضويتهما في الأكاديمية ذاتها إذا امتنع قبول غوركي ...

وعندما اعتقل غوركي عام ١٩٠٥م وزُج به في السجن قال المفكر الفرنسي (أناتول فرانس): " إن قضية غوركي هي قضيّتنا جميعاً وأننا نهتم بأمر حريته..." .

غوركي ... ضد اليأس

في مطلع القرن العشرين أصاب اليأس عمالقة الكتاب الروس فانتابت الحيرة بعضهم بسبب عدم وضوح الطريق نحو المستقبل ... أما غوركي فقد أدرك الأوضاع الجديدة التي

يمكن أن تولد من رحم اليأس والظلم وكان لحياته الخاصة واحتكاكه بالطبقات الشعبية المسحوقة الفضل في ادراك الوجهة الجديدة لحركة التاريخ ولعل ذلك يتضّح عندما يعلق (غوركي) علىمسرحية (الخال فانيا) لأستاذه " تشيخوف "، كتب يقول: "لقد اصبتَ الصميم حقاً ولكن ماالذي تطمح إليه بهذه الضربة؟ فهل يبعث الإنسان من جديد؟، لقد جاء دور البطولات والكل يُطالب بالأدب المثير النّير؟ الأدب الذي لايشبه الحياة، وإنما هو فوقها وأفضل منهاوأبدع" ولعلّه بهذا القول أيضاً قد وضع أهم اسس الواقعية الاشتراكية على الاطلاق .. وهو أنها لا تكتفي بتصوير الحاضر مستفيدة من الماضي وإنما تمتد أيضاً لترود آفاق المستقبل..

ومن كان مثل غوركي يغنّي لأجل الكادحين، يغتني بالمعرفة كما يغتني من الحياة الواقعية، لايمكن أن ييأس ،وإنما الذي يجعله قوّياً هو أنه يُساعد علي التقدم ويكون معاصراً في كل جيل.

غوركي ..الإيمان بالإنسان

انطلق غوركي من الإيمان بأن الأدب هو: علم الإنسان لأن مادة الكاتب المبدع هي الإنسان في أعماله في أفكاره في أحاسيسه ومشاعره.. وكلّما تعمق الكاتب في حياة الناس لمس أفكار قرائه وأحاسيسهم .. لقد وصل إيمان غوركي بالإنسان إلىدرجة شعر معها ان الإنسان شمس تضيء في صدره، يقول من قصيدة له بعنوان(الإنسان) :

" إنّني في ساعات التّعب الرّوحي"

أستدعي الإنسان بقُوّة تصوراتي"

الإنسان هو شمس تضيء في صدري.."

إنني أحترق لأضيء ظلام الحياة.."

وكما أنه لم ينزع الثقة من الواقع كذلك يقف بحزم ضد تحقير الإنسان وشتمه الأمر الذي شاع في أدب الربع الأول من القرن العشرين يقول: " الإنسان ليس مخلوقاً حقيراً كما يصوره المجتمع الطبقي .. الإنسان هو المعجزة الوحيدة علىالأرض، وكل المعجزات هي نتاج إبداعه وإرادته وعقله وخياله ويقول أيضاً :" خلال كل حياتي لم أرّ الناس إلاّ أبطالاً حقيقيين،الناس الذين يحبون ويستطيعون العمل يضعون نُصب أعينهم هدف إطلاق كل قوى الإنسان من أجل الإبداع من أجل تنظيم الحياة بشكل يليق بالإنسان، والإنسانية، وكما يراها غوركي – ليست مجرد حب جامح للنّاس بل هي كذلك سعيٌ نشيط لمساعدتهم كي يصبحوا أحسن وأسمى من أجل تقريب النّصر الحاسم على الأوضاع اللاإنسانية .

أن القيمة العالية لمجموعة كبيرة من مؤلفات غوركي وخاصة ثلاثيته بسيرة حياتي : الطفولة- مع الناس- جامعاتي- تكمن في تصويره الرائع لكيفية تكوين الإنسان لنفسه ولكيفية تحويل ذاته إلى شخصية عظيمة، بعد أن يتغلّب على الظروف .. وفاعلية الإنسان لا تظهر فقط في ارتباطها بالعالم الخارجي بل تظهر كذلك في علاقتها بالإنسان نفسه..

في هذه الكتب الممتعة البطل هو المؤلف الذي تحدّث عن سعيه لكسب قوته وتنقله من مكان إلى آخر ،وعن المبادئ التي تُقلقه: مثل الاشتراكية- العدل - التقدم - المعرفة - المؤثرات في حياته ،تلك الجدة التي نبّهت حواسه الخلاقة وغرست فيه روح النّضال من أجل المثل العليا ... هذه الجدّة المفعمة بروح الإنسانية، رغم حياتها القاسية المؤلمة.. وتحدث عن الأدب الروسي وتأثيره على نفسه: قصائد (بوشكين) وقصائد(ليرمنتوف) التي قال عن إحداها :

" لقد هزتّني وبح صوتي وأنا أتلوها.."

حياة غوركي كما تبدو في كتبه واقعية مثالية وبهذا فاخرّ (إنجلز) عندما خاطب البورجوازيين الصّغار بقوله :"... نحن الماديين في الواقع أكثر مثالية منكم بألف مرّة لأننا نقود الجماهير إلى الأمام بقوة..(١)وهذا قريب مما عبّر عنه الروائي العربي السوري (حنا مينة) حين قال :" لقد وجدت الرومانسية حيّزاً لها في الواقعية عند غوركي في نشيده (نذير العاصفة فهو نشيد رومانسي يعانق الثورة ويوحي بها وينذر القياصرة بالعاصفة (القادمة).(٢).

هذا الواقعي الرومانسي وصفه أحد أصدقائه في ذكرى ميلاده الستين بأنه آخر المتنبئين بالانقلاب المرتقب ،وأول كاتب عظيم توجه نحو الحركة العمالية ويقول:" ستأتي إلى العالم لتنقذه..." لأن الواقع الروسي كان خانقاً رهيباً كما يخبرنا غوركي في(طفولتي).

يصعب عليّ أن أصدق أن هذا الماضي كان حقاً على ذلك الغرار.. ولكن الحقيقة فوق كلّ شفقة ورحمة.. وأنا لا أكتب هنا عن نفسي بل عن البيئة التي مازال يعيش فيها الروسي العادي.

غوركي ..جزء من وعي الشعوب..

لأن " غوركي " ربط بين عمله كأديب وبين نضال الشعب التحرري فقد أصبح من أكبرالبُناة للثقافة الاشتراكية وأصبح إبداعُه جزءاً من وعي الشعوب التي تعمل من أجل التقدم لما يدعو إليه من تربية الناس على المواقف البطولية وعلىالشجاعة في ممارسة الحياة ،ولأن " غوركي كان القنطرة التي ربطت بين ماضي بلاده ومستقبلها، وبين بلاده والعالم...

وقد حيّا (رومان رولان) الكاتب.الفرنسي هذه القنطرة برسالة بعثها إلى غوركي عام ١٩١٨م حين قال: " إنّني أحيّ هذه القنطرة إنها تسمو فوق الطريق؛ وسيظل يراها أولئك الذين سيأتون بعدك زمناً طويلاً ".. وبهذه القنطرة احتفل الاتحاد السوفييتي عام ١٩٣٢م بمرور أربعين عاماً على حياة غوركي الأدبية وتغيّر اسم القريةالتي ولد فيها (نيجيني) ليصبح اسمها باسم ابنها البار الذي خلّدها (غوركي).

قال(مولوتوف) خطبةً جاء فيها:".. إن موت غوركي أعظم خطبٍ عرفناه بعد خسارة لينين كان كاتبنا،، الكبير يقف في مصاف جبابرة كتّابنا أمثال بوشكين، غوغول، تولستوي– وهو المتمّم لتقاليدهم الأدبية بل إن أثره أفعل فينامن أي أديب روسي آخر.."(٣).

ولن نجد في ختام هذا القول عن غوركي خيراً مما قاله (خرابتشنكو) في نهاية كتابه(ذات الكاتب الإبداعية)...

" إن أعمال غوركي نبعٌ لا ينضب من الحكمةالحياتية والجرأة الإبداعية والإيمان بالإنسان وقواه الخلاّقة...".

الأم نبعُ الحياة الظافرة:

إن إيمان مكسيم غوركي العميق بالحياة يتجلّى بأجمل صورة في (نشيد للأمهات) كتبه ذات يوم يقول فيه:

لنحتفل بالمرأة الأم التي لا يعرف حبّها الموانع هي التي أرضعت الكون

كل مافي الإنسان من جميل، كلُّ مايملؤنا حُبّاً للحياة يصدر عن أشعة الشمس وعن حليب الأم..

المرأة أم العالم وماهي تلك لأنها تنجب له الأولاد وحسب، بل وهذا هو الأساسي لأنها تكوّن الإنسان مُعطيةً إياه خيرة مباهج الحيـ ..

الأزهار لا تتفتّح بدون الشمس والسعادة لا وجود لها بدون الأم.

والحب لا وجود له بدون الأم (المرأة) والشعراء والأبطال لاوجود لهم بدون الأم.

كل اعتزازُ العالم مبعثُه الأمهات.

كل ماهو جميل علىالأرض يتولد من الحب للمرأة.

الأم عدوالموت...

أيّتُها الأمهات أنتن ملايين ومئات الملايين..

فلمَ لا تصرخْن قائلات لأولادكن الذين فقدوا الصّواب ..

كفى ! إنّنا نمنعكم عن التقاتل فيما بينكم..

جئنا بكم إلى الدنيا من أجل الحياة من أجل العمل ..

من أجل أن تزدهر عبقريتكم الخلاّقة..

من أجل أن تجدوا الفرح..

من أجل أن تجعلواالحياة أكثر صواباً وأكثر عدلاً وأكثر جمالاً ..

فلنمجد المرأة الأم الينبوع الثّر للحياة الظافرة..

هذه بعض ملامح الرجل الذي قال له " تولستوي" يوماً :" من المستغرب أن تكون طيباً بينمامن حقّك أن تكون شريراً.."لأن الحياة لم تكن طيّبةً معه ولكنه صمد للبيئة والقدر وشرور الحياة وانتصر عليها على حد تعبير (حنا مينة).

□□

مراجع ومصادر:

١- مكسيم غوركي -طفولتي - ترجمة المحامي سهيل أيوب ،دار التقدم - موسكو- المؤلفات المختارة / المجلد(١).

٢- مكسيم غوركي - بين الناس - جامعاتي/ المجلد (٢)- دار التقدم- موسكو.

٣-جلال فاروق الشريف - مراسلات غوركي- تشيخوف - دار دمشق للطباعة والنشر ط(٢)١٩٨١ .

٤- حنا مينة -كيف حملت القلم - دار الآداب - بيروت - ط (١)١٩٨٦ .

٥- سلامة موسى- هؤلاء علموني - سلامة موسة للنشر والتوزيع ط(٣)/١٩٦٥ .

٦- دكتور فؤاد أيوب - مقدمة رواية الأم - دار اليقظة العربية للتأليف والنشر ١٩٦٥ .

٧- ايفريم كارانفيلوف- أبطال وطباع - ترجمة ميخائيل عيد- منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق.

هوامش:

١- مؤلفات مكسيم غوركي - ترجمةالمحامي سهيل أيوب - دار التقدم- موسكو، المجلد الأول ص٩.

٢- حنا مينة - هواجس في التجربة الروائية - دار الآداب بيروت ،ط(١).ص ١٠٩ .

٣- خرابتشنكو- ذات الكاتب الابداعية ترجمة ، نوفل نيوف وعاطف أبو جمرة، وزارة الثقافة ١٩٨٠ ، ص ٤٨٠.

□



كــازانــتزاكــي (١٨٨٥ - ١٩٥٧)

" واجبنا ... أن نقف أمام الهاوية بكبرياء.. "

قادني الفيلم السينمائي الممتـاز (زوربـا اليونـاني) إلى رائعـة (نيقـوس كـازانتزاكيس) الروائية التي أُخذ عنها هذا الفيلم، وهذه تقـود القـارئ إلى مؤلفاتـه الأخـرى مثـل (الأخـوة الأعداء) و" المسيح يصلب من جديد ".

و" الكـابتن ميخـائيل" ومـن مسـرحياته : تسيوس - عطيـل يعـود- المسـيح وبـوذا و.بروميثوس وكتب أخرى عن الرحلات وبعد ذلك إلىكتابه الممتاز (الطريق إلى غريكو) الذي هومذكرات كازانتزاكيس ،ترجمة الشاعر ممدوح عدوان..

وكازانتزاكي كاتب ومفكر يوناني معاصر، وقمّة شامخة ببين كتّاب الأدب العـالميين إذ حقق شهرة عالميةكشاعر وروائي ..وُلد في جزيرة كريت اليونانية عام ١٨٨٥م، درس الفلسـفة والقانون في جامعة (أثينا) ثم انتقل إلى جامعة باريس حيـث درس الفلسـفةثم عـاد إلى وطنـه واعتزل عامين في دير للرهبان ؛وكان اعتزاله فترة تأمل عميقة اهتزّ معها الكثيرُ مـن أفكـاره الموروثة، وزادت رؤاه وضوحاً وشمولاً ،وخرج إلى الحياة بعد ذلك ليبدع ويكتـب مـن خـلال التفاعل مع الإنسان .كان غزير الإنتاج في قوّة وإبداع، متفتح الفكرفي حرّية وحيوية..

ومن أشهر أعماله الشعرية (الأوديسة) وهي ملحمة تصور المسار الفكري للكاتب نفسه.. ترجـم الروائـع الكلاسـيكية مـن الأوروبيـة إلى اليونانيـة مثـل الكوميديـا الإلهيـة (لدانتي).(فاوست) لـ (جيته) وهكذا تلك زرادشت لـ (نيتشه).

تحوّل في مرحلة لاحقة من عمره إلى الرواية التي كشفت عن قدراته الإبداعية الفـذّة في تمكنه من الأسلوب وتأمله العميق للحياة، حين اكتشف في نفسه عند سنّ الخامسة والأربعين نُضجاً فنيّاً واصبحت الطريق ممهّدة للإبداع ،حيث أعطى أعظم أعمالـه في السـنوات التسـع الأخيرة من حياته التي انتهت عام ١٩٥٧م.

* * * *

إن أدب كازانتزاكي محلّي وعالمي في آن معاً،فشخصياته اليونانية في سماتهاوأخلاقها تصلح لأن تكون نماذج عالمية من حيث القضايا التي تطرحها وطريقة معالجة هذه القضايا....

من أدبه نتعّلم أن الحياة لنا ومن أجلها نعيش ونناضل لأن الحياة ذاتها انتصار على الموت.. والحبُ والعمل زادُنا في مسيرة الحياة، وسبيلنا إلى الانتصار على اليأس .. والحب والعمل لا يكونان إلاّ للإنسان الحر، الذي يُجرّب حياته كلّ لحظة ولا يقنع بأفكار مُسبقة موروثة، أو قوالب محفوظة..

يقول على لسان (يانكوس) بطل روايته (المسيح يُصلب من جديد) "وهكذا يكون الإنسان كائناً حياً ،يتكلم ويعترض ويُسائل .. وإن أسلحتنا لمواجهة الحياة: العمل والصبر والحب....".

* * * *

كانت الحرية أول رغباتي الكبيرة، أما الثانية والتي تعّذبني كانت الرغبة في الطهارة البطل مع القديس هذا هو النموذج الأمثل للإنسان .. لذلك قرر " كازانتزاكي " أن يكون (يوليسيس) الرحّالة الباحث رمزه المثالي، فسافر كما تُسافر طائرات (الجت) تغذيه قوّة اندفاع من انفجارات عدم رضاه الذاتي، كما يقول (كولن ولسون)..يوليسيس هذا توّصل إلى إنسان نبيل عن طريق المعاناة .، وبسبب ذلك فقد غدا كاتِبُنا رمزاً للرجل الذي يرفض التنازل عن البحث وقد استمر في البحث عن إجابات حتى لحظة وفاته...

من هذه الزاوية كتب مسرحية رائعة عام ١٩٤٩م (كريستوف كولومبس) تسلّط الضوء على الرجل الذي تسيطرعليه شهوة السفر والمعرفة، ولا يبتعدُ عن هذا الاتجاه في حياته، إن كازانتزاكي كان يمجد دائماً في حفلات تكريمه:" العقل الباسل الذي لا يملُّ من البحث الدائم..".

* * * *

" إن حياتي الشخصية لها بعضُ القيمة.. ولكن القيمة الوحيدة التي أعرفها جيداً كانت في تلك الجهود من أجل الصعّود من درجة إلى أخرى للوصول إلى أعلى نقطة يمكن أن يقود إليها الصمود والعناد...

ويُشير إلى أن الكثيرين يصلون إلى الدرجة الأولى أو الثانية ثم يتهاوون لاهثين في منتصف الرحلة ولا يصلون إلى ذروة واجبهم، مع أن واجب كلّ إنسان حقيقي أن يحمل صليبه ويصعد جلجلته....

لعلّنا هنانستطيع أن ندرك لماذا كان هذا الكاتب يعتبر نفسه متجدد الشباب ،وهو في الرابعة والسبعين من عمره ؟!ولماذا احتفظ بالثقة الفائقة بالنفس تلك الثقة التي رفضت أن تتمرغ .. تروي زوجته(هيلين كازانتزاكي): "... في باريس كان مريضاً،درجة حرارته مرتفعة والأطباء مُضطربون، لقد فقد الجميع الأمل ... لكنه ظل متماسكاً ،طلب قلماً وأملى عليّ الكلمات التي ينطق بها القديس: قلت لشجرة اللوز حدثيني عن الله ياأختُ.. فأزهرت شجرة اللّوز..."

* * * *

يقول: طوال حياتي كانت هُناك كلمة تعذبني وتجددني هي كلمة(الصعود) وسأتابع الصعود وأنا أمزج الواقع بالخيال وسترون أثار الخُطا الحمراء التي خلّفتها ورائي وأنا أصعد وهذا الأثر الدامي هو العلامةالتي ستبقى بعد فنائي.. وهناك أربع درجات حاسمة في صعودي: تحمل كلُّ منها اسماً مُقدساً: المسيح، بوذا، لينين، يوليسيس،أماماخلفته من آثار سيقول: " إنّني رجلُ صعد جبل مصيره الوعر وكانت هذه الآثار هي تصوير هذا الصعود..".

إن ما يميّز الانسان هو أنه ليس سفينة شراعية بل سفينة ذات محرك صغير قادر على قيادتها حين تعزُّ الريح...

إن الذي أثرّ في حياتي إلى أبعد الحدود، أكثر بكثير من المدارس والمعلمين أكثر من المُتع والمخاوف الأولى، التي انتابتني من رؤيتي للعالم ،والذي هزّني بطريقة فريدة: هو الصراع بين كريت وتركيا.. كنتُ أتعجل أن أكبر لكي أسير في الطريق التي سار فيها جدّي، وأبي ،وأحارب، كانت هذه البذرة ومنها راحت شجرة حياتي كلّها تنمو وتبرعم وتزهر وتثمر..كان التّوق للحرية هو الذي أثار نفسي في البدء وتسلّقت قمة الحرية الصعبة الشاقة: الحصول على الحرية أولاً من الأتراك، وبعد ذلك الصراع الجديد للحصول على الحرية من الأتراك الداخليين: الجهل والحقد والحسد، من الخوف والكسل من الأفكار الخادعة المُضللة .. وأخيراً من الأصنام كلّها حتى أكثرها محبّة واحتراماً وبهذا فإن ولادتي ككريتي حين كانت كريت تُقاتل من أجل حرّيتها جعلتني أدرك منذ طفولتي أن هذا العالم يحتوي على خيرأعز على النفس من الحياة وأحلى من السعادة: هو الحرية..

أثناء الحروب كانت قريتي (ميغالوكاسترو) تتلاشى كي تتسامى أمامي جبالُ كريت ،وكانت قوّة كريت في داخلي فوق قوتي تتحكم بي، وكانت تمنعني من الاستسلام الذي حاولتُ أن أسقط فبه مراتٍ عديدة وتغلّبت علىالخوف منذ الطفولة، انطلاقاً من احترام النفس وفكرة أنّني كريتي التي ولّدت في نفسي الكبرياء والعناد والبسالة ومع هذه جميعاً تفرح لكونك إنساناً ..

من أجل ذلك رفض كازانتزاكي أن يكون قدّيساً كما رُسم له لأنّه يرى أن القدّيسين صاروا أكثر إذعاناً إنهم يحنون رؤوسهم دائماً ..

"..... لقد كان لدّي حدسٌ أن الرجل الحقيقي هو الذي يقاوم ويكافح ولا يخاف عندما يقتضي الأمر أن يقول :لا..".

إن من واجبنا أن نحدد لأنفسنا هدفاً أبعد من الفردية وأبعد من عاداتنا المريحة والمقبولة وأسمى من نفوسنا وأن نجدّ ليلاً ونهاراً من أجل تحقيق هذا الهدف.."

كنتُ شرهاً للمعرفة أسرع إلىالمكتبات واشتري المخطوطات عن الأراضي البعيدة والمكتشفين العظماء وقد نزلت بقلبي بذرة(روبنسن كروزو) بشكل واضح ونما في نفسي حبُّ القديسين الجُدد، الذين لم يكونوا ينسون الصداقات وكانوا يأخذون كلَّ ما يرغبون بالعمل المتواصل.."

لا أنسى حتى بعد مرور سنوات طويلة ذلك اليوم الذي حصلت فيه كريت على حريتها، والذي أوصل الحرية إلى بلدي أمثال ذلك الراعي الذي يعبق بروث الماعز، والذي عاد لتوّه من الحرب حيث قاتل كالأسُود وعندما تلقّى ورقة ثناء مطبوعة تهنئة على أعماله الباسلة تصفه بالبطل قرأ المراسل الورقة ،لم يفهم الراعي!! ،قالو له: إنّك بطل إن وطنك يرسل لك هذا الثناء ،تحفظه لك ولأولادك.. مدّ الراعي يده ومزّق الثناء وألقاه في النار وقال: قل لهم: إنني لم أحارب كي أتلقّى هذه الورقة، لقد قاتلتُ كي أصنع تاريخاً، قُلْ لهم لا أريد أي جزاء حاربت لأنني كنتُ أريد ذلك هذا هو العمل الأول في حياتي..."

إن علامة السعادة عند كازانتزاكي أن يقفز قلبه مثل العجل الصغير، وكان يحدث له ذلك حين يُقابل شروق الشمس أو لوحة فنيّة أو امرأة أو فكرة جديدة..

يحدثنا في مذكراته أن الأرقام الزوجية تجري مُعاكسةً لقلبه ،ولا شأن له بها ،لأن حياتها مرتبة بشكل مُريح جداً،إنّها تقف على أقدامها بثبات كبير،وليس لديها أية رغبة، في تغيير مكانها فهي قانعة ومحافظة ومستقره لقد حلّت كلّ مشكلة، وحوّلت كلّ رغبة إلى واقع وهدأت، الرقم الفردي هو الذي يتلاءم مع إيقاع قلبي فحياة الرقم الفردي ليست مرتبةً بشكل مريح والرقم الفردي لا يحب العالم بالشكل الذي يراه عليه، بل يرغب في تغييره والإضافة إليه ،ودفعه إلى الأمام، يقف علىقدم واحدة والأخرى جاهزة في الهواء وهو راغبٌ في الرحيل إلى أين؟إلى الرقم الزوجي التالي من أجل أن يتوقف قليلاً، يلتقط أنفاسه ويستحضر رقماًجديداً..".ودائماً يتذكر كازانتزاكي القول الكريتي " عُد إلىحيث فشلت وغادر من حيث نجحت.." فإن فشلت فسأعاود الهجوم حتى لو لم يبق إلاّ ساعة واحدة من العمر...".

تقدمت بثقة كانني أعرف وجهي الحقيقي، وواجبي الوحيد أن أعمل هذا الوجه بأكثر ما أستطيع من صبرٍ وحُبٍّ ومهارة، أن أعمله؟مامعنى ذلك؟..معناه أن أحوّله إلى لهب وإذا كان لدي الوقت قبل مجيء الموت، أن أحوّل هذا اللهب إلى ضوء، بحيث أن ملك الموت لن يجد – حين يأتي شيئاً فيَّ كي يأخذه إلاّ القليل من العظام..

" إن الأمر الذي ساعدني في الوصول إلىهذه الثقة أكثر من أي شيء آخر، هو أن أسلافي فيهم جميعاً آثار عربية ؛فهم فخورون وعنيدون، ومعتدلون في طعامهم، كانوا يخزنون حبّهم أو غضبهم سنوات عديدة في صدورهم دون أن ينبسوا بكلمة ثم بغتة ينفجرون ... والقائدة بالنسبة لهم ليست الحياة بل العاطفة، وقلبي يخفق فرحاًحينما أصادف نخلة تظنُّ أنّهاتعود إلىمسقط رأسها في القرية.."

* * *

إن هناك تعاقداً غامضاً بين الأرض التي ولدنا عليها ،وبين أرْواحنا التي نمت فوقها، وتماماً كما تُرسل الجذور أمراً سرّياً إلى الشجرة كي تزهر، وتحمل الثمار كي تبرر وجودها وتصل إلى الهدف من رحلتها..كذلك فإن أرض الأسلاف تفرض وصايا صعبة علىالأرواح التي ولدتها ويبدو أن الأرض والروح مصوغتان من المادة ذاتها وتقومان بالهجوم ذاته والروح هي التي تحقّق الانتصار الأكمل..

(كان والدي شجرة سنديان بجذع صلب وأوراق خشنة وثمر مُرٍّ بلا أزهار وكانت كل شجرة تذبل في ظلّه وأنا الآخر كنتً أذبل في هذا الظل .. كنتُ أفكر في والدي فيجبُن قلبي ولهذا كنتُ مُجبراً علىكتابة كلّ ما كنتُ أرغب في نقله بدلاً من أن أصبح مُكافحاً عظيماً في مملكةالفعل– بسبب خوفي من والدي– لقد كان هو الذي حوّل دمي إلىحبر.. لقد سلكتُ طريقاً لم أختره بل هو الذي اختارني.."(١).

بدأت أكتب لكي أحول صرختي الداخلية وأمنع نفسي من الانفجار، كنتُ أتمنى أن أحول الكلمات إلى أفعال، ولكن العمل انحطّ إلى كلمات وتحوّل الدم إلى حبر وبدلاً من إشهار الرمح وشنّ الحرب فإنّني أمسك بريشة صغيرة وأكتب..

لقد كان لقائي بـ (زوربا) مُتأخراً لقد سبق ذلك أن انحدرتُ إلى حامل قلم لا شفاء له..

طوال حياتي وأنا واقع تحت سيطرة الشخصيات البطولية العظيمة،ربّما لأنني قرأت حياة القديسين بكثير من التأثر في طفولتي ،وكنتُ أتوق لأن أصبح قديساً بدوري، ثم بعد ذلك وهبتُ نفسي،وبالانفعال ذاته للكتب التي تتحدث عن الأبطال الفاتحين والمكتشفين والدون كيشوتيين وحالما يُصادف أن تجمع شخصية ما بين البطولة والطهارة أحوز على

نموذجي من الكائن البشري وبما أنّني لم أستطع أن أكون قديساً أو بطلاً فلقد حاولت عن طريق الكتابة أن أجد العزاء عن عجزي.

كنتُ أعرف أن ما أكتبه لن يكون كاملاً من الوجهة الفنيّة ذلك أنّي تعمدت تخطّي حدود الفنّ.. وكلّما كتبتُ أكثر تعمق إحساسي بالكتابة، كنتُ أكافح ليس من أجل الجمال بل من أجل الخلاص،وإذا كنتُ أكتب فلأن الكتابة كانت سندي الوحيد في كفاحي وحين ننجح بالكتابةأو بالعمل مجرى نهر فإن الحقيقةتجري فيه وتتخذ مساراً لم تكن لتتخذه لولا تدخلنا ومساهمتنا.. رُبّما كانت الكتابة لعباً في عصور التوازن والانسجام، ولكنها اليوم مهّمة جسيمة لم يَعُد الغرض منها التسلية والمساعدة على النسيان، ولكن الغرض من الكتابة تحريض الإنسان على بذل قُصارى جهده لتجاوزالوحش الكامن في أعماقه..

في كلّ ما كتبت كنت أفرش الأرضية من الأساطير، أوالعصور القديمة، إلاّ أن المادةحديثة وحيّة تُعاني من مشاكل معاصرة ومن عذابات أيامنا وكنتُ أرى دائماً أن فنان اليوم المبدع إذا قام بالتعبير عن أعمق توجساته الداخلية تعبيراً صادقاً ومتكاملاً فإنه بعمله هذا يُساعد إنسان المستقبل على أن يولد قبل ساعة من موعده وأن يكون هذا الإنسان أكثر قرباً من الكمال.

إن قيمة الانسان لا تكمن في النصر، بل في الكفاح من أجل النّصر وأن القيمة الأكثر روعة تكمن في شيء واحد فقط هو أن يعيش ويموت بشجاعة دون التنازل بقبول أي جزاء. جاهدت كثيراً كي أعثر على مُصطلح بسيط دون رقمة.تزيينية المصطلح الذي لا يثقل على عواطفي بغناه فيُحطمها،متذكراً قصة ذلك المتصوف المسلم العطشان الذي أنزل الوعاء في بئر لكي يسحب الماء ويشرب، رفع الوعاء فرآه مليئاً بالذهب أفرغه وأنزله من جديد ثم سحبه فكان مليئاً بالفضّة أفرغه وقال:" ... أعرف أنّك مليء بالكنوز يامولاي ،ولكن أعطني فقط بعض الماء لأشرب: أنا عطشان، أنزل الوعاء ثانية وسحب الماء، ثم شرب،هكذا يجب أن تكون الكلمة: دون زينات،" كنتُ مفتوناً بثلاثة من مخلوقات الله: الدودة التي تصير فراشة،والسمكة الطائرة التي تقفزمن الماء محاولة تجاوز طبيعتها،ودودة الحرير التي تحول أحشاءها إلى حرير...".

كانت حياتي غاية في البساطة لدرجة أن اعتبرهابعض الناس معقدة بشكل خطر،" وكلّ مافعلته في حياتي البسيطة، حاول الناس أن يكسبوه معنىً مختلفاً ويتكهنّوا حوله بما هو مُختفٍ وكامن.... حياتي بسيطة حتّى أنّني لا أفعل شيئاً حتى أنّني لا أدخنّ.."..(٢).

ذات يوم سألت نبتات شوكية شُجيرةالورد: ألا تُعلّميننا سّرك كيف تصنعين الوردة؟ أجابت شجيرة الورد:".. سرّي بسيط جداً ياأخواتي الشوكيات إنني أعمل طوال

الشتاء بصبرٍ وثقةٍ وحب وشيء واحديستولي على ذهني: الوردة يلسعني المطر وتعريني الريح من أوراقي ويسحقني الثلج، لكن شيئاً واحداً يظل مستولياً على ذهني: الوردة هذا هو سّري ياأخواتي..".

كي يستمر الواحد منا في الصعود كما يُحبّ أن يسميه الكاتب لابد أن ينظر إلى نفسه بمعرفة وتواضع لأن ذلك الذي يعتقد أنه على القمة لن يتقدم أبداً إلى الأعلى . لنسمعه يُقارن نفسه مع صديق شاعرٍ عاش معه طويلاً ،يقول" .. كنتُ خالياً من السذاجة وغير واثق من أي شيء،لم أولد أميراً، ولكنني كنت سأجاهد كي أصبح أميراً، أما صديقي فلا شك أنّه وُلد أميراً وليس عليه أن يُعاني، وأن يُكافح كي يصبح أميراً وليس عليه أن يتوق إلى القمة، طالما أنّه كان واثقاً أنه قد وصل إليها. كان مُقتنعاً أنه فريد من نوعه، ولن يتنازل لمقارنة نفسه بأي فنان آخر حيّاً كان أم ميتاً،وقد منحته هذه السّذاجة قوّة وثقة في النفس عظيمتين".

في داخل كلّ إنسان مُتكامل،مركز غامض يدور حوله كلُّ شيء آخر، وهذا الدوران الغامض يوّحد بين أفكاره وأفعاله ويُساعده في العثور علىالانسجام الاجتماعي أو اختراعه. .هذا المركز بالنسبة للبعض هو: الحب ولآخرين هو: الجمال ولغيرهم هو: المعرفةوالتعطّش إليها، ولغيرهم: الذهب أو السلطة.. إنّهم يفحصون القيمةِ النسبّية لكل شيء وفقاً لهذه العاطفة المركزية ويالتعاسة الإنسان الذي لا يُحسّ نفسه محكوماً في داخله من قبل سلطان مُطلق فحياته غيرُ المحكومة والمشوشة تبعثرها الرياح الأربع.

يقول كازانتزاكي:" كان الأمر الهام بالنسبة لي، أنني يجب أن أجد أو(أخلق) هدفاًمُنسجماً مع نفسي ذاتهاوباتباعه أستطيع إثارة إمكاناتي ورغباتي الخاصةإلى أقصى حدّ ممكن وعندها أخيراً سأكون مُتعاوناً بانسجام تام مع كلّية الكون..".

كنتُ أعتبر الأمل الميتافيزيقي طعماً مُغرياً، لايتنازل الناس الحقيقيون لقضمه،كنتُ أريد كلّ ما هو أكثر صعوبة:" الإنسان الذي لا يئن ولايتراجع ولا يمضي مُتسولاً راجياً . الإنسان الحقيقي ليس غنمة وليس كلب حراسة، أو ذئباً أو راعياً،إنه مَلِك يحملُ مملكته معه ويتقدم .

ما أجمل أن تكون حيّاً ومعك حواسك الخمس الأبواب الخمسة التي يدخل العالم منها- وهي تعمل بشكل جيد:

ما أجمل أن تقول:" إن العالم جميلٌ ،وأناأحبّه..إن أثمن الغنائم العقلية التي حصلت عليها في بلدي هي أنني أدركت بأن عظمتها ليست في الجمال بل في الكفاح من أجل الحرّية لم يكن جمال بلادي هوالذي دلّني علىالطريق،وأدخلني في الرجولة بل المسؤولية . تلك هي الثمرةالمرّة التي كنتُ أمسك بها في يدي وأنا أدخل بيت أبي بعد عودتي من رحلة الأشهر

الثائرة في ربوع بلادي، رجعتُ وصرختُ بثقة، " أين أجدُ روحاً عنيدة بـآلاف الجـروح مثـل روحي كي تستمع لاعترافي؟ بهدوء وإشفاق، أعتصر كمشةً مـن الـتراب الكريـتي في راحـتي [illegible] أحتفظ بهذه التّربةدائماًخلال تجوالي وأنا أضغطها في كفّي لحظات الألم العميق،فاستمد [illegible] القوةالعظيمة كأنّني استمدها من الضّغط علىيد صديق حبيب وغالٍ، هـذه التربـةهي مـا [illegible] دائما وأبدا وهي ما سأكونه دائماً وأبداً..

[illegible] كازانتزاكي عن (كريت).

أما ما قاله عن قريته الصغيرة (ميغالوكاسترو) فكـان رائعـاً يتفجـر بالنّـاس الحقيقييّـن [illegible] المرء يتحسّسهم على وشك الخروج من بين سطور الصفحة تقريبـاً علىحـد تعبـير (كولن ولسون)(٣).

هؤلاء ... علّموني :

إن ما يبقى خالداً في نفسي معلم الصف الأول الذي كنـتُ أنظـر إلى أسـلوبه والعصامعـه [illegible] ولكن بعد أن عرفتُ الطبيعة البشريةبشكل أفضل باركتُ عصا المعلم المقدّسة [illegible] ألمتنا المعاناة، هي المرشد الأعظم في ذلـك الصعـود الـذي يقـود مـن الحيـوان إلى [illegible] ويبقى كذلك خالداً في نفسي والدي يوم أن هبّت عاصفـة عاتيـة في الصيـف ذهبـت [illegible] وما لنا ومؤونة الشتاء وبكىالنـاس واسـتنجدوا لكـن والـدي قـال: عندمـا قُلـت لنذهـب [illegible] " لم نذهب اخرس، لم أنس هذه اللحظة طوال حيـاتي وأعتقـد إنهـا نفعتـني كـدرس [illegible] في أزمات حياتي.. كنتُ دائماً أتذكره وهو واقف بهدوء دون حـراك علـى العتبـة دون أن يلعن أو يتوّسل أو يبكي .. بلا حراك كان يقف يرّقب الخـراب وحـده، بـين الجـيران، [illegible] محافظاً على كرامته البشرية..".

[illegible] إن الإنسـان هوالحيـوان الوحيـد الـذي يفكـر في المـوت.. " لكنـني أخـالف هـذا [illegible] .. الإنسان هو الحيوان الذي يفكر في ديمومةالحياة.."(٣).

"[illegible] سجنتُ الموت" هكذا قال جدّي!!

[illegible] حققت ذلك، قال: " بعدم خوفي منه"..

[illegible] أنّنالا نستطيع أن نقهر الموت إلاّ أننا نستطيع أن نقهر خوفنا منه.. هكذا يقول الجبلي الذي وسمّت التلال روحه وحصّنتها..

[illegible] من شيخ كان يعظ الشباب ليبعث فيهم الشجاعة حدقوا في الخوف، في عينيه [illegible] إذا استطعتم عندها فإن الخوف سوف يّولي هارباً".

وتعلمت من سمكةرأيتها بين أسماك عديدة كانت تلعب في الماء، سمكة نشرت زعانفها بغتةً وقفزت خارجة من الماء لكي تتنفس الهواء، رأت في نفسها قدرةً أكبر من أن تعيش في الماء، تاقت لأن تتعدّى حدودها وتصبح عصفوراً ولو لوهلةٍ قصيرةٍ هذه الوهلة عندي هي الأبدية،رأيت فيها كريت بلدي السمكة التي تقفز لكي تتجاوز الضرورة وتتنفّس الحرّية.."(٤).

سأظل كشجرة تهب عليها الريح ؛ويسقط عليها المطر والشمس وسأظل أنتظر بثقة ،فساعةُ الإزهار والإثمار التي يطول انتظارها لابدّ أن تاتي ..

وقد لخص (كازانتزاكي) رحلته الفكرية بكلمات وردت في مذكراته (الطريق إلى غريكو)

"... أنامثل الحكيم الصّيني القديم بدوتُ وكأنني ولدتُ أشيب عجوزاً مغمداً بلحية بيضاء كالثلج، ومع مرور السنين صارت اللحية شهباء،ثم راحت تسّودُ تدريجياً ثم تساقطت، في سنوات شيخوختي انتشر زُغب ناعم دقيق علىخدّي، لم يكن شبابي إلاّ مجموعة من المُقلقات والكوابيس والتساؤلات وسنوات نضجي لم تكن إلا إجابات متعثّرة.

كان شبابي ورجولتي يدوران حول قطبي الألمْ والأمل ،لكنني الآن في شيخوختي أقف أمام الهاوية هادئاً ودون خوف ام أعد أذل نفسي .. أعرف تماماً أن الموت اللامرئي قادمٌ لامحالة،وأعرف كذلك أن قيمة الإنسان لا تكمن في النّصر، بل في الكفاح من أجل النّصر.."(٥).

" إن أسلحتنا في هذا الكفاح:العمل والصبر والحب " كما جاء على لسان أحد أبطال كازانتزاكي ..

يؤمن كازانتزاكي أنه لم يعد بمقدور أحدنا أن يعيش مُنعزلاً لأن العيش مع الآخرين ومن أجلهم يضمن الخلود الذي يتخطّى قوانين الطبيعة حيث تنهي حياتنا بالموت وهذايحتاج منا إلى البطولةلأنه وكمايقول: " ليس تحت تصّرفنا إلاّ دقيقة واحدة فلنحول هذه الدقيقةإلى أبدية،إذ لا وجود لأي نوعٍ آخر من الخلود.."

تقول زوجته في مقدمة كتابه" تقرير إلى غريكو"

" ... وفي السنوات الثلاث والثلاثين التي قضيتُها إلى جانبه، لا أذكر أ[illegible] من تصّرف واحد من جانبه،كان نقياً دون مكر وبريئاً وعذباً، بلا حدود [illegible] وقاسياً مع نفسه فقط وحين ينسحب إلى عزلته فإنه كان يفعل ذلك لإحساسه [illegible] المطلوبة منه قاسية وأن ساعاته محدودة وجاء(كيرون)(٣) عليه اللعنة - وحيداً [illegible]

---

٣ كيرون: ناقل أرواح الموتى إلى هيدس -عزرائيل،توفي الكاتب عام ١٦٥٧.

زهرة شبابه نعم، فقد كان الوقت الذي مات فيه هو الوقت المناسب للإزهار والإثمار بالنسبة لكل مـا بـدأه، ذلـك الرجـل الـذي أحببتـه والـذي أحبّـك صديقـك (نيقـوس كـازانتزاكي)" ١٥حزيران ١٩٦١.

هيلين.ن.كازانتزاكي

شاء قـدر كـازانتزاكي أن يحمـل آمـال شـعبه في الحريـة والطمـوح إلى المجـد المؤسـس علىتاريخ عريق وكان بحق أحد المناضلين الكبـار مـن أجـل حريـة اليونـان،وكـانت حياتـه ملحمة حب وحرّية،ويشعر القارئ في كل ما كتب دفء العلاقات الإنسانية كما يحس بعبـق اليونان المجيد ..... ورغـم الطعـم الفكـري والروحـي واليونـاني، يجـدُ القـارئ أيّـا كـانت جنسيته أو فكره أو عقيدته، يجد نفسه بين سطور كلماته صورة إنسانية صادقة التعبير.

إنه في كل ماأبدع إنسان مترفع.. وجوده مشروع إنساني يختاره بوعي ويفرضه والحياة عنده قبول للتحدي .

يتساءل: ماهو واجبنا؟ ويجيب: أن نقف أمام الهاوية بكبرياء.

آثر أن يكتب على شاهد قبره في جزيرة كريت

" لاأهاب شيئاً

لا أطمع في شيء

إنني إنسان حر"

وافته المنية عام ١٩٥٧

من أعمال الكاتب :

"الأوديسة" ملحمة حاكى فيها هوميروس.

زوربا اليوناني - رواية

المسيح يُصلب من جديد - رواية ترجمة شوقي جـلال- القـاهرة،رسـالة إلى غريكـو(تقرير إلى غريكو) سيرة ذاتية ترجمة- ممدوح عدوان.

الإغواء الأخير المسيح- ترجمة - أسامة منزلجي.

الإخوة الأعداء- رواية ترجمة اسماعيل المهدوي -القاهرة.

□□

المراجع والمصادر:

١-كازانتزاكي-تقرير إلى غريكو_ ترجمة ممدوح عـدوان، دار ابن رشـد للطباعـة والنشـر ج١ -ط١- ١٩٨٠ .والجزء الثاني الطبعة الأولى ١٩٨٣ .

٢-كولن ولسون- الشعر والصوفية- نشردار الآداب - بيروت - الطبعة الأولى-١٩٧٢ .

٣- كازانتزاكي - زوربا اليوناني - ترجمـة جـورج طرابيشـي - منشـورات دار الآداب، ط١ أيلـول (سبتمبر) ١٩٦٥ .

كازانتزاكي:

٤- المسيح يصلب من جديد- ترجمة شوقي جلال - مراجعة دكتور نعيـم عطيـه- الهيئـة المصرية العامة- للتأليف والنشر -١٩٧٠ .

٥- كازانتزاكي - الحرية والموت ،رواية ترجمة سعد زغلول نصار، مطـابع الهيئـة المصريـة العامـة للكتاب،١٩٧٧ .

٦-كازانتزاكي -الإغواء الأخير للمسيح رواية ترجمة .. أسامةمنزلجي - دار المـدى للثقافـة والنشـر ١٩٩٥،

هوامش

١-تقرير إلى غريكو- ترجمة: ممدوح عدوان،ج٢/ص٢١٦ .

٢- المصدر نفسه،ج١ص٤٤ .

٣- الشعر والصوفية -دار الآداب، بيروت، ص ٢١٧ .

٤- تقرير إلى غريكو،ج٢ ص ٥٢ / ٢١٧

٥-المصدر نفسه جـ٢ /ص١٩١ .

٦-المصدر نفسه جـ٢ /ص ٢٣١ .

٧-المصدر نفسه جـ١/ص ٩ .

□□



غابريل غارسيا ماركيز " ١٩٢٨-؟ م "

" واجب الكاتب الثوري أن يكتب جيداً"

المبدعون هم الذين يسعون إلى القاعدة العريضة للحياة التي هي الناس أما المدعوّن فيريدون من هذه القاعدة أن تزحف إليهم.. ويكبر المبدع بقدر ما يذهب إلى الناس لينتقل بهم إلى العوالم التي يريد... ومن هؤلاء الكبار الروائي الكولومبي العالمي (غابريل غارسيا ماركيز)،ومن النادر أن يؤثر كاتب في حياته بالآخرين كما أثر هذا العملاق.. الذي قاده إبداعه لأن يصبح في فترة قصيرة في مصاف المبدعين الذين تميزوا بطرائقهم الخاصة في تناولهم للواقع..

ولد ماركيز عام ١٩٢٨، في مدينة (أركاتكا) بكولومبيا وهي مدينة صغيرة من مدن المنطقة الحارة الضائعة بين البحر وكثبان الرمال وفيها أنهى دراسته الابتدائية، وكان شغوفاً بحكايات جده وجدّته اللذين نشأ في رعايتهما.. يقول ماركيز عن جده:" كان رجلاً عظيماً وهو أهم من أثّر في تكوين شخصيتي، مات وأنا في الثامنة أما جدتي فكانت مدهشة رأيتها دائماً في ثوب الحداد وكانت تسكنها حكايات خرافية أيقظت مُخيلّتي، لم يحدث أي أثر هام في حياتي بعد الثامنة . كل ماأثر في تكوين شخصيتي كان قبل ذلك.

شهد ماركيز الخراب الذي حلّ بقريته ،والعزلةالباردة التي أطاحت أعز الناس إليه: جدّه وجدّته.. شهد شحوب وتبدّد عالمه القديم فلم ينسَ أن يعود إليه عامراً بالحنين والدهشة.

فكتب عمله الكبير " مائة عام من العزلة" الذي مزج فيه الواقع بالخيال .. لقد كان الزمن هو الأقوى فبعد تقلّبات كثيرة عاد، فمحا كلّ شيء..

وعندما أغلق دكتاتور بلاده الصحيفة اليسارية التي كان عضواً في هيئة تحريرها،انقطع مورد رزقه فانغمس بلهفة في الحياة الثقافية وبدأ يطوف بين عواصم العالم إلى أن استقر به المقام في باريس فمارس أعمالاً عديدة، وعرف الفقر على حقيقته وهُنا يقول:"... لم أكن أعرف الفرنسية فصرت أجمع الزجاجات الفارغة وأبيعها،وأقوم بتوضيب الصحف.. كنتُ

أدافع عن حياتي وقد ظللتُ ثـلاث سنوات طـوال أعيـش المعجـزة اليوميـة، بينمـا تنمـو في الأعماق المرارة الهائلة..".

وبعد ذلك انتقل إلى (كاركاس)وربطته علاقة وثيقة بالثائر الكوبي (فيديل كاسترو) كمـا ربطته علاقة مماثلة بالثائر العالمي الشهيد (تشـي غيفـارا) وانتقـل عـام ١٩٦١م إلى المكسـيك وبقي الأمر كذلك حتى عام ١٩٦٧حيث نفىنفسه طوعياً إلى (برشلونة) طالباً الهدوء الضروري الذي يستطيع معه مواصلة إبداعه، ولكن ذلك لم يبعده عن وطنه (كولومبيا)، يقول: غادرت الوطن ولكنني مازلت أحيا في (كولومبيا)...

يُعلل ماركيز سبب محبتّـه الإقامـة في برشـلونة " بـأن حركـة حياتهـا مطـردة ودفئهـا إنساني وهي مدينة منفتحة على البحر والعالم وفيها كـل الأفكـار الحـافزة للطمـوح وكلمـامرّ زمنٌ ازداد شعوري بالارتياح كما لو أنني في بيتي، فيها شعرت بالحرية وحين يشعر الكاتب بالحرية فإن خير ما يفعله أن يستريح إلى الكتابة.. ويعلل ماركيز السـبب الخفـي لاختيـاره برشلونة مكاناً لإقامته في أنّـه يعـود إلى تعّرفـه علـى الغشـتالي.(رامـون فينيـس) في كولومبيـا وهوطفل وكان(فينيس) يملـك مكتبـه مليئـة بـالمجلدات القديمـة يومهـا– يتذكـر مـاركيز– " دخلت المكتبة طلبت كتاباًلاحظ صاحب المكتبة،أن الكتاب لا يُناسـب سنّي، وقـال :" عُـدْ متى انتهيت منه وافقتُ، قرأتُ الكتب التي نصحـني بهـا هـذا القشـتالي .. قـرأت الكتّـاب الكلاسيكين، وكنت شديد الحماسة لقراءة" كافكا"و".وجويس." وكانت لغـتي حينئـذٍ سـيئة مفرطة الزخرف عصّية على الفهم، فنصحني (فينيس) النصيحة الجوهرية التالية:

"حاول أن تكتب كما تتحدث إذا فهمنـا حديثـك فـأجدر بنـا أن نفهـم مـاتكتب ومـن يومها عرفت نفسي جيداً..ولم أندم على ولادتي، برجي الحوت وزوجتي " مرسيدس" وهمـا أبرز حدثين في حياتي فبفضلهما وإلى اليوم على الأقـل نجحـت في مقاومـة الصعوبـات الـتي اعترضت حياتي الأدبية.."

وحين عاد إلى باريس بعد سنوات قال: " لم تتغيّر باريس .. أنا الـذي تغـيّرت.. ولـو بحثت عن عمل لحصلت عليه، علىأنني لو لم أعش سنوات العذاب الثلاث تلك، لما كنـت الآن كاتباً، هناك تعلمت أن لاأحد يموت جوعاً.وأن المرء قادر على العيش تحت الجسور.."

وماركيز المبدع الكبير لا ينفصل عن قضاياعصره الملحة فهو يقول في حوار له مع مجلـة (الكرمـل)العـدد(٣)صيـف١٩٨١ :"أنـامع العـرب سُجنت في فرنسـا أيــام حــرب التحريــر الجزائرية.. أنا مع فلسطين طوال العمر..".

وفي عام ١٩٨٣دُعى " ماركيز" لزيارة بلده كولومبيا من قبل رئيس الجمهورية وكان هذا علىاستعداد لاستقباله في المطار.. فجاء ردّ الكاتب بالرفض لهذه الدعوة، إلاّ إذا أقدم الرئيس علىالإعلان عن إطلاق الحريات في البلاد وعودة الديمقراطية..".

إن هذه المواقف وغيرها تثبت وعيّه الكامل لما يدور حوله من أحداث والتزامه الثوري بقضايا شعبه.. ولم تستطع حكومة بلاده الالتفاف حول قلمه الجريء.. لم تستطع تطويق أفكاره وبقي يتعامل مع الكلمة بمسؤولية ونزاهة وشرف حتى صار له من بلاده ومن أبناء الشعوب الأخرى هذا الحب..

وحين سئل عن معونة مادية تقدمها له حكومتُه إذا شاء وهي الحكومة التي لا يثق بها كان ردّه: أعتقد أن معونة مادية لا تتصل بمهنة الكتابة تعرّض استقلالية الكاتب للخطر، والحريّة قضية أساسية في تعديل قدرة الكاتب،كماأنني لاأشارك في إجراءات دعائية لبيع كتبي لأن العمل، الشريف الوحيد الذي يجب أن يقوم به الكاتب حتى تروج كتبه هو أن يكتبها جيداً وأستطيع أن أخدم وطني دون أن أخدم حكومته بترفعي، بأن أتابع الكتابة مترفعاً ... ما يعنيني هو أن أكتب روايات لاأن أنشرها..".

من الصحافة ... إلى الرواية

اضطر ماركيز أن يعمل كي يعيش في الصحافة التي يرى أنها [illegible] لايرحم يمتص حيويتنا الخلاقة حتى آخر نقطة دم في عروقنا.. غير أننا لن نتعرّف ميداناً مثلها يثقف مشاعرنا ويوقظنا على الحدث اليومي.."

وعندما استطاع تأمين عيشه ترك الصحافة إلى الروايةمومناً أن الانطلاق من الصحافة نحوالأدب يفترض الاستقصاء والانتقاء والتأمل والتأليف، وبالتالي الجهد والصبر والشجاعة لأنّه ليس عملاً صناعياً يولد في أنبوب تجربة دون أن يشارك في ظروف الحياة ومآسيها..

كيف أكتب؟؟

كان عليّ أن أخضع لنظام شنيع حتى أنهي كتابة نصف صفحة في ثماني ساعات، كنتُ أصارع كل كلمة وتنتصر عليّ الكلمة علىأنني عنيد إلى حد استطعت معه نشرأربعة كتب في عشرين سنة،ويتقدم عملي في الكتاب الذي أؤلفه ببطء علىخلاف الأمر في الكتب السابقة، ذلك أن ساعات راحتي قليلة بالقياس إلىالأوقات التي يتنازعها الدائنون وينهشها الألم العصبي، لا أفكر خلال الليل والنهارإلاّ بما أكتب، أحدث به أصدقائي الحميمين ممن يتفهمون نفسيتي ولكنني لا أقرأعليهم سطراً واحداً منه .. لا.أدون الملاحظات إطلاقاً إلاّ

بعض الإشارات إلى برنامجي اليومي، فقد علمتني التجربةأنناإذا قضينا الوقت نفكر في الملاحظات المدونة نسينا الكتابة ومسار الكتابة. (١).

إن انتشار الأدب الرخيص يعرقل المسيرة نحو الاشتراكية .. وإن إسهامنا في دفع عجلة تقدم بلادنا يكون ليس بكتابة روايات حسنة الشكل فحسب، بل إذا كتبنا روايات ذات مضمون واعتقد أن واجب الكاتب الثوري أن يكتب جيداً ذلك هو التزامه..

إن دور الأدب في التغيير محدود ولكنه يعرف أن يترك أثراً في أقل الناس تفاعلاً مع الحياة ولذلك فإن الخيال المبدع والكتابة الفنيّة، يسلحان الناس بالأمل والقدرة على التهكم والإدانة..

ماركيز والقارئ:

لأن ماركيز يحترم القارئ يترك له حرية التأويل فهو ليس لجوجاً ولا يتلّهى بعرض أفكاره، ولكنه يمر بها سريعاً يكتبها بأسلوب جريء مرح تاركاً في الوعي محلولاً مثيراً لأن الناس وخاصة الفقراء كما يقول ماركيز:" في غير حاجة إلى أن نظل نروي لهم مأساة الاضطهاد والظلم فهم يعرفون تفاصيلها غيباً، ما ينتظرونه من الرواية أن تكشف لهم جديداً ."

يقول (ماركين) لا تعجبني الفكرةالتي لا تقاوم الإهمال طويلاً وفكرة روايتي (مائة عام من العزلة) قاومت الإهمال سبعة عشر عاماً فكرت فيها طويلاً إلى حد استطيع استعادتهامرات وجهاً وظهراً كما لو كانت كتاباً قرأته من قبل.. أصعب أمر عليّ أن أكتب المقطع الأول وقد يستغرق ذلك شهوراً بل سنوات حتى أكتبه جيداً فإذا كتبتُه استطعت أن أقرر إذا كان للقصة مستقبل.."(٢).

مائة عام من العزلة.. بداية من القمة:

عاش ماركيز فقيراً لكن متفائلاً حتى عام ١٩٦٧ حين نشرت روايته (مائة عام من العزلة) فجعلت منه مليونيراً شهرةً ومالاً ،قال عنه أحد الكتاب الإسبان: إن من يعيش على سجيته ولا يسعى إلى الدعاية قلّما يثير اهتمام الآخرين.. لبرشلونة أن تفخر أن يكون هذا الذي، باب مرافئ العالم قد اختارها لإقامته ولكن بلدنا لا يفخر إلاّ بالتوافه؛وإنّه لشرف عظيم لأي بلد في العالم أن يكون بين قاطنيه كاتب " مائة عام من العزلة" هذه الرواية عندما صدرت اعتبرها نقّاد كثيرون مأزقاً لماركيز لا يمكنه الخلاص منه عندما يُصدر رواية أخرى واعتبروا القرية المخترعة(ماكوندو) سرداباً لن ينجح في الخروج منه،لكن (ماركين) الحيوي

القادر على تجاوز نفسه وتجديد أسلوبه قد أكدّ أنه ليس من مأزق لا مخرج منه وقال :" إذا لم تنتشر الرواية الثانية كما انتشرت الأولى(مائةعام..) تعاطيتُ مهنة أخرى، وكان قد كتب روايته اللاحقة (خريف البطريرك.) بحوالي خمس سنوات، بينما استغرق في روايته الأولى تسع عشرة سنة .

"مائة عام.." رواية تسرد حكاية قرية(ماكوندو) استوحاها الكاتب من قرية آركاتاكا) مسقط رأسه ،فعل ذلك كي يحرر القرية من وضعها الخاص كنقطة على الخريطة لتصبح حالة إنسانية فهي إذن صورة للعالم أومعادل أو رمز لتاريخ البشرية كما يقول النقاد .

كان لماركيز من قوّة التأثير حيث يعود كل قارئ لروايته هذه إلىمشاهد طفولته،ويشعر أنّه يعرف شخصياتها بحيث يمكن لكل واحد أن يقول " إن قريتنا أيضا تشبه قرية ماركيز المتخيّلة التي فشلت في الاحتفاظ بماضيها، كما فشلت في مواجهة الحاضر وخرجت من الزمن بالموت والجنون والدمار، لأن الأجانب لم يكونوا وحدهم أعداء (ماكوندو) بل كان لهامن نفسها أعداء آخرون...

لقد صارت قرية (ماكوندو) قرية كـل المعذبين في الأرض لقد حمل ماركيز قريته إلى العالم وما أجمل أن نرى مبدعاً عربياً يجعل من قريته قرية عالمية خلال عمل إبداعي

إن الرواية عمل قادر على زلزلة كل من يقرؤه .. فحين سئل الكاتب " [illegible]". هل قرأت " مائة عام من العزلة"؟ ما رأيك فيها ؟ قال :" لقد أذهلتني وهزّتني إلى درجة سأعيد فيها النظر برواياتي كلّها" ترجمت هذه الرواية إلىالعربية في نهاية السبعينيات [illegible] مستويات مختلفة لم يتكهن بها المؤلف من قبل فكل فئة تقرؤها بطريقتها الخاصة [illegible] المؤلف عن روايته هذه :" إن قيمة مائة عام.. في أنّني تجرأت على كتابتها [illegible] كتبتها" كنت أحمل موضوع هذه الرواية في أعماقي منذ سنين.. حاولت أن أكتبها [illegible] مرات غير أني كنتُ أشعر أني غيرُ مُهيّا للكتابة، فأجلّته .. كان بين الموضوع وبين إمكاناتي الكتابية الهزيلة مدىً كبسطة جناحي طائر ثم وجدتني يوماً واثقا من نفسي . [illegible] أكتب كما لوأن هاجساً هيمن عليّ.. ظللت أكتبها طوال سنين كل يوم منذ الصباح حتى الغداء..كان علي أن أهزم الخوف وأن أنسى محاولاتي السابقة الفاشلة، [illegible] الأصدقاء الذين قدّموا المساعدة لـِ " آل ماركيز".

هكذا كتب هذا الروائي الكولومبي " مائة عام من العزلة " التي كانت مصدر شهرته العالمية وأصبحت كند، الأخرى تباع بفضل هذا العمل، يشتريها قراء معنيون بالأدب ليتابعوا تطور الكاتب الذي بلغ مصاف عباقرة الرواية من خلال سيطرته على اللغة،إضافة إلى قدره العميق الذي أدرك بسرعة أن أصعب مشكلة:

هي أن يهدم الخط الفاصل بين الواقعي والوهمي وكانت صعوبة اللغة مشكلة أساسية، فالحقيقة لا تبدو حقيقة لأنها كذلك ببساطة، بل بفضل الصيغة التي تُصاغ بها، كان عليَّ أن أعيش عشرين عاماً بعد ذلك ،وأؤلف أربعة كتب لأكتشف أن مفتاح الحل، كان في أساس المشكلة: وهي أن أروي القصة ببساطةكما لوكان الجدّان يرويانها بلهجة رتيبة ورباطة جأش أمام المحنة وصفاء لا يتغير ..

كان العجوزان يبدوان كما لو أنهما عرفا:

" أن ليس ما يقنع في الأدب أكثر من الاقتناع الذاتي.."

- خرج ماركيز على العالم عام ١٩٧٥برواية (خريف البطريرك) المشغولة جيداً، وهي نشيد مذهل ضد الدكتاتورية ،نال جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٢.

يقول ماركيز:" لن أنسى ما حييت أنّني واحد من ستة عشر طفلاً لأب يعمل في إدارة الهاتف في بلدة " أركاتاكا".

إن كاتباً مثل "ماركيز" وقبله " رسول حمزاتوف" جعلانا نعي من جديد أهميةالنماذج الشعبية ونكتشف من جديد الحيوية الكامنة في حكايات الأجداد.

□□

المراجع والمصادر:

١- ميغيل فرناندز- براسو- عزلة ماركيز- دار الكلمة للنشر - طبعة ثانية - ترجمة فاديا ظافر شعبان..

٢- أحاديث غابريل غارسيا ماركيز- حوار بلينو ميندوزا- ترجمة ابراهيم وطفي- دار طلاس للنشر - دمشق - طبعة أولى،١٩٨٦م.

٣- الأديب وصناعته - ترجمة جبرا ابراهيم جبرا- المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط٢، ١٩٨٣م.

٤- ذات الكاتب الابداعية - خرابتيشنكو، ترجمة: د. نوفل نيوف وعاطف أبوجمزة - منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي دمشق، ١٩٨٠م.

٥- مجلة (المعرفة) عدد (٢١٧) آذار ١٩٨٠ مقال عن(خريف البطريرك).

٦- مجلة(الكرمل) عدد (٣) صيف ١٩٨١- إكرام الإنطاكي .

٧- دكتور شاكر مصطفى - الأدب في البرازيل - سلسلة عالم المعرفة/الكويت، أيار (مايو) ١٩٨٦م.

هوامش:

١- ميغيل براسو - عزلة ماركيز - دار الكلمة للنشر -بيروت ،ط(٢)/١٩٨٣/ص٤٣ .

٢-المصدر نفسه /ص١١٣.

□□



تـنـويـه:

كثير من الشكر عليّ أن أقدّمه لكل من قرأ المخطوط، وأبدى ملاحظاته القيّمة.
وأخص بالذكر الأستاذ "اسماعيل الملحم" الذي أفدتّ من ملاحظاته الدقيقة.

□



محتويات الكتاب:



رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية :

هكذا يصنعون أنفسهم: شخصيات ومواقف / فوزي معروف- دمشق : اتحاد الكتاب العرب ، ١٩٩٧.-١٧١ ص ؛ ٢٤ سم .

١- ٩٢٠ ع م ع ر ه ٢- العنوان

٣- معروف

ع: ١٩٩٧/٧/١١٠٨ مكتبة الأسد

□□



اتحاد الكتاب العرب
Union des Ecrivains Arabes
Damas دمشق









السعر داخل القطر ١٥٠ ل. س
السعر خارج القطر ٢٠٠ ل. س

مطبعة اتحاد الكتاب العرب
دمشق